الألف كتاب (الثانى) ١٢

القاهرة
مدينة ألف ليلة وليلة
(٩٦٩ - ١٩٦٩)

تأليف: أولج فولكف
ترجمة: أحمد صليحة


الهيئة المصرية العامة للكتاب

الألف كتاب الثاني ١٢

القاهرة

مدينة ألف ليلة وليلة

٩٦٩ - ١٩٦٩

الاخراج الفنى : البير جورجى

المراجعة والاشراف الفنى : عفاف توفيق

القاهرة
مدينة ألف ليلة وليلة
٩٦٩ - ١٩٦٩

تأليف : أولج فولكف

ترجمة : أحمد صليحة



١٩٨٦

مقدمة

قليل من المدن تلك التى يمكن أن تثير خيال المرء لدى سماع اسمها كمدينة القاهرة ان هذا الاسم يبعث فى النفس صورا وخيالات بطولية رائعة أو مفزعة وقاسية • وهناك نرى الأهرامات ، تلك الصروح الهائلة تعبر عن فكرة الخلود فى عالم سماوى لاعن نهاية الحياة التى توحى بها المقابر الأوربية • وتبدو لنا قلعتها كقائد حربى مختال يشرف على جنوده اللذين تؤلفهم منائر العاصمة ، فترسم لنا صورة المماليك بعمائمهم وثيابهم الفضفاضة وهم منطلقون على صهوة جيادهم المطهمة ، وفى ايديهم سيوفهم مشرعة ينعكس عليها ضياء الشمس •

وقد يثير هذا الاسم صورة مدنية حديثة تذدحم بالسيارات وتخترق سمائها الطائرات ، ولكن على تعدد تلك الصور وتباينها ، تشترك جميعا فى كونها صورا جذابة تضاعف من روعة تلك المدينة العتيقة •

ولكن اذا ما تسألنا عن ما هو هذا السحر المختص لمدينة القاهرة ، لوجدنا ان الاجابة الدقيقة عسيرة • لذا فكل ما يمكن قوله هو ان أسرد بضع عناصر أولها تراث المدينة الثرى الذى يشيع فى روح الانسان النشوى وهذا التراث لا يتمثل فقط فى الأبنية العتيقة التى شيدت على مدار خمسة آلاف عاما ، ولكن فى الشواهد الدالة على حضارات عدة متباينة ، شكل كل منها وجه المدينة باسلوبه ، وخلف لنا آثارا تشهد بذلك •

فهنا جامع سامق يدعو المارة الى الاحتماء فى ظلال ايوانته الرطبة من قيظ الشمس ، وهناك كنيسة قبطية عتيقة تزدان بصورة القديسين الرصينة ، والى جانب هذا تقوم عمائر حديثة الطراز ثقيلة ومتزاحمة تبرز بين الفيلات الأنيقة التى تطل على نهر النيل •

ويبدو ان هذا السحر وليد نعومة خاصة تميز بها تيار الحياة القاهرية تنجت عن صفاء سمائها الحلوة ، التى لا تتخذ المظهر المتجهم للسماء الأوربية ، ومن اعتدال مناخها الذى يخلو من التقلبات الحارة والعواصف المدمرة ، ومن أهلها الذين يفتقرون الى خشونة النورديين

من أهل الشمال الأوربى وإلى همجية القبائل الأفريقية ، فخلقهم يتسم بالسماحة واللين وأخيرا فتلك هى النعومة المميزة لبلد شديد الخصب يشيع فى أرجاء حياته الكسل واللامبالاه ، وهما كلمتان لاتثيرا فى النفس الأوربية المعاصرة سوى ذكريات اليمة لاسلوب حياة قد مضى وانتهى ٠

وهناك سبب أخر لهالة السحر تلك التى تحيط بالمدينة ، تمثل هذا فى الأساطير العدية التى ترسم لها صورة شاعرية تمس شغاف القلوب ٠ فيقال أن هناك صخرة تحمل أثار أصابع النبى موسى ٠ وفى تلك الصخرة أختفى الفرعون من أبى العبرانيين ٠ وقبل أن يخرج هؤلاء الى سيناء ، قيل أنه تسلم بعضا من الواح الناموس فى جبل المقطم ٠ وتوجد فى الجيزة نخلة يعتقد أن « السيدة العزراء » ارضعت فى ظلها الطفل « ياسوع » ٠ وفى جامع عمرو بن العاص يوجد عمود يقال أنه طار من مكة الى مصر ٠ وبالقرب من جامع ابن طولون يقال أن أرواح أسرة الرسول صلعم تجتمع كل ليلة تحت رئاسة ملكة عجوز (كذا) حتى تتباحث فى أمور مصر وتوحى لحاكمها بقراراتهم ٠ وفى المعتقدات الشعبية نرى النيل الذى يحمل الخير أو الدمار لمصر ينبع من الجنة لا من الهضاب الافريقية ٠

ونحن فى هذا الكتاب نحاول أن نتتبع قصة تلك المدينة التى لا تتشابه مع غيرها من المدن الأوروبية ، فكما ذكرنا أنفا أن هذه المدينة لم تكن متجانسة العناصر ولكن كانت مزاجا من عدة مدن متباينة العصور والحضارات٠ فاذا كانت لندن وباريس ونيويورك تبدو لنا أشجارا قوية نمت وترعرعت فى جو متجانس حافظ لها دائما على الجذور الأولى ، أثناء تطورها المستمر ، فان مدينة الفسطاط القديمة بأكواخها المتزاحمة حول عدد من الكنائس والأديرة تفتقر الى رباط حضارى مع مدينة القاهرة الفاطمية بقصورها الزاهرة وحدائقها البديعة ٠ وهذه المدينة بدورها لا ترتبط مع المدينة الحالية المزدحمة بأى رباط سوى الرقعة الجغرافية ٠

*

وحتى يتسنى لنا رؤية هذا الخليط المعمارى الرائع يجب علينا أن نصعد فى أحد أيام الصيف الى أعلى جبل المقطم الذى يشكل نصف دائرة تحيط بالمدينة ٠ وأول مانراه مرتسما على خط الأفق المنارتين الرشيقتين لجامع محمد على وقد بدا كرمحين مشرعين ٠ وخلف

الأرض الخضراء التى تمتد الى ما لا نهاية ترتفع الاهرامات فوق الأفق بأحجامها المتدرجة · وبين الأهرامات وجبل المقطم يمتد مجرى النيل كثعبان هائل فضى يضفى على هذا المنظر الماثل لأعيننا جوا من الغموض الأسطورى · وعلى صفحة النهر تجرى فى خفة قوارب ذات أشرعة مثلثة محملة بالقمح أو الفخار ، تذكرنا بالصور الملونة التى نراها على جدران المقابر المصرية القديمة · وتمتزج معها القباب التى تبدو كما لو كانت معلقة فى الهواء ، ومئات المنائر التى يحط عليها الطير · وتبدو لنا من أعلى شبكة الطرقات المتشابكة ، كلوحة طليت بطبقة من الطلاء اللامع تشققت تحت وهج شمس مصر الساخنة فيلف الصمت المطبق كسكون المقابر بعض طرقاتها ، وتصخب بعضها بضوضاء كهدير سيل جبلى · وفى الشمال ترتفع على حافة الصحراء الداكنة مجموعة من القباب العالية التى تتناثر فى ارجاء قرافة المماليك ، وتبدو كما لو كانت خوذات سقطت من فريق من العمالقة · فاذا ما جل المساء خلعت عليها أشعة الشمس الغاربة حلة قرمزية · وانتشر فى كل مكان ضياء الشمس النحاسى أو الذهبى المتقاطع مع أجمات النخيل والذى يتسلل الى كل ركن ليمحق الظلال ويمحو زرقة السماء ، فيموج المكان بالضياء ، ويخلع جوا من البهاء حتى على أحقر الأبينة · وهذا الجو اللطيف والسماء الرائعة أثرا ملطفا على النفس البشرية فلا عجب ان قال ذلك الرحالة الذى وردت قصته فى كتاب ألف ليلة وليلة « من لم يرى القاهرة لم يرى شيئا » ·

الفتح العربى ـ الفسطاط ـ العسكر

كان عمرو بن العاص فى الخامسة والأربعين من عمره عندما فتح مصر . كان معتدل القوام ، ربعة ، ضـــخم ، عريض المنكبين ، واســع الصدر ، ضخم الفم ، ناتىء الجبهة وعيناه سوداوتين ثاقبتين . كان عنيفا فى غضبه وكانت لحيته مخضبة بالســواد ويوحى مظهره بقوة شديدة ، غير انها كانت خاليـــة من الصرامة التى تشـيع الخوف . اما وجهه فكان يترك انطباعا حســنا فى النفوس . وكان النبى صلعم يقدره تقديرا كبيرا ويرى فيه مسلما نموذجيا آهلا للثقة . وقد قال عنه انه رجل من خيرة رجال قريش ، وقدره كثيرا لعلمه وشجاعته .

وتظهر روايات عدة نسجت عنه انه كان يجمع بين سلامة العقل وقوة الجسم وحماسا هائلا وقوة ارادة وشجاعة فى مواجهة الصـعاب مع رباطة الجاش والبراعة . كان متحدثا لبقا ومثقفا بمعايير عصره ، وكان شغوفا بالموسيقى والشعر . وقد اختاره محمد صلعم لفصاحته كى يؤم الناس فى صلاة الجمعة ابان حياته ، كما اشتهر أيضا بسرعة البديهة . وعندما اراد الخليفة عمر يوما ان يعبر عن تباين مخلوقات الله فى اقدارها ، حين سمع رجلا يتأتىء ، قال « **أشهد أن خالق هذا الرجل وعمرو واحد** » (*) .

(★) ترجمة للنص الفرنسى .

امتزجت فى شخصية عمرو ملامح القديس مع الجندى ، والمغامر مع الشاعر ، وكان يشيع حوله جوا من السحر ، فقد كان صريحا وواضحا فى تصرفاته ، عظيما فى أهدافه وأدائه بهذا الطلسم استطاع ان يكتسب ولاء العديد من الرجالات · هذا هو الرجل الذى أراد بأربعة آلاف فارس ان ينتزع من الامبراطورية البيزنطية أغنى مقاطعاتها ·

وقد نسجت العديد من الأساطير التى لاتخلو من الخرافة حول الفتح العربى لمصر · فقد ذكر السيوطى ان عمرو كان قد زار مصر قبل حملته المظفرة فى عام ٦٤١ م ففى أثناء سفره من مكة الى مدينة القدس لأداء بعض الأعمال كان يعبر أحد الجبال حينما وجد راهبا مسيحيا على وشك ان يهلك عطشا فسقاه ثم نام الراهب ، وأثناء نومه خرج تعبان من كهف فأسرع عمرو بقتله · وعندما استيقظ الراهب قص عليه عمرو الحادثة فطلب الراهب المفعم بالامتنان من عمرو ان يصحبه الى الاسكندرية حتى يقدم له ألفى دينار هدية وهو ضعف المبلغ الذى كان يأمل ان يجنيه من رحلته · ووصلا الى الاسكندرية ، بينما كان الملك ورجاله يحتفلون بعيد · وكان من بين الألعاب لعبة تقذف فيها كرة من الذهب وعلى اللاعبين ان يحاولوا التقاطها بأكمامهم · وكان الاعتقاد الشائع ان من يمسكها لايموت قبل ان يشغل منصبا فى حكومة البلاد · البس الراهب عمرو ثيابا من حرير واصطحبه الى العيد · وعندما قذفت الكرة سقطت فى كم عمرو ، فانفض الناس قائلين « ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة · اترى هذا الأعرابى يملكنا ؟ مايكون هذا أبدا » · وعندما خرجوا من القصر قص الراهب على أهل الاسكندرية المعروف الذى صنعه عمرو وطلب منهم ان يجمعوا له ألف دينار مكافأة · فتم له ذلك ثم غادر عمرو البلاد ·

فى عام ٦٣٨ م التقى عمرو بالخليفة عمر بالقرب من دمشق · وعقد معه اجتماعا تاريخيا دعاه فيه الى غزو مصر · وطبقا لرواية المؤرخ العربى ياقوت قال عمرو للخليفة « يا أمير المؤمنين ائذن لى ان أسير ، فانك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم · وهى أكثر الأرض اموالا ، واعجزها عن القتال والحرب » · وتردد الخليفة خشية ان يعرض المسلمين للخطر · لكن عمرو أصر وأخذ يسهب فى مدح مصر مهونا من أمر غزوها · وانتهى الخليفة الى أن وضع تحت تصرف عمرو قوة من أربعة آلاف فارس قائلا « سر وانا مستخير الله فى سيرك ، وسيأتيك كتابى سريعا ان شاء الله ، فان أدركك كتابى وامرتك فيه

بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من ارضها فانصرف ، وان انت دخلتها قبل ان يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » ٠

رحل عمرو وأخذ عمر رضى الله عنه فى الابتهال لله ، لكن الهواجس انتابته وخوفا على مصير المسلمين كتب الى عمرو آمرا اياه بالعودة ووصلت الرسالة عمرو بينما كان لايزال فى رفح من أرض الشام خمن عمرو فحوى الرسالة فانتظر حتى وصل الى العريش فى مصر قبل أن يفتحها ٠ ولما قرأها سأل ضباطه قائلا « **أهذا المكان فى مصر أم فى الشام ؟** » **فاجابوه « فى مصر »** ٠ فقرأ الرسالة بصوت عال واطلعهم على ما كان قد اتفق عليه مع الخليفة ثم أمرهم بمواصلة السير ٠

غزت الجيوش العربية مصرا وسقطت مدنها تباعا الواحدة بعد الأخرى ٠ الفرما ثم بلبيس ومدن أخرى أقل أهمية ٠ وبعد ان احتل العرب قرية أم دنين الواقعة على شاطىء النيل الشرقى (ربما فى موقع الأزبكية الحالى) ، استولى عمرو على القوارب وعبر النهر واستولى على الفيوم ثم دخل الى الصعيد وتهاوت نظريات الحرب القديمة الرومانية أمام قدرة العرب على الانتشار السريع والمناورة والهجمات الارتجالية العبقرية لفرسانهم ٠ أربكت غاراتهم المفاجئة البيزنطيين الذين عجزوا عن مقاومتها ولما فشل البيزنطيون فى قطع اتصالات العرب مع شبه الجزيرة العربية ، تحصنوا فى داخل قلعة بابليون المنيعة التى تشرف بابراجها المنيعة المستديرة على مدينة مصر ـ خليفة ووريثة ممفيس القديمة ٠ وعندما حاول البيزنطيون فك الحصار منوا بهزيمة ساحقة فى سهل هليوبوليس ـ المكان الذى هزم فيه كليبر الانكشارية الأتراك تحت قيادة يوسف باشا بعد هذا التاريخ بأثنى عشر قرنا من الزمان٠ وتحصن ما تبقى من البيزنطيين فى بابليون لكن الحصن استسلم بعد ستة أشهر فى ابريل سنة ٦٤١ م ٠

وتلى هذا سقوط الاسكندرية وجلاء ما تبقى من قوات البيزنطيين ، ثم اخضاع مصر كلها تدريجيا وبذا انتهت سبعة قرون من الاحتلال البيزنطى تلاشت كخيمة بدوى حملتها بعيدا رياح أعصار ٠

❋

وضمانا لسيطرة العرب على مصر ، ونظرا لأن بعدها عن أرض الجزيرة العربية كان يمكن أن يجعل من استردادها ان سقطت أمرا صعبا ، فقد اعتزم العرب الاستقرار فيها ٠ وبمجرد أن وقعت معاهدة الجلاء واجه العرب مشكلة اختيار العاصمة ٠ أراد عمرو أن يتخذ

من الاسكندرية قاعدة لحكمه نظرا لشهرتها وثرائها ، لكن عمر رضى الله عنه رفض ان يترك قواته فى مدينة تفصلها مياه الفيضان عن أرض الجزيرة العربية فى كل عام لذا انعقد الاختيار أخيرا على قمة المروحة التى تشكلها دلتا نهر النيل ، لكن الآراء تضاربت فى اختيار الموقع الفعلى للمدينة : ايكون على الضفة الشرقية أم الغربية • أراد الاتقياء ان يجعلوها على الضفة الغربية ذلك ان الرسول صلعم ذكر ان الجيزة بها روضة من رياض الجنة • لكن عمرو كان عملى التفكير فقد فضل الضفة الشرقية حتى يكون الخليفة على اتصال قوى بجيشه • وكان من رأى الخليفة انه من الأفضل ان تكون الجيزة والروضة نقطتى ارتكاز ونقل للجيوش من الشرق الى الغرب وهكذا وقع الاختيار على الضفة الشرقية فى البقعة المجاورة لحصن بابليون المهيمن على الطرق المؤدية الى الصعيد ، لكن جزءا من الجنود الذين كانوا بالجيزة رفضوا مغادرتها بحجة انهم أمضوا بها آكثر من شهر • وبموافقة الخليفة صرح لهم فى النهاية بالاقامة فيها على أن يشيدوا حصنا بدء فى اقامته فى عام ٦٤١م. وانتهى فى السنة التالية •

وبالقرب من بابليون ينفتح وادى التيه الذى كانت تعبره القوافل ذهابا الى الجزيرة العربية محملة بخيرات مصر وايابا من المدينة المنورة محملة بالمؤن والتعزيزات • ومن هناك أيضا كان يبدأ الخليج ، وهو قناة تخرج من النيل شمال الفسطاط وتمر بهليوبوليس (عين شمس)• وتخترق السهل كله حتى يصب فى البحر الأحمر قرب مدينة السويس الحالية وكانت فى الأصل فرعا من النيل طمته الرمال واعيد شقه كقناة • وقد أعاد عمرو تطهيره من الرمال حتى ينشىء طريقا ملاحيا بين الفسطاط والمدن المقدسة ، سمى « بخليج أمير المؤمنين (١) » •

وقد سد هذا الخليج فى عام ٦٨٨ م لقطع الامدادات عن أحد منتحلى الخلافة (عبد الله بن الزبير) وكان مقيما فى المدينة • وفى النهاية بطل استعماله وان ظل مستخدما كخزان مياه للسهل الواقع فى شمال القاهرة لمدة ألف عام • وكان الجزء السليم منه بمثابة نهير لمدينة القاهرة •

---

(١) تغير اسم الخليج فى عصر الحاكم بامر الله الذى أدخل عليه تحسينات عدة الى « خليج الحاكم » وفضلا عن هذا الاسم فقد أطلقت عليه أسماء أخرى تقرأها على خريطة الحملة الفرنسية للقاهرة فى عام ١٧٩٨ م • وبدلا من أن تصب مياه الخليج فى البحر كانت تضيع فى بركة « الجب » والمنطقة المجاورة لها وأخيرا اندثر الخليج فى نهاية القرن التاسع عشر •

وتعددت مزايا المنطقة المجاورة ، ففى السهل كانت توجد آبار وعيون للماء العذب • ومثلت تلال المقطم محجرا ثريا كانت أحجاره جزءا مكملا لمواد البناء التى كانت تتوافر بكثرة على طول ضفتى النيل كالطين مثلا والوحل وأحجار العمائر القديمة الخربة ، بالاضافة الى هذا كانت القاهرة تجاور أرضا زراعية خصبة تقوم على هضبتين بمأمن من مياه الفيضان • وعلاوة على هذا كان يوجد فى سفح المقطم وادى جاف يصلح كجبانه •

كيف كان يبدو موقع المدينة فى وقت الفتح العربى ؟ • الى الشمال من السهل الذى كانت ستشيد عليه المدينة التى سبقت القاهرة كانت تقع مدينة هليوبوليس القديمة التى دعاها العرب عين شمس • والى الجنوب يقع حصن بابليون الذى ازدهرت حوله مدينة قصر الشمع (*) • وفى قلب السهل كانت توجد قريتين منفصلتين هما أم دنين ومصر •

بينما تناثرت بين النيل وجبل المقطم كنائس وأديره وحدائق وكرمات •

كانت طبوغرافية هذه المنطقة دائمة التغيير ، فالنيل يغير دائما من مجراه بسبب الرواسب التى تتراكم على قاعه • وفى وقت الغزو كانت ضاحية « قصر الشمع » ــ وهو الموقع الذى سيشيد فيه جامع عمرو تطل على النيل ، وخلال بضع عشرات من السنين غير النهر من مجراه الى الغرب مكونا مساحة سمحت باقامة مبان بين قصر الشمع والنيل • ومن الملاحظ أن قمة الدلتا تنزلق دائما نحو الشمال ، أما النهر فيتحرك غربا دائما بشكل ملحوظ ، مما يؤدى الى ظهور شواطىء جديدة • كما ان أى عائق فى مجرى النهر كحطام سفينة أو دغل أو لوح خشبى كفيل بان يجمع حوله رمال وطين يتراكم ويتماسك بفضل الأملاح الكلسية التى تحتويها مياه النيل • ثم يرتفع مستوى القاع تدريجيا ، وينتهى الأمر بأن تظهر من تحت الماء جزيرة تعزل صفحة الماء التى تفصلها عن الشاطىء عن مجرى الماء الرئيسى ، فتتحول الى بركة تمتلىء بالماء فقط أثناء الفيضان • وفى النهاية تجف تماما وتغرس بها الحدائق وتقام عليها الأبنية ولا يتبقى الا الاسم القديم ليذكرنا بأصل تلك الأرض •

(★) الاسم العربى لحصن بابليون ويبدو انه تحريف لكلمة خيمى القبطية التى تعنى « مصر » •

عندما جاء عمرو الى مصر لم يكن بمجرى النيل سوى جزيرة واحدة تسمى جزيرة « مصر » أو اختصار الجزيرة ، وهى تطابق الى حد ما جزيرة الروضة الحالية • وكثيرا ما كان الغرين الذى يجلبه النهر يسد الفاصل المائى الذى كان يفصل الجزيرة عن شاطىء النيل • وفى كل مرة كان يعاد تطهيره من الرواسب للحفاظ على الجزيرة التى كانت تلعب دورا هاما فى خطة النظام الدفاعى للقائد العربى •

لم يكن الموقع الذى قدر للقاهرة أن تشغله خواء • فمنذ عصر ما قبل التاريخ سكنته قبائل عاشت فى سفح المقطم على أرض بمنأى عن مياه الفيضان • ولقد عثر على مصانع للآلات الظرانية على سفح هذا الجبل على ارتفاع أقل من الجبانات والعقبات • والى الجنوب قليلا عثر على هياكل عظيمة دفنت فى وضع القرفصاء وعلى فؤوس حجرية مصقولة وأوان ورحى طواحين وآثارا هامة تلقى ضوءا على أسلاف أهل القاهرة الحاليين •

وعلى تلك الأرض الواقعة بين المدينتين الفرعونيتين ممفيس وهليوبوليس شيدت مدينة عرفت باسم بابليون أو قصر الشمع • وقد خلد اسم بابليون (مجهول الأصل) فى اسم دير بابلون • أما أصل الاسم الثانى فكانت الشموع التى تضىء الحى القبطى(١) •

ومعلوماتنا الضئيلة عن مدينة بابليون لا تسمح لنا بأن نرسم لها صورة تفصيلية أما عن هليوبوليس التى كانت قد شيدت فى الأصل على أحد فروع النيل فقد اضمحلت تدريجيا • وفى بداية العصر المسيحى لم يكن قد بقى منها الا أكواخا مبعثرة فى الصحراء • وكانت ممفيس قد أقيمت يتفرع فيها النيل الى فروع عدة قسمت الأرض الى جزر فكانت ذات نفع عظيم فى المواصلات التى اعتمدت أساسا على القوارب ، لكن المدينة ما لبثت ان خربت بعد ان هجرت • ومن تلك المدن الثلاث لم تعش الا بابليون لمميزات عدة انفردت بها ، فهى متصلة بالشاطىء الغربى عن طريق قنطرتين تمران بجزيرة الروضة • وبهذا كانت نقطة هامة من نقاط المواصلات وبذا صارت العاصمة الفعلية لذلك الاقليم قبل ان تستبدل القاهرة الفسطاط •

ازدهرت بابليون تحت الحكم الرومانى • وكما قيل فى أوراق البردى فقد كان بها أرصفة شحن وميناء ومقياسين للنيل • وقد ذكر

---

(١) قيل أن هذه الشموع كانت توقد للاعلان عن انتقال الشمس من برج الى برج•

سترابون انها كانت مقرا لفرقة من الفرق الثلاث الرومانية التى كانت تشكل حامية مصر · وكانت السواقى تغذيها بالماء فضلا عن طنابير يديرهما مائة من السجناء · وقد شيد الامبراطور تراجان الحصن والقناة التى كانت تخترق المدينة ولذا فقد سميت بقناة تراجان ·

❋

كثيرا من الذكريات وقليل من الآثار تلك التى وصلتنا عن تلك المدن التى سبقت القاهرة التى لم يعلق سكانها أهمية كبيرة على حياتهم الأرضية بل كان جل عنايتهم بالحياة الأخرى ، ولذا فقد شيد سكان مدن ممفيس وهليوبوليس وبابليون مساكنهم من الطوب بينما كانت مقابرهم من الأحجار · ولذا فقد غالبت المقابر الزمان بينما لم تصمد المساكن سوى سنوات ·

وتلك المدن القديمة لاتشبه المدن الحديثة بمنازلها المتلاصقة ، بل هى أقرب الى مدن العصور الوسطى حيث كانت تفصل كل ابرشية عن الأخرى أرض فضاء مما كان يكسبهم مظهر القرى المتفضلة · وقد عوض جمال مظهرهم الطبيعى هذا عن انعدام الوحدة · كانت تلك التجمعات السكانية اذا ما شوهدت من أعلى أشبه بلعبه مكعبات بعثرتها يد طفل عابث · كانت أخلاط من مزارع وأرض مسيجة وأكواخ وأبنية دينية مبعثرة على أرض واسعة · كان لكل بناء فيها وحدته المميزة ، تحده حديقة ، ويشيد على مرتفع حتي يتجنب الأرض المنخفضة ، التى يغرقها الفيضان ، وكان يفصل بعضها عن البعض أحيانا قنوات وجسور ، وأحيانا كانت تحاط بأسوار لحمايتها ·

ويبدو ان بابليون كانت مدينة سابقة للفتح العربى رغم مظهرها المتفكك · ولذا فلم يكن قرار القائد العربى بانشاء عاصمة له فى هذا المكان خلقا لمدينة جديدة من العدم ، بل كان بلورة لدافع غير محسوس كان يدفع الناس حتى ذلك الوقت للاستقرار فى المنطقة · فليس من الغريب ان يقبل الناس على سكنى المدينة الجديدة ·

جذبت المميزات المادية لهذا الموقع العديد من السكان ، وتكفلت البواعث الدينية بالآخرين · فلقد نسجت الأقاصيص الدينية هالة حول تلك المنطقة · كان من المعتقد أن الدعوات التى تؤدى على جبل المقطم مجابة ، وان الله قد وعد بان يجعل من السفح روضة من رياض الجنة ، وأن هذا السفح يتمتع بخاصية خارقة للطبيعة مباركة ، فالجثث التى تدفن فيه لا تبلى لوقت طويل على عكس وادى النيل (وذلك بسبب الجفاف) · وقد اعتقد أن من يدفن فى نهاية الطرف الجنوبى يبعث

أيام الأربعـــاء والخميس والجمعة المقدسين • وطبقا لأحدى الروايات أخبر المقوقس (الذى لا نعرف الكثير عنه فيما خلا دوره فى القتال ضد الفاتحين العرب) لعمرو بن العاص القائد العربى أن الموتى المدفونين فى سفح الجبل يبعثوا يوم القيامة دون حساب عن أعمالهم ، وكان هذا خطأ من المقوقس ، فقد نبش العـرب القبور القديمة ليحلوا محلهـا قبورهم • وبالقرب من هذا الجبل قيل ان موسى تسـلم العـديد من الواح الشريعة ، وصعد اليه يوسف أثناء اقامته فى مصر • وفى المطرية توجد شجرة العذراء ، التى يبدو انها خلفت شـــجرة كانت مكرسة للالهة ايزيس • وفى قصر الشمع تحتفظ أحد الكنائس بأغلال القديس جورج وأخرى تضم الغـار الذى اختفت فيه العذراء مع المســيح عليه السلام • تلك الذكريات الدينية دعت الكثيرين الى أن يشيدوا الأديرة والكنائس ثم الى السكنى فى جيرة هؤلاء القديسين وبذا عمر الاقليم •

*

بنيت الكنائس القبطيـة على نسـق واحـد • والكنائس الحـالية تعطينا صورة عما كانت عليه الكنائس المعاصرة لعمرو بن العاص • فلقد اقيمت الواجهـات من الطوب أو الحجر وتركت عارية من الزخـــرفة ولاتحمل طابعا مميزا مثلها فى ذلك مثل واجهات المنازل الاسلامية • اما من الداخل فيقسمها صفان من الأعمدة الى صـــحن أوسط ورواقين جانبيين يتقدمهما دهليز مستعرض • والحوائط متآكلة وتظهر عليهـا آثار الرطوبة وتلطخهـا بقع من الدخان مما يكســـبها مظهرا منفرا • وتحمل السقف دعامات سميكة • وتفصل الهيكل ستائر خشبية مطعمة بالعاج وخشب الأرز فتحت فيها أبوابا تغلقها ستائر مخملية • ويمتد الهيكل فى حنية الكنيسة ، وبه المذبح • وفى قلب الكنيســة توجد ستائر من الخشب الخرط تشبه الى حد كبير المشربيات كانت تفصل أماكن الرجال عن أماكن السيدات • وفى كل مكان علقت صـــــور القديسين التى اعتمتها الســـنون ، فتطالعنا بنظـرات متجهمة تحمـل نبرة تساؤل •

ولانعرف القائمة الكاملة لتلك المنشآت الفنية حيث دمر العديد منها فى القرون الأولى للهجرة ــ ومن المحتمل أن تكون كنائس أبو مينا وحنا تادرس ودير مارى حنا والمعلقة اسست قبل انشاء الفسطاط • وكانت تقع على شاطىء النيل الذى كان يبعد عن مجراه الحالى ٢٥٠ مترا الى الشرق • وان كان انشاء كنيسة أمرا لا يستتبعه بالضرورة عمران

المنطقة المجاورة فان عدد الكنائس لابد انه كان يطابق حجم السكان المحيطين بها • وسجلات الكنيسة تذكر على سبيل المثال اسم أسقف بابليون الذى كان مقره فى الاحياء المتداعية حول الكنيسة مثل ممفيس وهليوبوليس • وأخيرا فان فخامة بعض الكنائس مثل الكنيسة المعلقة التى احتفظت دوما بشهرتها لهو دلالة على قوة الشعور الدينى للاقباط •

*

وكطائر العنقاء (١) الخرافى الذى كان يبعث من رماده آلت الى الخراب كل المدن التى شيدت فى هذا الموقع مثل الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة • وأعيد فى كل مرة تشييدها على نحو أبهى وأعظم •

كانت ممفيس وهليوبوليس وقصر الشمع ضواح أقام فيها الفائض من سكان العاصمة التى امتدت مساكنهم حتى حافه المقطم • ويتضح الخط الذى كان يربط تلك المدن المتتابعة فى اتجاه نمو واتساع مدينة القاهرة • فقد أخذت الفسطاط وخليفاتها فى الاتساع نحو الشمال على نحو متصل • ولما كان المقطم يشكل عقبة فى اتساع المدينة فقد حاذته البيوت متجهة الى الشمال نحو سهل العباسية واخيرا الى صحراء مصر الجديدة • وقد شهدت القاهرة محاولات غير ناضجة للاتساع نحو الجنوب• فعندما اشتد الوباء فى مصر فى عام ٦٨٠ م حتى أنه كان يحصد فى كل يوم ٧٠٠٠٠ انسان ، لجأ حاكم مصر فى ذلك الوقت عبد العزيز بن مروان الى حلوان ، وكانت قرية صغيرة تقع الى الجنوب من العاصمة وعند قرية طموة شاهد الحاكم ديرا شيد على ضفة النيل يسكنه عدد كبير من الرهبان فاشتراه بعشرين ألف دينار ، ووسعه باقامة ملحقات فيه حتى يتسع لاقامة حاشيته وحرسه ثم أقام مساجد وغرس حدائق وكرمات • ولكن لم تنقذ حلوان عبد العزيز بن مروان من الموت فعندما عاد الوباء مرة أخرى فى عام ٧٠٥ م توفى عبد العزيز فى مخبئه هناك • وبالرغم من شهرة تلك الضاحية الا انها لم تزدهر الا فى أيام الخديوى توفيق عندما ربطها بخط حديدى مع العاصمة • لكن القاهرة أو بابليون لم تحاولا أبدا الالتحام بحلوان •

*

ويروى عن تأسيس مدينة الفسطاط قصة طريفة ربما هى أسطورة لكنها تحمل صدى من الحقيقة • بينما كان عمرو يتأهب للزحف على

---

(١) طائر البنو أو Phœnix المقدس الذى آمن المصريون القدماء انه يحيا خمسمائة عام فى منطقة الجزيرة العربية • وقبل أن يواتيه الأجل كان يعود الى مصر الى معبد الشمس فى المطرية (هليوبوليس) حيث يحترق ثم يبعث من جديد •

الاسكندرية وجد حمامة قد بنت عشها على قمة خيمته ، وكان بيضها على وشك الفقس فاستبشع عمرو ان يهدم عش طائر استجار به فى شهر محرم وأمر بأن تترك الخيمة حتى حين عودته من الاسكندرية • ويقول ياقوت المؤرخ صاحب تلك الرواية ان عمرا قد نصب حارسا على الخيمة حتى يمنع المارة من مضايقة الطير •

ومن كلمة فسطاط وتعنى الخيمة اشتقت المدينة اسمها • لكن هذا الاشتقاق قابل للنقاش ، ذلك ان المؤرخين قد كتبوه فى خمسة صور فوسطاط ـ فسطاط ـ فوصاط ـ فيساط ـ فسطاط • وكانت لهم جميعا نفس صيغة الجمع فساطيط ، وتعنى مترلا من جلد أو شعر الحيوان • وربما كانت الفسطاط هى الصيغة العربية لكلمة فوساتن اليونانية (Fossaton) وتعنى المعسكر • وأيا ما كان المصدر فالاسم عاش والتصق بالمكان وباسم مصر • واستخدمت كلمة فسطاط مصر للدلالة على سكان المنطقة بوجه عام •

وحسبما ذكر المؤرخون كان جيش عمرو يضم الى جانب المحاربين نساءا وأطفالا وتجارا ومغامرينا ، أى كان بالاختصار أمة متحركة ، ولم يفقد هؤلاء المحاربون للذين اضطروا الى الاستقرار حنينهم الى الصحراء • واذا فقد تأثرت الفسطاط بطبيعة منشئيها الذين كانوا وسطا بين البداوة والتمدن • وبالرغم من انها كانت معقل القوات العربية فى مصر فلم تتخذ شكل المدن المحصنة بل كانت أشبه بمعسكر مؤقت أو أشبه بمدينة فى مرحلة التكوين أو بجنين لاشكل له ينمو تدريجيا حتى يتمخض فى النهاية عن لؤلؤة الشرق مدينة القاهرة •

لكن النمو كان بطيئا فقد أراد عمرو ان تكون مدينته مدينة بسيطة حتى يجنب جنوده دعة الحياة التى هى عدوة للشجاعة والصلابة • وأراد ان يبعدهم عن امتهان المهن السلمية كالزراعة التى تضعف الشخصية • لكنه أخطأ التقدير فالاحتكاك بحضارة أرقى يولد الرغبة فى الاستمتاع بترف الحياة التى تغرى البدوى بسكنى المدن الحقيقية وعندئذ يتعلمون قيم العمل الجماعى وتحل المدينة محل القبيلة فى احساس المرء بالانتماء • وسرعان ما يتخلص البدو من طبيعتهم الفوضوية وتتحول معسكراتهم الى مدن منظمة تحميها الشرطة •

كانت منازل أهل الفسطاط فى البداية شديدة البساطة تتألف من حجرتين أو ثلاثة وجهدا كانت أقرب الى الأكواخ منها الى المنازل • وحول « الديوان » (مقر الادارة) خطت كل مجموعة عرقية لها قسما مستقلا من المدينة « خطة » كحارات مدينة القاهرة المستقبلة ، ومنها

على سبيل المثال « خطة الفارسيين » التى ذكرها المقريزى . وكانت مقرا للفرس الذين اعتنقوا الاسلام وشاركوا فى فتح مصر . وصمت بعض الخطط اناسا من قبائل عربية مختلفة مثل « خطة أهل الراية » التى شيدت حول جامع عمرو ، « وخطة اللفيف » الى الشمال منها ، وخطة « أهل الظاهر » وقد خصصت لاستقبال القادمين الجدد الذين لا يستطيعون الاقامة فى خطط قبائلهم .

وكما ذكرنا من قبل فقد استقرت بعض القبائل فى الجيزة تحت حماية احدى القلاع .

وكانت كل خطة تضم حظائرا للماشية وللحيوانات ويفصل بعضها عن بعض أرض فضاء قليلة لاستزراع أو تغطيها آكوام قمامه مما كان يعطى للسكان انطباعا بانهم مازالوا يحيون فى الصحراء ، ويجنبهم فى نفس الوقت الأحقاد التى تلازم المجتمعات العشائرية وبالتدريج عمرت تلك الأرض بالمهاجرين الجدد والتجار الأقباط حتى ان الخازن عبد الله فى سنة ٧٣١ م استقدم خمسة آلاف رجل من قبيلة قيس وأنزلهم بالضاحية الشمالية الشرقية حتى يحقق التوازن مع الأقباط الذى رفض معظمهم اعتناق الاسلام .

يقول المؤرخ العربى « زيدان » أن العرب اعتادوا النزول على أطراف المدن التى يفتحوها لكن الآن اختلف فى الفسطاط ، فالى الجنوب من بابليون امتدت بركة الحبش التى كانت موطنا للأوبئة والناموس ، أما الى الشمال الغربى فى المنطقة التى كان يحصرها مرتفعين هما جبلا « يشكر » « والرصد » فقد كانت توجد هضبة مقعرة الشكل . وبهدم بعض المبانى الدينية أوجدت المساحة اللازمة لبناء المدينة العربية التى امتدت من النيل غربا ، حيث كان مجراه الى الشرق قليلا من المجرى الحالى ولامست أطرافها المرتفعات الصحراوية الواقعة شرقا .

فى شتاء ٦٤١ ــ ٦٤٢ م شيد عمرو مسجده فى الموقع الذى كان قد نصب فيه رايته عندما كان يحاصر حصن بابليون ، ولذا عرف الموقع بميدان الراية . كان هذا الموقع أصلا جبانة قديمة تقوم وسط مزارع للخضروات وكرمات . وكان مملوكا لرجل يدعى عبد الرحمن ابن قيسبة الذى منحه هبة للمسلمين بدون مقابل بناءا على طلب عمرو ولقد ذكرت احدى الروايات المشكوك فى صحتها ان الأرض كانت تشغلها كنيسة . وربما نشأت تلك الأسطورة بسبب الأعمدة قبطية الطراز التى توجد فى بيت الصلاة . وفى رواية أخرى قيل ان الأرض

كانت بحوزة أرملة يهودية طلب منهـا عمرو ان تبيعها ، فرفضت . فاعتزم أن يأخذها بالقوة ، لكنه أراد استشارة الخليفة أولا • فارسل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى كان فى ينبع حينذاك على ساحل البحر الأحمر • ووجد الرسول الخليفة يتنزه على أطراف المدينة وكان بالقرب منه كوم مهملات • أنصت للرسول ثم انحنى والتقط جمجمة خروف بيضاء وخط عليها بالحبر خطين أحدهما مستقيم والآخر أعوج ، ثم استدار الى الرسول وطاب منه أن يحمل الجمجمة الى عمرو ، الذى تأملها محاولا أن يفهم لها معنى وأخيرا اتضح له معناها فصاح قائلا : **ان الخليفة لعلى حق • يجب اتبـــاع الطريق القويم ، ســبيل الله ، لا الطريق المعوج ، سبيل الشيطان الرجيم »** (١) • واســتدعى عمرو المرأة وطلب منها ان تبيعه قطعة أرض يمــكن ان يغطيها بجلد ثور ، فوافقت المرأة • وكمـا فعلت « ديدون » (٢) ــ وعلى النقيض من أمر الخليفة قطع جلد ثور حديث الذبح الى فتائل رفيعة أحاط بها مسافة الأرض التى شيد عليها مسجده الذى يحمل اسمه •

كان المسجد الأصلى شديد البساطة أشبه بمنزل عادى مستطيل الشكل ، طوله ٢٨ مترا وعرضه ١٧ مترا ، وسقفه ، وطىء شيد من سـعف النخيل ومحمول على دعائم • ولم يـكن بـه منبر ولا مئذنة ولا أبراج بالزوايا • وكان مزودا بستة أبواب • وقد استخدم لاغراض شتى : كمحكمة وقاعة مجلس ومأوى • ويروى ان ثمانين من الصحابة رضوان الله عليهم قد حددوا اتجاه قبلته ، وكان بها خطأ طفيفا صلح عندما أعيد بناؤه • وقد اختط خـيرة المحاربين منازلهـم حول الجامع وأحاطت به مكونة نصف حلقة وقد عرفت خطتهم باسم « خطـة أهل الراية » •

وسرعان ما ضــاق المسجد بجموع المصــلين الذين اضطروا الى الجلوس فى صفوف فى الفضاء الواقع خارج المسجد ، وقد أمر الخليفة عمر رضى الله عنه بكسر المنبر الذى أقامه عمرو فى مسجده ، ووبخه على رغبته فى ان يعلو بأى صورة على رؤوس المسلمين • وتمت الزيادة الأولى فى مساحة الجامع فى عهد مسلمه بن مخلد فى عـام ٦٧٣ م • فقد ضاف رواق فى الجانب الشمالى وكسى أرضية الجامع بالحصير بدلا من الحصباء • وقد بنى أبراجا صغيرة فى أطراف الجامع ، وشـيد عليها منائر تحمل اسمه • وقد زاد فى عدد المؤذنين ، وأمرهم بالأذان لصلاة

---

(١) مؤسسة مدينة قرطاجنة •

(٢) لم أعثر على النص الأصلى لذا ترجمت كلام المؤلف •

الفجر بدلا من استخدام الناقوس الخشبى hagisiode وفى عام ٦٩٦م أعاد عبد العزيز بن مروان بناء جزء من الجامع أو بالاحرى أعاد بناء الرواق الشمالى الذى كان قد أضيف من قبل · وفى عام ٧١١ م كتب الخليفة الوليد بن عبد الملك الى واليه على مصر قرة بن شريك بأن يهدم الجامع ويعيد بنائه من جديد · وفى تلك المرة بنى المحراب على هيئة تجويف غائر · ثم يأتى عبد الله بن طاهر فى عام ٨٢٧ م ويزيد مساحة الجامع الى الضعف تقريبا · وأخيرا وبعد ما كان الجامع على وشك الاندثار رممه مراد بك فى عام ١٧٩٢ م ليتخذ الصورة التى هو عليها الآن · ذلك الجامع الذى يعد أقدم جامع فى مصر وبالتالى من أقدم الآثار الاسلامية · وفى عصرنا الحاضر أهمل الجامع القديم ولم يعد يمتلىء بالمصلين الا مرة واحدة فى كل عام فى الجمعة الأخيرة من رمضان ·

ولقد أتى عليه حين من الدهر كانت فيه جدرانه الملونة مزخرفة بماء الذهب وقد أودع فيه ١٢٩٠ مصحفا وأنارت جنباته ١٨٠٠٠ مصباحا · وخلعت عليه أعمدته الرخامية ، التى ربما كانت قد جلبت من معبد لافروديت حيث شاهدت خلاعة طقوس عبادتها أو ظللت فى يوم ما مذبحا مكرسا لديانة العذراء مارى العفيفة ، مظهرا لغابة قد كسى الصقيع أشجارها · وكم امتلأ صدر عمرو بالفخار وهو يشاهد جنوده يصلون فى جامعة وقد انتظموا صفوفا كصفوف المجاهدين أثناء القتال أمام المحراب ، الذى يذكره بكلمة الحرب والجهاد · فبعد المعارك التى وضعت ثروة مصر فى أيدى العرب كان عليهم ان يخوضوا جهادا روحيا من أجل سعادتهم فى العالم الآخر ·

وتحيط بقصة بناء الجامع سحابة من الأساطير · فاثناء بنائه طلب عمرو من الخليفة ان يرسل له عمودا من مكة فأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمودا بأن يطير الى الفسطاط ، لكن العمود أبى الحركة بالرغم من اعادة الأمر عليه · وبعد ان أعاد عليه الرسول صلعم (وفى رواية أخرى عمر بن الخطاب رضى الله عنه) الأمر ثلاثة مرات ضربة بسوطه ومازال أثر الضربة باقيا فى صورة عرق على بدن العمود الرخامى ، ثم أمره بسم الله ان يطيع ، وعندئذ ارتفع العمود فى الهواء وعبر الفضاء كالسهم ، وهبط فى المكان الذى كان المسجد يبنى فيه · وعلى العرق أو ما يقال عليه أثر الضربة يقرأ نقش غير ملموس نقشته يد غير بشرية ، وقيل أيضا ان هناك عمودين فى بيت الصلاة لايمكن ان يمر من بينهما الا الصالحين ·

يرتبط اسم الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى توفى عام ٦٤٤ م بالقضاء على العادة الوحشية المعروفة باسم عروس النيل . فطبقا لعادة قديمة اعتاد المصريون ان يلقوا بفتاة صغيرة فى النيل كل عام كتعبير عن امتنانهم للخير الذى يحمله اليهم . ويروى لنا المؤرخ ابن عبد الحكم كيف تم القضاء على تلك العادة البربرية فبعد الفتح العربى أتى المصريون الى القائد العربى عمرو فى شهر بؤنة قائلين :

« أيها الأمير ، لنيلنا هذا سنة لا يجرى الا بها » فسألهم عمرو :

« وما ذاك ؟ » فأجابوا : « انه اذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر ، عمدنا الى جارية بكر من أبويها ، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى النيل » . فقال عمرو : « ان هذا لا يكون فى الاسلام . وان الاسلام يهدم ما كان قبله » .

وظل منسوب النهر منخفضا أثناء الشهور الثلاثة التالية لتلك الحادثة . فهم الناس بمغادرة البلاد خوفا من المجاعة المنتظرة . فأرسل عمرو يستشير الخليفة الذى أجابه « أصبت ، ان الاسلام يهدم ما كان قبله ، وقد بعثت اليك ببطاقة فالقها فى داخل النيل » . وكان نص البطاقة» بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى مصر ، أما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأله أن يجريك .

نفذ عمرو أمر الخليفة فى ليلة كانت عشية « عيد الصليب » عند الأقباط وفى ليلة واحدة كما يروى المؤرخ زاد النيل ستة عشر ذراعا وبذا نجى الناس من القحط والمجاعة .

وبعد تلك الحادثة استبدل الأقباط طقس « عروس النيل » بعيد يدعى « عيد الشهيد » . وكان يحتفل به فى شبرا ولكننا لانعرف الغرض منه وقد قيل ان الناس كانوا يحملون فى موكب كبير مقصورة بها ثلاث أصابع قيل عنها انها أصابع الشهيد بدون أدنى ايضاح (١).

واستمر الاحتفال السنوى بالتضحية بعروس النيل ، لكن الفتاة استبدلت بعروس من الطين تكسوها ثياب العروس .

---

(١) يذكر المقريزى أن المقصورة كان بها أصبع واحد وفى عهد السلطان الصالح صالح بن قلاوون أمرت هذا الاصبع وألقى رماده فى النيل .

نمت الفسطاط وازداد تنسيقها وقد صـــارت العاصمة الادارية للاقليم · وقد غطت فى نهاية الأمر مساحة على شاطىء النيل طولها خمسة كيلو مترات وعرضها كيلو متر واحـد · فقـد امتدت من بركة الحبش الواقعة الى الجنوب من دير الطين حتى جبل يشـكر الذى سيبنى عليه فيما بعد جامع ابن طولون · وكانت المنطقة المحاذية للنيـــل تسمى « الحمراوات » ومعظم أهلها من المسيحيين واليهود السوريين الذين كانوا قد انضموا للمسلمين لأسباب سياسية وقد انقسمت تلك المنطقة الى ثلاثة أجزاء هى على التـوالى من الجنوب الى الشمال : الحمراء الدنيـا (قرب نابليون) ، الحمراء الوسطى (أو الحمراء القنطرة) حيث نصبت الراية الحمراء أثناء الفتح العربى ، وأخيرا الحمراء القصوى ، وقد ازدادت أهمية هذا الجزء الأخير فى عام ٦٤٢ م عند ما أعيد تطهير الخليج (وهو القناة التى كانت تربط البحر الأحمر والنيل) وذلك لارسال المؤن من الحبوب الى الجزيرة العربية ·

لم يكن بالفسطاط منشآت ذات أغراض دفاعية عدا بناء واحد محاط بسياج من البوص (زريبة) ، ربما تخلف من التحصينات التى كانت قد شيدت أثناء حصار حصن بابليون · ثم بعد أربعين عاما نسمع عن سياج من الكتان شيده الخوارج وحفروا خلفه خندقا لحماية المدينة من قوات الخليفة مروان بن الحكم · ويحدثنا المؤرخ اليعقوبى عن منازل محصنة أقيمت بين الخطط كنوع من التحصين · كانت المدينة آمنة من أى اعتداء وفى حالة الهجوم عليهـا كان من اليسير على أهلها الفـرار الى الصحراء التى شكلت لهم ملجأ آمنا ·

وبالاضافة الى جامع عمرو كان لكل خطة مسجدها الخاص فضلا عن المصلى الذى شيد خارج المدينة ، وكانت تؤدى فيه الصلاة الجامعة فى بعض المناسبات الخاصة · أما عن المنازل فكان محظورا عليها أن تجاوز طابقا واحدا ارتفاعا ، لأن المسلمين كرهوا المنازل العالية التى يمكن منها اختراق حرمات الجيران · وبمرور الوقت شـيدت الكثير من العمائر الهامة · ففى عام ٧٣٣ م نسمع عن دار الصناعة (١) « فى الروضة » وعن ميناء « المقس » الذى يرجع تاريخه الى القرن الأول الميلادى · وقد أقيم على النيل جسرا بأمر الخليفة المأمون · وأقام الوالى عبد العزيز بن مروان منازلا وأسواقا مسقوفة وحمامات · وعلى ضـفاف النيل أقيمت مخازن عدة لاستقبال البضائع الواردة بطريق النهر · ونسمع فى القرن

---

(١) ترسانة ·

الثامن الميلادى عن بناء شونة للحبوب وعن منشأة لأمير المؤمنين كانت بدون شـك مقرا للادارة الحكومية ٠ ثم شـيد فى الفسطاط بعد ذلك بسنوات قليلة خزانة (بيت المال) ٠ وفى عام ٧٥٠ م عندما كانت الدولة الأمـوية تحتضر ، فر الخليفة مروان الثانى من العباسيين الى مصر ٠ ومر بالفسطاط حيث وجد فيها مخازن عامرة بالغلال والقطن والتبن ٠ والى الشرق من المدينة فى المنطقة المحصورة بينها وبين المقطم تقع جبانتها المعروفة باسم القرافة ٠ وبالقرب من بوابات قصر الشمع كان يوجد فى الفسطاط تمثالين أحدهما عرف باسم أبو الهول وقد اندثر فى القرن الرابع عشر والثانى أطلق عليه أبو مرة وهو اسـم من أسـماء الشيطان المعروفة ٠ وكانا التمثالين يمثلان أناثا حيوانية ، وقد صنع أولهما من الديوريت أما الثانى فكان منحوتا من الجرانيت الوردى ٠

وقيل أن عمرو قد شيد حماما عاما صغيرا عرف لصغره الشديد بحمام الفار ٠ وكان بالمدينة حمامان آخران هما « حمام وردان » والآخر « حمام بصره بن ارته » ، ولابد أنهما كانا شديدا القدم اذ أنهما يحملان اسمى اثنين من أصحاب عمرو ٠

*

أخذت المدينة تنمـو تدريجيا وقد انقسمت الى قسمين ، كان مـن الممكن أن نميزهما بوضوح فى عام ٧٥٠ م ، أحدهما كان يعلو الآخر ٠ الأول كان يسمى « عمل فوق » والثانى « عمل تحت » ويحيط الأول بالثانى كنصف دائرة تمتـد من جبل يشكر شـمالا حتى جبل الرصد جنوبا مارا بالهضبة الرملية المجاورة لجبل المقطم ٠ أخذت منطقة « عمل فوق » فى الامتداد شمالا على حساب منطقة « عمل تحت » التى عانت من أبخرة المستنقعات وكانت عرضـة لأخطار الفيضان وغطتها سـحابة دائمـة من الأتربة والدخان الذى تحمله الرياح ٠ وفى الصيف كانت تغطيها أبخرة سوداء ومن ناحية أخرى اعتاد السكان أن يلقوا بالقمامة والرمم فى الطرقات ٠ وكثيرا ما عاقت الصـخور السطحية تصريف المراحيض مما كان يؤدى الى تصاعد الروائح الكريهة التى تؤدى المناطق المجاورة ٠ وقد ذكر المقريزى ان تلك المراحيض كانت تصرف فى النيل رغم انه كان مصدر مياه الشرب الوحيد للمدينة ولذا لم يقطن « عمل تحت » سوى الفقراء أو من تتصل أعمالهم بشكل مباشر بنهر النيل الذى كان طريقا ملاحيا هاما ٠ أما الآخرين فقد هجروها تدريجيا صاعدين أعلى الى المناطق الشمالية والشرقية ٠ وفى عام ٨٢٠ م بنى الوالى العباسى حاتم بن هرثمة قبة الهواء فى المنطقة التى شيدت عليها فيما بعد قلعة

الجبل وذلك حتى يستمتع بالنسيم العليل الذى كان يداعب منحدرات الهضبة طيلة العام ٠ وفى نهاية القرن العاشر أقام الخصى كافور دار الفيل بالقرب من « بركة قارون » حيث كان الناس يذهبون للاستمتاع بمياه النهر الساحرة والتنزه فى القوارب ، لكنه سرعان ما أدرك أن الموقع غير صحى ٠ ولذا شيد الى الشمال القصر الذى حمل اسمه والذى أدمج بستانه فيما بعد فى مدينة القاهرة الفاطمية ٠

❋

كان نمو القاهرة ارتجاليا لا تحكمه خطة ولا نظام ، فهى تمتد فى اتجاه تارة ثم فى اتجاه آخر تارة أخرى ٠ وبمرور الوقت أخذت المدينة تعى مشاكلها ٠ ومن ثم سنلحظ اتجاه المدينة المستمر الى التوسع شرقا وشمالا ٠ ملأ العمران قلب الفسطاط الذى كان يمتد بمحاذاة النيل من قصر الشمع جنوبا الى جبل الكبش بالقرب من فم الخليج شمالا ، لكنها لم تشغل الحيز الكلى للمدينة القديمة ، فقد ارتدت بعض المناطق صحراء ، مثل المنطقة الشمالية (الحمراء القصوى) وأرض جبل يشكر٠ ولكن ليس لفترة طويلة ، ففى عام ٧٥٠ م دخلت مصر القوات العباسية التى كانت تطارد الخليفة مروان الثانى ، الذى كان قد أحرق الفسطاط٠ لم يقم السادة الجدد بالفسطاط لكنهم شيدوا لهم مقرا يدعى دار الامارة فى منطقة « الحمراء القصوى » ــ وحولها ظهر حى جديد ضم مسجدا وثكنات للجند وأسواق ومنشآت مختلفة ، وعرفت تلك المنطقة باسم العسكر فى عام ٧٥١ م ، وقد قصد بها المعسكر ، وفيها أقام ٦٥ والى عباسى خلال ١١٨ عاما ٠

وبالرغم من ذلك كانت الغلبة للمناطق المحاذية للنهر فقد استفادت الفسطاط من سقوط الطولونيين ، وتراجع النهر ، ومن استخدامه كطريق للنقل التجارى ٠ وفضلا عن هذا كان من السهل تغذيتها بالمياه من النهر ٠ وأخيرا انتهت العسكر بان ذابت فى الفسطاط بعد ان فقدت اسمها ٠

❋

اتخذت الفسطاط تدريجيا شكل مثلث ذو ثلاثة بوابات هى :

« باب الصفا » فى الشرق و « باب مصر » فى الشمال و « باب القنطرة » فى الجنوب وكان النيل لها بمثابة وتر المثلث ٠ واشتد التصاق المدينة بالنهر لأنه مكنها من احتكار التجارة وبالتالى الصناعة ٠

فبفضله صارت مركزا هاما للتبادل التجارى وكانت مركزا للطرق التجارية التى وصلت الى الجزيرة العربية والمغرب وسوريا والجزر اليونانية وأفريقيا السوداء ٠

كما ذكرنا فيما سبق واصلت المدينة تقدمها فى الاتجاه الشمالى الشرقى لكن على مضض ، فقد جاهدت الا تفقد ارتباطها بالنهر ٠ أما المنطقة البعيدة المجاورة لجبل المقطم فقد تركت للموتى ٠ وقد أقيمت فيها مقابرا للأقباط والمسلمين ، وقد عرفت جبانة المسلمين « بالقرافه الكبرى » وربطت بقلب الفسطاط عن طريق شارع جنائزى سمى « طريق الوداع » ٠ وفى تلك المنطقة اقيمت أضرحة للسيدة نفيسة وللائمة المبجلون « الشافعى والليثى وسيدى عقبة » ٠ وبذا تشكلت مدينتين متجاورتين ، احداهما من منازل والأخرى من مقابر ٠ وقد واصلتا الزحف جنبا الى جنب على نحو متماثل ٠

دام أزدهار الفسطاط وقد أدمجت فيها العسكر قرونا عدة ٠ وقد أولى الرحالة الذين زاروا مصر فى أوج ازدهار الحكم الفاطمى الفسطاط اهتماما كبيرا ٠ ووصفوها بأنها أشبه بمدينة اقليمية لكنها عامرة بالسكان ومفعمة بالحيوية ٠ وقد قدرها ابن حوقل والاصطخرى سنة ٩٧٧ م بثلث مساحة بغداد ٠ ولكن فى خلال بضع سنوات صارت الفسطاط قلب الأمة الاسلامية ، حيث أولى كافور الاخشيدى العلوم والآداب عناية كبيرة وشيد بها مدرسة ٠ والى جانب جامع عمرو أضيفت ستة جوامع أخرى ، لكن جامع عمرو حافظ على مكانته كمركز تدور حوله كل أنشطة المدينة ٠ كانت الأسواق تشغى بالناس والمصانع التى تنتج السكر والورق وعلى النيل أقيم ميناء المقس ودارا لصناعة السفن بنيت فى عام ٩٣٦ م ٠ وفى عصر الخليفة الحاكم بأمر الله عمر الفضاء الكائن بين جبل يشكر والفسطاط ٠ وغطت الحدائق أطراف بركة الفيل ومنحدرات جبل يشكر والفضاء الواقع بين الخليج والنيل ٠

❋

وقد دهش المقدسى لعظم عدد سكان الفسطاط فى عام ٩٨٥م ٠ ففى يوم الجمعة كان يؤدى الصلاة عشرة آلاف رجل خلف الامام ٠ واحتكر سوق القناديل الكائن جامع عمرو المتجارة والمعاملات وانتشرت فى كل مكان منازل من أربع أو خمس طوابق كان بعضها يتسع لمائتى نفس وقد وصفها هذا المؤرخ بأنها أبهى مدن الاسلام وأكثرها عمرانا ، وفضلا عن دلك كان المرء يجد فيها كل الأشياء التى قد يحتاجها فى حياته بأسعار زهيدة حيث كانت تتدفق عليها البضائع من أرجاء العالم

باستمرار · وطبقا للقلقشندى فقد كان الرخاء عاما فى الفسطاط فى نهاية القرن الميلادى حتى أن الأغنياء لم يجدوا فقراء يؤدون اليهم الزكاة ، فشكوا الى الوزير كافور الذى أشـــار عليهم ببناء المســاجد وتوريث أموالهم · ووصف الرحالة الفارسى « ناصرى خسروى » «سوق القناديل» فى عام ١٠٤٦ م بأنه أغنى أسواق الدنيـا ويشير بدهشــة فائقة الى ارتفاع منازلها فيذكر أن منها من كان ذو أربعة عشر طابقا ويذكر ان الحدائق كانت تغرس على أسطح المنازل ، وقد عدد صنوف البضائع الفاخرة والنادرة التى كانت تباع فى الفسطاط وتحدث عن مصنوعاتها المحلية · وقد امتدح هدوئها وأمنها وحسن سياسة حاكمها ·

ولقد ترك لنـا الرحالة المسعودى وصفا للاحتفال بعيـد الغطاس كما دار فى ١٠ يناير ٩٤١ م وهو وقت تكون فيه مياه النهر على درجة كبيرة من النقاء · وكانت تغلق فيه فتحات الأهوسة الممتدة من تانيس الى دمياط وفى مدن أخرى فى منطقة البحيرة وقد أمر والى مصر (١) باضاءة شاطىء جزيرة الروضة · وشاطىء الفسطاط المقابل له بألفى مشعل فضلا عن المصابيح التى أوقدها خاصة القوم وأسرع الألوف من المسلمين والمسيحين الى شاطىء النهر للتنزة فى القوارب ، وفيها كانوا يتبارون فى اظهار الثراء ، وكانوا يأكلون فى أوانى من الذهب كما يذكر المسعودى ، ويتزينون بفاخر الحلى ، بينما تصـــدح الموسيقى فى كل مكان ، وعليها تتمايل الراقصـــات · وفى تلك الليلة كان النـــاس يغطسون فى النهر اعتقادا منهم أن ذلك الحمام كفيل بوقايتهـــم من الأمراض ·

*

اتصـلت ضاحيتى الجيزة وجزيرة الروضــة بالشاطىء الشرقى عن طريق جسر مزدوج وكان بالروضة جامع وفيلات أنيقة ، أما طرفهـا الجنوبى فكان يضم مقياس النيل الذى يقيس ارتفاع فيضان النيل · وقد شيد فى عام ٧٥١ م · ثم أعيد بنــاؤه فى عام ٨٦١ م بأمر من الخليفة المأمون ثم الخليفة المتوكل الذى أوفد من العراق معمارى مشهور هو محمد بن كثير الفرغانى وقد صحبه رياضى يدعى محمد النصيب الفلكى ، ثم رممه الخليفة المستنصر بالله فى القرن الحادى عشر الميلادى· ويتألف مقياس النيل من بئر مستطيل متصل بقاع النهر ، ومن أعلى يفتح على فناء مربع مزين بأربع حنيات بيضاوية · وفى مركز البئر ينتصب عمود رخامى مثمن قسم الى درجات أو أذرع تحدد ارتفاع الماء · ويمكن عن طريق سلم دائرى قد فى الحوائط البئر ان تنزل حتى سطح

---

(١) محمد بن طغج الأخشيد ·

الماء الذى يكسبه الظلام مظهر مرمر أسود سائل ٠ وعلى الضفة المقابلة مثلث الجيزة مدينة صناعية صغيرة ، على أطرافها شيدت فيلات فاخرة وجهت بطريقة تسمح لها باستقبال نسيم النيل ٠

لم يعن بناء العسكر ثم القطائع ثم القاهـرة على التوالى نهـاية الفسطاط ، التى ظلت لمدة طويلة احدى أهم مدن العالم الاسلامى ٠ وكان على القاهرة ان تنتظر سنوات طويلة قبلما تتمكن من التفوق على شقيقتها الكبرى الفسطاط ٠ وعندما اتخذ الخلفاء والارستقراطيون من القاهرة سكنا لهم ، لعبت الفسطاط المزدحمة بالسكان دور المدينـة الصناعية والتجارية ، كما يشهد بهـذا ما عثر عليه فى خزائنهـا من خزف قـديم ومصنوعات زجاجية ٠ واستمرت فيها مصانع الحديد والنحاس والصابون والزجاج والورق والسكر والمنسوجات دائرة حتى القرن الثالث عشر الميلادى ٠ وفى عام ١١١٩ م صنعت فيهـا حلقة من النحاس المطروق مقسمة الى درجات يبلغ قطرها أقدام وتزن بضع أطنان ، وقد استخدمت كحامل لآلة للرصد الفلكى ٠

زار الرحـالة الفارسى ناصرى خسرو الفسطاط فى عهد الخليفـة المستنصر ، فى أوج ازدهار الامبراطورية الفاطمية ٠ ثم بدأ الضعف يدب فيها فى النصف الثانى من مـدة خلافته الطويلة التى امتدت بين عامى ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ حيث قضت المجاعة والفتن العسـكرية على رخاء هذا العهـد ، وكانت ضربة قاصـمة للفسطاط التى اعتمدت على تجارتهـا السلمية ٠ وكانت أكثر مناطقها تأثرا هى المنطقة الشـمالية والقطائع مدينة الطولونيين ومدينة العسكر العتيقة ، فقد هجرها أهلوها واستحالت الى خرائب ، واعيد استخدام ما أمكن نقله منها فى أبنية القاهرة فى عصر بدر الجمالى ٠ وتبع ذلك بناء حوائط حتى تحجب منظر الخرائب الكئيب عن نظر الخليفة اذا ما غادر القاهرة متوجها الى الفسطاط مارا بالشارع الأعظم ٠ وفى عصر الخليفة الآمر (١١٠١ ـ ١١٣٠ م) أمر وزيره المأمون البطائحى كل من يملك عقـارا خربا بأن يصلحه أو يسـكنه أو يبيعه أو يؤجره والا فقد حق ملكيته ٠ لكن هذا الأمر أدى فقط الى ظهور احياء جديدة جنوب القاهرة بين ميدان الرملية وباب زويلة ٠

*

أتت نهاية الفسطاط فى عصر الخليفة العاضد بينما كان جيش الصليبيون يزحف عليها ٠ فعلى النقيض من القاهرة المجاورة لها ، ظلت الفسطاط عارية من التحصـينات ٠ وخشى الوزير شـاور ان يتخذ

الصاليبيون الفسطاط قاعدة لهم ، فأمر سكانها بالرحيل ، فغادروها كلهم « كأنما خرجوا من قبورهم الى المحشر : لا يعبأ رالد بولده ولا يلتفت أخ الى أخيه » وفى القاهرة أوى المهاجرون فى المساجد والحمامات والشوارع

وبمجرد ان أخليت المدينة حمل اليها شاور فى ٢٢ نوفمبر ١١٦٨م عشرين ألف قدرة نفط وعشرة آلاف مشعل ، وأضرم فيها النار • تحولت المدينة الى موقد ملتهب رهيب واستمرت النار متأججة أربعة وخمسين يوما محت فيها المدينة ، ولم تترك منها الا هيكلا هزيلا • لكن بقايا تلك المدينة ، جدة القاهرة ، التى قاومت النار كان اعلانا منها بأنها ترفض الاندثار دونما ان تترك أثرا مهما كانت سوء حالته •

أخذت القاهرة الفتية فى التباعد عن الفسطاط الميتة وقد فصلتهما تلال من الركام ، يخترقهـــا طريق ترابى يبدأ من باب زويلة (جنـوب القاهرة) ، ويمتد الى المنازل القليلة المحيطة بجامع عمرو ، وهى المنطقة الوحيدة التى عمرت بعد الحريق • وقد أخذت المدينة تناضل للبقاء • فبالرغم من الأوبئة والمجاعات التى فتكت بسكانها مرات ، الا انها استمرت تلعب دورا هاما فى اقتصاد البلاد ، ولكن دون ان تصل أبدا الى سالف مجدها الذى بهر ناصرى خسرو • ذات يوم لقد تحولت بوابة المدينـة والكثير من المنازل الى خرائب وصارت شوارعها ضيقة قذرة ، اما جامعها الذى كان قد أصلحه صلاح الدين بعناية فائقة فقد هجر من جديد وأصبح طريقا للمسارة • ورغم هذا فعندما كان المرء يلتفت بنظره الى النيل كان يرى عددا من السفن التجارية الراسية يفوق كل مارآه من قبل ابن سعيد الرحالة المغربى فى القرن الثالث • واستمر السكر والحرير يصنعا بها واستمرت أيضا مركزا للتجارة والصـــناعة ومنها تنقل البضـــائع الى القاهرة • وعلى النقيض من القاهرة المدينـــة الحديثـة الحربية مثلت الفسطاط مدينة تجارية مشغولة بمصالحها المادية • وقد امتدح ابن سعيد وداعة أهلها فقال « لم أرقط فى أى من البلاد أكثر من أهل الفسطاط مودة » ويصفهم بالرقة وذلاقة اللســـان والتسامح كتجار اصـلاء يحـاولون مضاعفة معارفهم •

ولمدة قرن من الزمان يمكننا متابعة تاريـخ الفسطاط عن كثب ، لقد تداولتها النوائب وأخذ أهلها يهجرونها واخيرا عجزت عن منافسة القاهرة بثرائها الذى لم كفنار يرسل ضوءه عبر مصر • وتدريجيا أخذت القاهرة فى اجتذاب التجارة اليها على حســاب الفسطاط ففى العصـــور الوسطى لم تعد أسواقها تجذب انتباه الرحـالة الذين اهتموا بوصف

أسواق القاهرة التى أدهشتهم · ويختفى اسم المدينة فى الظلام ولا يبق منها سوى اسم مصر ·

ويكاد يكون تاريخ الفسطاط مجهولا بدءا من القرن السادس عشر ميلادى بينما أخذت القاهرة فى الازدهار وتعاظمت سطوتها حتى صارت الفسطاط تعرف فى النهاية بمصر القديمة ·

*

بلغ عدد سكان مصر القديمة أثناء حملة نابليون عشرة آلاف نسمة تقريبا من بينهم ستمائة مسيحى · وقد أشار علماء الحملة الى أهميـة مينائها فى الملاحة النهرية الى مصر العليا وفى القرن التاسع عشر صارت منطقة نشطة ، وبلغ عدد سكانها فى احصـــاء ١٨٩٧ م واحـد وثلاثين ألف نسمة ·

وفى الواقع تمتد مصر القديمة بحذاء شاطىء النيل ويلتحم طرفها الشـمالى مع مدينة القاهرة · وباستثناء جامع عمرو لم يبق من آثارها القديمة شىء ، فمنذ نهاية العصر الفاطمى غطت بقاياها أكوام من الأتربة تمتد حتى جبل المقطم ويذكرنا مرآها بالصحراء لكنها صحراء تربتهـا داكنة وزلطية تثير انقباضا فى النفس كأنها بحر رهيب من الرماد متميزا عن الصحراء اللانهائية المحيطة به والتى تنبسط الى الجنوب بلونها ، الذى يتراوح بين الذهبى والأحمر النارى ·

القطائع

ولد أحمد بن طولون فى بغداد فى عام ٨٣٥ لأب من العبيد الأتراك. وتلقى تعليما جيدا ، ففضلا عن دراسة العربية وحفظ القرآن درس الفقه والالهيات • وعندما عين حماه بكباك واليا على مصر ، أرسله اليها كنائبا عنه • وبعد فترة من الزمن عينه الخليفة العباسى حاكما من قبله على مصر ووصف ابن خليكان أحمد بن طولون بانه أمير عادل كريم ، شجاع ، تقى ، وحاكم كفء صادق الفراسة ، مترفععن الدنايا • فقد رفض ان يسمم باناء خمر الخليفة المنصـور بعد ان عزل • وعندما أتى مصر رد عشرة آلاف دينار أرسلها اليه كهدية القائم على خراج البلاد وبذا اكتسب سمعة كرجل نزيه اهل لأن يحفظ أدق الأسرار •

كان محبـا للعلمـاء ، وقد حرص على ان يجعـل مائدته مفتوحة لأصدقائه وزائريه ، وكان يخصص ألف دينار للفقراء فى كل شهر ، فضلا عما كان ينفقه من نذور وهبات يبتغى بها مرضاة الله ، وحمده على نعمائه ، مثل توزيع الطعام فى كل يوم على أهل المدينة • وكان نصيب كل مسكين أربع أرغفة اثنـان منهما بالفالوذج (عجين من النشـا والعسل) والآخران حشـيا بأطعمة مختلفة • وكان التوزيع يتم فى دار ابن طولون الذى كان يشعر بسعادة حينما يرى الفقراء يتسلمون حصصهم من الطعام • « فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته » (المقريزى) وقد أنفق الكثير على تشييد عمائره الفاخرة وأنقص الضرائب ولم يلجأ

الى الابتزاز من أجل توفير المال اللازم لمنشأته بل عمد الى تحسين استغلال الأموال العامة · كان قد جاء مصر شابا فى السادسة والثلاثين ، فقيرا حتى انه اضطر الى اقتراض عشرة آلاف دينار من صديق له حتى يغطى مصاريفه الأولى ، لكنه عندما مات بعد ستة عشر عاما خلف عشرة ملايين دينار فى الخزانة العامة وحرسا من سبعة الى عشرة آلاف مملوك وأربعة وعشرين ألف عبد واصطبلا به ثلاثمائة جواد وألوف البغال والحمير والجمال فضلا عن أسطول من مائة مركب حربى ·

لقد كان قاسيا ، لكنه ، كان عادلا ، وعرف كيف يخلب ألباب الناس ويكتسب احترامهم وتعاطفهم · سأله أحد أتباعه يوما هل يجوز أن يمنح صدقة لسائلة حسنة الهندام وتلبس فى أصبعها خاتما من ذهب · فأجاب ابن طولون : أعط من يمد لك يده · وفى عصر نفس هذا الأمير مات فى السجون أو أعدم ثمانية عشر ألف نفس ·

*

سرعان ما ضاقت دار الامارة فى مدينة العسكر بجموع حاشيته وجيشه · ولم يكن هناك قصر مهما عظمت مساحته يكفى ابن طولون الذى كان يحتاج لمدنية كاملة شيدها على جبل يشكر فى عام ٨٧٠ م شرق الفسطاط · وقد أمر ابن طولون بحرث الأرض التى ستقام عليها بمدينة القطائع (أو الأحيــاء) وسبب هــذه التســمية أن كل طبقة أو حنسية عاشت فى حى مستقل بهــا مثــل (خدم القصر والروم والسودانيون) · وقد اختير هذا الموقع لأســباب عدة : أولا : رغب ابن طولون فى أن يحيا فى مكان أقل رطوبة من العسكر وأكثر انعاشا ·· فضلا عن أن هذا الموقع يسهل الدفاع عنه ضد أى عدو محتمل لقربه من جبل المقطم (ولا يجب أن ننسى أن النيل فى هذا العهد كان قريبــا من جبل يشكر مما أدى الى ظهــور برك ومستنقعات بتلك المنطقة) · ثانيا يبدو أن ابن طولون قد تأثر بعادة الملوك الشرقين فى تجنبهم سكنى مساكن خلفائهم وتفضيلهم لبناء قصــور جديدة أما ليبهروا رعاياهم ، وإماً للمحافظة على جلال سلطانهم بابتعادهم عن رعاياهم المدنيين الذين غالبا ما تملأهم روح الثورة وبالتالى يمثلوا خطرا عليهم وربما دفعه الى هذا أيضا تشاؤمه من سكنى مساكن قوم قد أصابهم ســوء الحظ · وهكذا فان سقوط أسرة حاكمة فى الشرق كان يعنى النهــاية لمدينــة وتأسيس أسرة حاكمة يؤدى الى بناء مدينة جديدة ·

*

امتدت القطائع من ميــدان الرميلة فى يســفح المقطم حتى جــامع زين العابدين ، وكانت مساحتها ميلا مربعا واحدا ، على جبل المقطم بنى

قصر بديع لابن طولون فى الموقع الذى كانت تشغله قبة الهواء وكانت به حديقة كبيرة وحلبه للسباق (ميدان) • وأفراد فيه بناء مستقل للحريم • وبالمثل أقام الموظفون لهم مساكن فى أماكن متفرقة وازدانت المدينة بعمائر جليله مثل القصور والحمامات والأسواق التى تقطعها السكك والأزقة • وكان بها أسواقا عديدة سميت باسماء لا علاقة لها فى الغالب بالبضائع التى كانت تباع فيها • فعلى سبيل المثال كان فى • سوق الحدادين تجار للأقمشة وضم « سوق القماحين » حوانيت قصابين وفاكهيين وشوائين • وفى سوق الطباخين أقام الصرافون والخبازون والحلوانيون الى جانب الطهاه •

*

كان لمدينة القطائع طابعا عسكريا شاركتها فيه مدينتى الفسطاط والعسكر فحوائط الجامع الضخم الذى أقامه ابن طولون كانت مزودة بشرفات أضفت عليه طابع القلعة • ويكشف تخطيط المدينة عن منشآت ابن طولون الضخمة التى كان يقطعها شارع تجارى ممتد بين الجامع والقصر والميدان • وعلى جانبى المدينة امتد طريقان كبيران متوازيان يبدأ من الميدان وسمحت الشوارع العرضية التى ربطت بينهما لرياح الشمال وللهواء بأن يدخلا الى كل مكان • وسرعان ما التحمت مبان القطائع بحدود الفسطاط والعسكر واختفت خرائب البيوت القديمة التى كانت قائمة حول بركتى قارون والفيل • شيد ابن طولون جامعه بين عامى ٨٧٦ — ٨٧٧ م • وهو الأثر الذى وصلنا من مدينة القطائع الصغيرة ويعتبر من أهم آثار مصر الاسلامية ومعلما هاما وانشاؤه يعد بداية لعصر جديد فى فن العمارة • وهو يتميز بميزتين عن الجوامع الأخرى التى كانت قد بنيت من قليل فقد بنى كلية من مواد جديدة ولم يدخل فى بناءه مواد جلبت من المعابد أو الكنائس القديمة • وتظهر فيه لأول مرة العقود المدببة تدبيبا خفيفا • وقد نحتت الزخارف على الجص بدلا من استخدام القوالب وتميزت بليونة كبيرة • ويروى المقريزى أن ابن طولون عثر على المال اللازم ، لبنائه فى صورة كنز مخبىء فى جبل المقطم وقد اعتزم بنائه بحيث يتسع لكل أهل القطائع لأن جامع عمرو كان قد ضاق بالمصلين منذ وقت طويل • واختار موقعه على القمة التل الصخرى الموجود على قمة يشكر المسطحة لأنه موقع تجاب فيه الدعوات حيث اعتقد أن موسى النبى كان قد خاطب الله على ذلك التل •

وبمجرد أن وضع الأساس سار العمل بخطوات سريعة وتم البناء بعد عامين وأودى فيه الصلاة الجامعة بحضرة الأمير · وفى بادىء الأمر واجهت ابن طولون مشكلة تدبير ٣٠٠ عمود من الرخام ضرورية لحمل عقود الجامع وكان لابن طولون مهندس مسيحى أو ربمـا قبطى (١) ، وكان قد سجن لأمر تافه ، وأرسل هذا لابن طولون قائلا انه يستطيع بناء الجامع بالأبعاد المطلوبة دون استخدام أعمدة عدا عمودى المحراب فاستدعاه فورا وطلب منه ان يرسم تخطيطا للجامع الجديد ، ونفـذه المهندس وأعجب به ابن طولون فخلع عليه ثوب شرقى ومنحه ألف دينار لبناء الجامع · وبمجرد ان أقيمت حوائطه منحه عشرة آلاف دينار أخرى وفى النهاية بلغت جملة تكلفة الجامع مائة وعشرون ألف دينار · وبدلا من الأعمدة شيدت دعائم من الأجر غطيت بطبقة سميكة من الحجر شكلت بزواياها أعمدة ملتصقة ·

فضل ابن طولون الا يستخدم أعمدة فى جامعه لسببين أولهما انهم كانوا سيجلبونها من كنائس قبطية مما يؤدى الى تعكر صفو العلاقات الطيبـة بين المسـلمين والمسيحيين ، وثانيهما ان المواد الجديدة التى اقترحها المعمارى كانت أكثر مقاومة للنار اذا ما اشتعل حريق · وأخيرا برجح بعض مؤرخى الفن الاسـلامى ان ابن طولون قد قلد الاسلوب المعمارى الذى كان سائدا فى وطنه ، أى العراق ، حتى انه اقتبس من الزاقورة الاشورية شكل مئذنته · لكن الاسطورة دائما أجمل من الحقيقة وهى تقص علينا ان ابن طولون كان دائم المباهاة بانه لايضيع وقته أبدا فيما لا يفيد لكنه رؤى فى ذات يوم يعبث بورقة وهو شارد الذهن وقد شكلها بأصابعه على هيئة قرطاس ، فسخر من هذا أحد أتباعه · فألمه هذا ولكى ينقذ ماء وجهه تظاهر بانه كان يصنع نموذجا لمئذنة الجامع الجديد وأرسل يستدعى معماريه وأمره بأن يصنع المئذنة طبقا للشكل الذى عمله بأصابعه ·

ولابد ان مظهر الجامع كان خلابا فى لحظة افتتاحه · فقد كسيت الجدران بالفسيفساء حتى الأفاريز · وبلطت أرضيته بالمرمر وغطيت بحصر بديعة من Samanah وسـجاجيد من البهنسة · وقد كتب القـرآن كله بحـروف ذهبية على افريز يجرى أعلى البوائك يعلوه افريز آخر بزخـارف مفرغة ، قيـل انه كان مشغولا على نحو بديع بالعنبر :

(١) تستخدم هذه الكلمة اليوم للدلالة على مسيحى من اتباع الكنيسة المصرية ، وان كانت فى الأصل تعنى مصرى · ويبدو انها تحريف للكلمة « حوت — كان بتاح » المصرية القديمة وكانت اسما لمدينة منفيس القديمة ·

أما القبة التى كانت تغطى نافورة الوضوء فقد كانت محمولة على أعمدة رخامية فى وسطها تماما توجد الفورة المثبتة فى حوض من المرمر الشرقى. وبين الأعمدة الصغيرة امتدت مشبكات ذهبية . وتدلت من السقف المزين بنجوم مصابيح ومباخر . أما المحراب الموجود فى بيت الصلاة فقد تألق من التذهيب وطلى بروح الورد والصندل والزعفـران . وكان المنبر ودكه المبلغ من الأخشاب الثمينة . وفى المساء حينما يحل ظـلام الليل ترسل المصابيح البرونزية الضخمة (التنانير) خيوطا من ضياء لا تبدد الظلام تماما الذى ينكمش الى ظلال متناثرة على أرض الأروقة وينطلق كسحابات فى فضاء الجامع فتجرد المادة من أبعادها فلا يبق من الأشياء سوى ظلالها ولمعات من ألوان متغايرة فى جو تعبقه رائحة البخور .

ويروى القلقشندى ان ابن طولون ، بعد ان فرغ من بناء جامعه حلم ان نارا قد هبطت من السماء والتهمت الجامع الجديد دونمـا ان تمس ما حوله . وفسره له حكيم من الحكماء فقال : « أبشر بقبول الجامع ، لأن النار كانت فى الزمان الماضى اذا قبل الله قربانا نزلت نار من السماء أخذته ، ودليله قصة قابيل وهابيل » .

استمر الجامع عامرا بالصلاة فترة طويلة لكنه فى النهاية هجر . واحترقت النافورة الرخامية وقبتها التى شـــيدت فى قلب المســـجد سنة ٩٨٦ م . وفى وقت من الأوقات اتخذ بيت الصلاة المهمل مأوى للحجاج القادمين من أفريقيا الشمالية قاصدين مكة المكرمة ويزعم الرحالة الفارسى ناصرى خسرو ان أحفاد ابن طولون قد باعوا الجامع للخليفـة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٩٩٦ ــ ١٠٢٠ م) بمبلغ ثلاثين ألف دينـار وبعد فترة من الوقت شرعوا فى هدم المئذنة ، وعندما علم الحاكم بذلك أرســل اليهم قائلا : « ألم تبيعونى الجامع فكيف اذا تهدموه ؟ فــرد الطولونيون : « نحن لم نبـــع المئذنة » . فاشتراها منهـم الخليفـة بخمسة آلاف دينار . وهذه القصة سواء صدقت أم كذبت تظهر لنا ان هذا الجامع العظيم كان قد هجر .

لجأ الأمير لاجين الى الجامع فى عام ١٢٩٦ م واختفى فيه عن عيون أعدائه ، وهناك نذر ان ظل على قيد الحياة ليعمرن الجامع . وعندما صار سلطانا وفى بنذره ليتألق الجامع مرة أخرى قرونا عديدة مباهيا بفنونه .

والجامع الآن وان حافظ على ضخامته الا أن بهاؤه قد ذبل وشاب بناؤه الهرم ولف الصمت جوانب الجامع العتيق فلا يســـمع صــوت الا صرخات الطيور تتردد فى جنباته من حين الى حين ، ساد الظلام رحابه وأروقته العديدة التى يخيل للناظر اليها ان عشرات المرأيا تضاعفهـا .

وانقطعت فيه العبادة ولم تعد الصلوات تسبح فى رحاب بيت الصلاة العتيق ٠

*

ذكرنا من قبل « الميدان » وهو ميدان واسع استخدم للتدريب على المصارعة وركوب الخيل وكساحة للاستعراضات العسكرية وكمكان يلهو فيه علية القوم بلعبة البولو وذكر المقريزى انه عندما كان يسأل امرىء الى أين هو ذاهب كان يجيب دائما بأنه ذاهب الى الميدان ٠ وقد أحاطه ابن طولون بسور فتحت فيه أبواب عدة حمل كل منها اسما خاصا وأدى دورا محددا ٠ فمن « باب الميدان » كان الجيش يدخل ويخرج ٠ وخصص بابى « الصوالجة » و « الخاصة » للمقربين من ابن طولون ٠ وقصر « باب الحريم » على النساء والخصيان ٠ وعرف « باب الدرمون » بهذا الاسم نسبة لاسم عبد اسود ضخم البنية كان يجلس بجواره وكان مكلفا بتأديب من يخطىء من العبيد السود ٠ أما « باب الساج فقد كان مصنوعا من خشب الساج ٠ وسمى « باب الصلاة » بهذا الاسم لأنه كان مشيدا على الشارع الأعظم (الطريق الرئيسى) الذى كان يؤدى الى جامع ابن طولون حيث كانت تقام الصلاة ٠

وقد عرف أيضا باسم « باب السباع » بسبب وجود أسدين من الجبس عليه ٠

سد ابن طولون الطريق الواسع الذى كان يؤدى الى قصره بحائط فتحت فيه ثلاثة أبواب متجاورة ، الأوسط منها كان مخصصا للأمير ولم يكن لمخلوق أن يدخل منه الا يوم توزيع الصدقات اذ تفتح البوابات الثلاث معا ٠

كان بالقصر قاعة « مجلس » يجلس فيهـــا ابن طـولون حينما يستعرض جيشه أو توزع الصدقات ، حتى يشاهد من أعلى جموع الناس التى تدخل من باب الصوالجة وتخرج من باب السباع وفوق هذا الباب كانت توجد قاعة « مجلس » أخرى يشاهد منها ابن طولون تدريبـات وأسلحة جنوده ٠ فان أعجبته مهارة أحدهم منحه هبه تمكنه من العيش واللبس طبقا لرتبته ٠ كان هذا المرقب مكان جلوسه المفضل ٠ وكثير ما كان طولون يسرح ببصره الى النيل والفسطاط وضواحيها التى كانت تبدو بوضوح من هذا المكان ٠

كانت احدى القناطر تغذى قصر ابن طولون بالماء ، الذى كانت تجلبه من عين بالصحراء بالقرب من عين الصيرة · وذات يوم نما الى علمه ان الناس يشكون من نوعية الماء فأرسل فى استدعاء العالم والطبيب ابن عبد الحكم ليعرف اذا ما كانت شكوى الناس تستند الى أساس صحيح أم لا · ويقول ابن عبد الحكم : « كنت ليلة فى دارى ، اذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون · فقال لى : الأمير يدعوك · فركبت مزعورا مرعوبا ، فعدل بى عن الطريق ، فقلت : أين تذهب بى ؟

فقال : الى الصحراء ، والأمير فيها ·

فأيقنت بالهلاك ، وقلت للخادم : الله الله فى ، فانى شيخ ضعيف مسن ، أفتدرى ما يراد منى فارحمنى ·

فقال : احذر أن يكون لك فى الساقية قول · وسرت معه واذا بالمشاعل فى الصحراء وأحمد بن طولون راكب على باب الساقية وبين يديه الشمع ، فتركت وسلمت عليه ، فلم يرد على ،

فقلت : أيها الأمير أن الرسول اعتنتى وكدنى وقد عطشت · افيأذن لى الأمير فى الشراب فأراد الغلمان أن يسقونى ·

فقلت : انا آخذ لنفسى · فاستقيت وهو يرانى وازددت فى الشراب حتى كدت أنشق ، ثم قلت أيها الأمير ، سقاه الله من انهار الجنة ، فلقد أرويت وأغنيت ، لا أدرى ما أصف ، أطيب الماء فى حلاوته وبرده ، أم صفائه أو طيب ريح السقاية ، فنظر الى وقال : أريدك لأمر وليس هذا وقته ، فاصرفوه ·

فصرفت ·

فقال لى الخادم : أصبت ·

أقام ابن طولون فى القطائع مارستانا (مستشفى) فى عام ٨٧٢ أو ٨٧٤ م ·

※

وصار محل عناية كبيرة منه · وقد خصصه لعلاج المدنيين وحرم على العسكريين والمماليك أن يعالجوا فيه · وكان موضعه بين جامع ابن طولون وتل الجرة algarah من ناحية وقنطرة الخليج والسور الذى يفصل جبانة الفسطاط من ناحية أخرى ، وأوقفت عليه عوائد دار الديوان ومساكنه فى حى الاسكافية والقيصرية وسوق العبيد ، كما شيد

فيه حمامين أحدهما للرجال والآخر للسيدات ، وأوقف ايرادهما على البيمارستان أيضا ٠

كان على المرضى أن يخلعوا ملابسهم عند الدخول ويسلمونها الى الخازن مع نقودهم ليحفظها ٠ ثم يلبسون ثيابا خاصة ويرقدون فى أسرة يتناولون فيها الطعام والعلاج ٠

ثم يقوم الأطباء بفحصهم والعناية لهم حتى يتم شفاؤهم أى تسمح لهم حالتهم الصحية بتناول طعاما مؤلفا من خبز ودجاج ـ وعندئذ ترد اليهم نقودهم وملابسهم التى كانوا قد أودعوها ٠

اعتاد ابن طولون ان يزور المارستان يوم الجمعة من كل أسبوع فيتفقد المخازن والأطباء ويعود المرضى والمجانين ٠ وبينما كان يوما يزور قسم المجانين خاطبه أحدهم وكان مكبلا بسلاسل ، قائلا : « أيها الأمير اسمع كلامى ما أنا بمجنون ولكن عملت على حيلة ٠ وفى نفسى ان آكل رمانة عريشية أكبر ما يكون » فعلى الفور أمر ابن طولون بان تعطى له واحدة فأخذها المجنون فرحا وأخذ يتسلى بقذفها من يد ليد حتى أنسى غفله من ابن طولون فقذفه بها فى صدره ، فانشقت ولطخ ماؤها ثيابه فاشتد غضبه وأمر بحبس المريض ٠ ومنذ ذلك الوقت امتنع الامير عن زيارة المارستان ٠

وطبقا لرواية المقريزى فقد تم بناؤه ، كالجامع ، من ألف دينار وجدها الأمير فى صورة كنز منحها الله له مكافأة لابطاله « المعونات » و « المرافق » (نوع من الضرائب) فعندما كان يعدو بجواده فى الصحراء تعثر جواد أحد أتباعه وانغرست ساقه فى أحد النقر ، وعندما وخصت الفجوة تبين ان بها مليون دينار ٠ (فى الحقيقة يبدو ان ابن طولون قد أحس بقوته فامتنع عن ارسال الجزية السنوية الى بغداد عاصمة الخلافة فتوفر له مالا اعتزم انفاقه فى تجميل القطاع) ويذكر المقريزى أيضا ان ابن طولون شيد قلعة فى الروضة سنة ٨٧٦ م لتكون ملجأ لحريمه وكنوزه اذا ما داهمه خطر ٠ وأيضا للدفاع عن الممر المائى الذى فصل الجزيرة عن الفسطاط ، لكن فيضانا عاليا دمرها ٠ ويذكر الادريسى أن ابن طولون شيد جامعين احدهما فى حى القرافة والآخر فى الجزيرة التى شكلها فرعى النيل (الروضة) ومسجد ثالث فى الجيزة ٠ وأخيرا فقد شيد مسجد التنور على المقطم وفى العسكر بنى « ديوان الخراج » وضاعف من القنوات التى تمد المدينة بالماء أو تصرفه مما أدى الى تحسن الأحوال الصحية ٠

بعد وفاة ابن طولون اعتلى العرش خمارويه ثانى أبنـائه البالغ عددهم ثلاثة وثلاثون • وكان الابن الأكبر عباس مسجونا حينذاك عقابا له على تمرده على أبيه ، وحتى يتجنب أى صراع فى المستقبل على العرش قام الحاكم الجديد بخنق أخيه الذى رفض أن يبايعه • كان خمارويه فى الحادية والعشرين من عمره وكان مولعا بالترف ، فمن الطبيعى أن يتوقع المرء أن يقع فريسة سهلة لشهوة السلطة فيسىء استخدامها • وبالرغم من فراره المشين أمام أعدائه اتباع الخليفة العباسى فى أول معركة له معهم ، الا ان خمارويه مالبث أن ثاب الى رشده وصار ملكا نشطا لم يحافظ على ملك أبيه وحسب بل اسـتطاع أن يمد سلطانه الى مناطق أبعد •

وفى أول سـنة من عهده تعرضت مصر لزلزال دمر العديد من المنازل وأصاب جامع عمرو والفسطاط بأضرار وراح ضحيته ألفا من الأرواح • وعندما تأكد من شدة قبضته على أمور البلاد انصرف الى تطوير القطائع ، فهدم بعض منشآت أبيه ليعيد بنائها على نطاق أعظم فزاد فى مساحة القصر وحـول الميدان الى حديقة غرس فيها زهورا وأشجارا من أنواع شديدة الندرة منها نخلة قصيرة يمكن لرجل واقف الى جوارها أن يجمع ثمارها • وعلى جذوع بعض النخيل ثبتت أنابيب من رصاص أحيطت بغلاف من النحاس المذهب ، وعندما كان الماء يخرج من الأنابيب كان يخيل للناظر انه يخرج من جذع النخلة نفسه . سقط فى أحواض نظمت بحيث يمكن منها توزيع المياه على القنوات العديدة التى كانت تروى الحديقة • وكان بها أحواض ريحان اعتنى البستانيون بتنسيقها عناية فائقة وشكلوا من الأزهار صورا من كل نوع أو حروف • ومن بين زهور الحديقة البديعة كانت الزنابق وزهر المنثور (١) • ومن أجل خمارويه هجنت بعض أشجار المشمش مع أشجار اللوز • وقـد شيد فى وسط الحديقة برج من خشب « الساج » اتخذ بيتا للطيور وقد زينت جدرانه بنقوش بارزة ملونة بألوان عدة • كانت قنوات المياه تخترق أرض الحديقة المبلطة وكانت تغذى دائما بالماء عن طريق سواق• وفى تلك القنوات كانت الطيور تسبح وقد أسغت بأصواتها وألوانهـا الحياة على تلك الحديقة الباسمة التى أخذت الطيور تجوس فى ربوعها منها الطواويس والدجاج الغينى وطيور أخرى كبيرة الحجم •

وفى داخـل القصر بنيت قاعة عـرفت « ببيت الذهب » كانت

---

(١) G'llv flower.

جدرانها الرائعة تلمع ببريق الألوان التى اتخذت من الذهب · واللازورد، وعليها نقشت صورته نقشا بارزا مع صور لزوجاته وموسيقى البلاط · وقد نفذت الرسوم بأناقة ومثلت الشخصيات ترتدى تيجانا من الذهب الخالص أو عمائم مثقلة بالأحجار الكريمة وفى أذانهم أقراط ثقيلة ·

وأمام القصر كانت توجد بركة لامعة من الزئبق فقد شكى خمارويه لطبيبه من الارق فنصحه بالتدليك ، لكن خمارويه لم يكن يحب أن يلمس جسده ، فنصحه الطبيب بأن يحفر حوضا ويملأه بالزئبق · فصنع حوضا مربعا طول ضلعه خمسون ذراعا فى كل زاوية منه عمودا من الفضة الخالصة · وثبتت اليهم ستائر حريرية رائعة تتحرك بواسطة حلقات من الفضة · وأمر خمارويه بصناعة حاشية من الجلد ، فاذا ما نفخت وضعها على الزئبق وأغلق الستائر ونام على الحاشية التى كانت تتارجح مع حركات الزئبق فتساعده تلك الهزات على النوم وفى الليالى المقمرة كان نور القمر المنعكس على سطح البركة الزئبقية يخلع على المنظر ثوبا سحريا يبعده عن عالم الواقع ·

وبنى فى قصره بيتا للاسود ، كان أحدهم يسمى زريق لزرقة عينيه ، وكان شديد التعلق بخمارويه ، وكان يتمتع بحرية كاملة ، فكان يجوس فى القصر دون أن يؤذه مخلوق وفى الليل كان يرتدى طوقا ذهبيا ويسهر بجوار الأمير النائم ليحرسه ، وقد ضمت بيوت الحيوانات الأخرى نمورا وفهودا وفيلة وزراف ·

*

بنى خمارويه حريما ليجمع فيه نسائه ونساء أبيه وقد خص كل منهن مسكنا شديد الاتساع ، حتى انه اتسع لايواء قائد وأتباعه عندما سقطت الاسرة الطولونية ، وكان الفائض من طعام كل وجبة فى القصر عظيما ، واعتاد خدم القصر أن يبيعونه ، فاذا ما حل ضيف مفاجىء بمنزل ولم يكن لدى صاحبه وقت كاف لاعداد الطعام كان يكفيه ببساطة أن يذهب للقصر ليشترى بعضا من بقايا المائدة ·

وقد كون خمارويه حرسا عظيما كان بعضه من رجال « الحوف » وهم قوم عرفوا بالشجاعة وان امتهنوا قطع الطريق · أما باقى أفراد الحرس فكانوا ألف زنجى ، وقد تألف زيهم من درع جلدى وثياب وعمامة سوداء · وكانوا اذا ما خرجوا للاستعراض مسلحين بسيوفهم الكثير بدوا للرائى كنهر أسود منساب تتناثر عليه لمعات بيضاء هى

حواف الكالوتات (١) البيضاء التى تظهر من تحت عمائمهم ·

وأثناء المواكب كانوا يمرون أولا ثم يأتى خمارويه محاطا باتباعه وكانت رهبته عظيمة حتى ان مخلوقا لم يكن ليجرؤ على ان يشير اليه بأصبعه أو أن يتحدث اليه أثنـاء سيره أو أن يحاول الاقتراب منه خشية العواقب · فاذا ما سـار ساد الصمت جمـوع الناس فلا يسـمع كلام ولا سعال أو عطس أو حتى أقل نفس · فكأنهم واقفون وعلى رؤوسهم الطير ·

كان سباق الخيل موضـــة هذا العصر وكان الاحتفال به عظيما كالاحتفال بالعيد · وقد بنى خمارويه « ميدانا » آخر أكبر من ميدان أبيه · وبنى قبة فى قصره تشبه قبة الهواء سماها « الدكة » وقد زودت بأستار يمكن عن طريقها التحكم فى درجة حرارة الغرفة وكان من الممكن تحريكها الى أعلى أو الى أسفل · وفرشت أرضياتهـا بسجاجيد منتقاة صنعت كل واحدة بنفس أبعاد الغرفة · وكثيرا ما كان يجلس فى هـذا المكان ليتأمل قصره وملحقاته وحديقته والمنظر الرائع الذى يمتد أمامه ·

*

قتل خمارويه أثناء نومه وعلى سريره على يد بعض حظاياه وخدامه، كانت جنازته مشهدا كئيبا فقد أخذت نساؤه ونساء خدمه وموظفيه فى النواح والعويل ولطخ بعض العبيد ملابسهم بالسواد ومزقوها · كان البكاء عظيما يمزق نياط القلوب واستمر حتى ورى التراب ·

أما القتلة فكان عليهم أن يغـالبوا الألم المبرح لســاعات قبل أن يموتوا على صلبانهم ·

*

وسرعان ما انكشف عجز أبناء خمارويه عن صيانة ارثهم ودخل القائد العباسى محمد ابن سليمان القطائع غازيا على رأس جيش من جيوش خليفة بغداد فى ١٠ يناير ٩٠٥ م ، فذبح الحرس الاسود وأحرق أحيائهم ونهب المدينة تماما لكنه احترم جامع ابن طولون الا انه لم يتورع عن نهب المنازل ومعاملة السكان معاملة الكفار ·

وشيئا فشيء تهاوت بيوت القطائع المائة الف ، وأجهزت الفوضى

---

(١) نوع من اغطية الرأس ·

والمجاعة التى أصابت مصر فى القرن الحادى عشر الميلادى على البقية الباقية منها • وحتى يجنبوا الخليفة منظر تلك الأطلال المحزنة شيد حائط فى عام ١٠٧٠ م يصل بين القاهرة والفسطاط من باب زويلة حتى جامع عمرو • وصارت تلك الخرائب محجرا يقصدها الناس بحثا عما قد ينفعهم فى تشييد بيوتهم •

*

عاشت الدولة الطولونية ٣٧ عاما تمتعت خلالها القطائع بدرجة من الثراء والرفاهية لم تشهدها مصر منذ الفتح العربى • واذا ما كانت المدينة التى شيدها ابن طولون وجمها خمارويه قد آلت رمادا فان ذكراها عاشت طويلا فى ذاكرة الأجيال التالية • وقد تغنى بعظمتها الشعراء وبكوا نهايتها المبكرة •

وقال فى رثائهم الشاعر اسماعيل بن أبى هاشم •

كانوا مصابيحا لدى ظلم الدجى
يسرى بها السارون فى الادلاج

وكأن أوجههم اذا أبصرتها
من فضة بيضاء أو من عاج

ويختم رثائه قائلا :

وعليهم ما عشت لا أدع البكا
مع كل ذى نظر وطرف ساج

القاهرة

عاصر انشاء القاهرة فترة عانى فيها العالم الاسلامى من اضطرابات عاصفة . فقد أخذت شمس العباسيين فى المغيب بعد ان كانت قد وصلت الى ذروتها فى ابان حكم هارون الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٨ م) وابتلعتها الأمواج التى أثارتها الصراعات المتوالية على العرش وثورات الأمراء وأطماع الحرس التركى . وقد رأى العباسيون (أحفاد العباس عم النبى صلعم) من مقعدهم فى بغداد ظهور الأسرة الفاطمية المنافسة (وهم أنسال ابنة الرسول صلعم) فى القيروان . وبينهما صارت مصر محصورة وكان عليها الاختيار بين الولاء لأسرة العباسيين الهرمة والآخذة فى الضعف وبين الولاء للأسرة الفاطمية المفعمة بالفتوة والقوة .

تولى المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين العرش سنة ٩٥٣م . وعلى النقيض من أسلافه تبوأ مكانا فى التاريخ . فلقد كان الخلفاء السابقون رجال حرب لم يدركوا لغير القوة معنى أما هو فكان رجل دولة ذا عقلية سياسية فعرف كيف ينتصر على عدوه فى ميدان القتال ثم يتبع هذا بأعمال دبلوماسية تمكنه من استغلال النصر خير استغلال . وحلت بهذا الحركة المدروسة المتأنية محل الحماسة الانفعالية . ولم يكن أجداده يتمتعون بقسط كبير من الثقافة ، بل قليلا ما اهتموا بالثقافة أو بالعلوم . غير انه كان رجلا متعلما ينظم الشعر ويولع بالأدب العربى ويعرف

السلافية والاغريقية واللهجات البربرية والسودانية ، وجمع الى هـذا فصاحة تأخذ بالألباب فهو قادر على أن يوقد الحماس فى قلوب النـاس تارة وتارة أخرى يفجر من عيونهم الدمع ٠

وكان ضنينا بالمال العام جوادا بماله ٠ وأظهر حبه للعدالة نبل غايته ٠ وكان شديدا على قومه حتى يحفظ الأمن والاستقرار فى أرضه بيد أنه أظهر لينا وتسامحا مع المقاطعات البعيدة التى حافظت على ولائها له بذلك ٠

ولما كانت الرغبة تملأه فى توسيع ملكه فقد كان من حسن طالعه أن يجد شخص جوهر الذى كان عبدا من أصل صقلى أو يونانى ثم ارتقى الى مرتبة سكرتير الخليفة السابق وعندما اعتلى المعز العرش جعله وزيرا وقائدا لجيوشه ٠ ولنتوقف برهة أمـام شخصية جوهر المؤسس الحقيقى للقاهرة ٠

ولد جوهر عام ٩٠٣ م فى جزيرة صقلية لصقلى يدعى عبد الله كان قد اعتنق الاسلام ولا نعرف شيئا عن جده حتى اسمه ٠ وتلقى جوهر تعليما جيدا أوربيا وعربيا مما جعله قادرا على فهم التيارين الثقافيين اللذين سادا منطقة البحر المتوسط فى هذا العهد ٠ ونجح عن جدارة فى اكتساب اعجاب المعز الذى قدر فيه مواهبه وعلمه ٠ وعين وزيرا فى عام ٩٥٨ م ثم قائدا للقواد ، ونفذ بنجاح باهر العديد من المهام الصعبة ٠ وبذلك أظهر جوهر نفسه كمحارب عظيم ودبلوماسى كفء وادارى ناجح وأخيرا كرئيس عادل ورحيم ٠ وقد كلف فى عام ٩٥٨ م بتهدئة شمال غرب افريقيا فغادر القيروان وقاد جيشه المظفر حتى وصل الى ساحل الأطلنطى وهناك ملأ اناء بأسماك حيـة وأرسلهـا الى الخليفة كدلالة على أن أمبراطوريته تمتد الى ساحل المحيط ٠

وكما ان أهم أعمال المعز لدين الله كان غزو مصر ، كان تأسيس القاهرة أهم أعمال جوهر الصقلى ٠ كان الفارق شاسعا بين افريقيا الشمالية بهضابها الواسعة الجرداء وقبائلها المتحفزة دائما للثورة وبين سهول مصر الواسعة الغنية وشعبها الطيب المحب للسلام الذى لا يجنح لتحدى ملك قوى مفعم بالحيوية والطموح ٠

ويروى المقريزى حكاية تعبر عن الرأى الشائع لاهل القيروان عن المصريين حينذاك ٠ أرسل أحد المغاربة جارية الى مصر لتباع بألف دينار ٠ فأتت سيدة وساومت على شرائها بعد أن فحصتها ثم اشترتها بستمائة دينار ٠ وكانت السيدة ابنة الأخشيد محمد بن طغج ملك مصر حينذاك ٠

وعندما عاد التاجر الى وطنه روى الحكاية للمعز الذى أرسل فى استدعاء الشيوخ وأمر التاجر برواية الحكاية مرة أخرى · وعندئذ صاح : « يا اخواننا انهضوا الى مصر ، فلن يحول بينكم وبينهم شىء فان القوم قد بلغ بهم الترف الى ان صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جاريه لتتمتع بها وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم فانهضوا لمسيرنا اليهم » · فأجاب الشيوخ « سمعا وطاعة » وأعلنوا على استعدادهم للانضمام الى جيوش الخليفة التى تقصد مصر لغزوها ولمدة عامين أخذ المعز فى تجهيز حملته · حفرت الآبار وشيدت استراحات للجيش على طول الطريق من القيروان الى الاسكندرية · وفى مصر مهدت الطريق للحملة دعاية للشيعيين والعلويين · وقد جنت سياسة التسرب ثمارها فقد وجدت بذور الثورة التى بذرها الفاطميون فى أرض مصر التى أهملها العباسيون أرضا خصبة قويت وامتدت فيها جذورها ·

بعد وفاة كافور العظيم تولى العرش طفل · وقد كره رعاياه ، الذين كانوا دائما عرضة للاعتقال والمصادرة ، وزيرة ابن الفرات · وفى عام ٩٦٧ م كان فيضان النيل شحيحا مما أدى الى مجاعة أعقبها الوباء · ثم أضيف لكل تلك المصائب هجوم الفئران والجراد · فمات فى الفسطاط وضواحيها أكثر من ستمائة ألف رجل · وفضلا عن هذا أخذ القرامطة فى مهاجمة القوافل وعاث النوبيون فسادا فى أسوان فهاجر الناس وقد ملأهم اليأس الى البلاد المجاورة ·

وقد فر من مظالم ابن الفرات يهودى اعتنق الاسلام هو يعقوب ابن كلس الذى كان صاحب حظوة لدى كافور فى السابق · وقد لجأ الى بلاط المعز وأمده بكثير من المعلومات النافعة عن مصر · جمع المعز جيشا كبيرا ودعيت القبائل العربية الى الانضمام تحت لواء المعز · وقد حمل الجيش معه ٢٤ مليون دينار وفرقت عطايا ثمينة بين الجند · غادر جوهر القيروان فى فبراير عام ٩٦٩ م على رأس جيش بلغ تعداده مائة ألف مقاتل مجهزين بخير عتاد وبصحبتهم ألف جمل وعدد لا يحصى من الخيول التى حملت بالفضة والمؤن والذخائر وقد استعرضهم الخليفة بنفسه وعندئذ قبل القائد يد الخليفة وحوافر جواده ثم مر الأمراء والقادة وعلية القوم فى صفوف سائرين على أقدامهم أمام جوهر الذى خلع عليه الخليفة بردته وحصانه تعبيرا عن حظوة جوهر الفائقة لديه ·

ولم يلق جيش المعز سوى مناوشات بسيطة عندما وصل الى مصر ويروى ناصرى خسرو اسطورة تحكى ان المغاربه كانوا يخشون عبور

النيل الذى كان يعج بالتماسيح · لكن المعز طمأنهم وتنبأ لهم بأنهم سيرون كلبا أسودا سيقودهم الى ضفة النيل وسيريهم الطريق الذى عليهم أتباعه · وجرت الأمور كما تنبأ الخليفة وتمضى الاسطورة زاعمة ان الجيش بأكمله قد عبر النيل دونما أن يغرق فارس واحد وان يلتهم نمساح جنديا ·

واستسلمت أغلبية السكان دون قتال ، أما مراكز المقاومة النادرة فقد صفيت بسرعة وقد رغب أهل الفسطاط فى تجنب أهوال القتال ولذا قطعوا رؤوس بعض من قاوموا الفاطميين وارسلوها الى جوهر الذى أرسلها بدوره الى المعز ثم أرسل رسولا يحمل راية بيضاء وأخذ الرسول يطوف بشوارع الفسطاط مناديا بالأمان ويمنع السلب · وفى اليوم التالى الخامس من أغسطس ٩٦٩ م دخل الجيش الفاطمى الفسطاط رافعا رايته وداقا طبوله · وتوجه جوهر الصقلى مرتديا ثوبا من الحرير مطرزا بالذهب الى جامع عمرو على صهوة جواده البنى وقد غطى سرجه بقماش مصرى · وهناك ألقى الامام وهو متشح بالبياض خطبة فى المصلين باسم الخليفة الجديد المعز لدين الله الفاطمى وترحم على أجداده فاطمة وعلى · ثم ضربت عملة شيعية وبذا فقد العباسيون مصر الى الأبد وانتقلت السيادة الى الفاطميين لمدة قرنين من الزمان · وبعد ان مر جوهر بالفسطاط استمر استعراض القوات الافريقية لمدة سبعة أيام ثم استتب الهدوء سريعا · وملأت خيام الجند الأرض الرملية التى تحف بالمدينة وفتحت الأسواق أبوابها وأخذ الغزاة فى شراء البضائع المصرية الجيدة ·

*

كان للغزو الفاطمى عواقب هامة لمصر · فلقد اعتبر السنيون الفاطميون هراطقة وعمدت باقى أجزاء العالم الاسلامى الى تجنبهم · لذا فقد انعزلت القاهرة فكريا عن الفكر والأدب العربى اللذين ازدهرا فى القرنين الحادى والثانى عشر · وتجنب العلماء الكبار والطلاب جوامع القاهرة حيث تتردد دعاوى الفاطميين · وخلال تلك الفترة لم يكن لمصر أن تجنى نفعا علميا من أوروبا التى لم يكن لديها فى ذلك الوقت ما تقدمه لمصر · واذا ما كانت تلك الفترة قد شيدت ضعفا ثقافيا الا أن مصر ارتقت الى درجة من الثراء المادى لم تجاوزه أبدا فى أى من القرون التالية · واذا ما كانت المنازل والمساجد والقصور الفاطمية قليلة العدد نسبيا الا ان ثراء زخارفها التى اسرف فى استخدام الذهب والاحجار الكريمة بها لن يدانى أبدا فى العصور اللاحقة ·

أدى قيام الدولة الفاطمية الى تغيير كبير فى أوضاع المسيحيين فى

مصر فقد حاول الخلفاء الفاطميون استمالة الأقباط اليهم ، وعاملوهم بعناية وتسامح كبير وهذا يفسر العدد الكبير من الكنائس التى شيدت فى ذلك العهد • فقد صرح المعز للبطريرك افرايم (١) بتجديد كنيسة القديس مرقوريس (أبو السيفين) (٢) واعادة بناء الكنيسة المعلقة • وعندما أراد بعض غلاة المتعصبين ايقاف العمل ، ذهب المعز بنفسه الى المنطقة وأمر بوضع الأساس فى حضرته وبعد هذا تم البناء فى سلام •

ويفسر نص منسوب الى الكاتب الارمانى أبى صالح سبب اهتمام العزيز (ثانى الخلفاء الفاطميين فى مصر) بأمر الأقباط : فهو يعزو هذا الى معجزة تمت على يد البطريرك القبطى الذى أراد ان يظهر للخليفة مدى صدق العقيدة المسيحية فدعا الرب ان يصنع معجزة يثبت بها صحة ما ورد فى الانجيل بأن الايمان يمكن ان يحرك الجبال وتحققت المعجزة فتحرك جزء من جبل المقطم بالقرب من تل الكبش •

وقد تزوج العزيز من مسيحية وكان واحد من صهريه بطريركا ملكانيا (الروم الارثوذوكس) وعين فى منصب الوزارة يهودا ومسيحيين اعتنقوا الاسلام • وأولع الكثير من الخلفاء الفاطميين بزيارة الكنائس والأديرة القبطية •

كيف كانت تبدو المنطقة التى قدر للقاهرة ان تشيد عليها ؟ كان هناك طريق يخترق المنطقة طوليا ويربط بين الفسطاط الواقعة فى الجنوب وعين شمس فى الشمال والى الشرق كانت هناك قناة عرفت باسم خليج « اليحاميم al-Yahmim (١) وقد ظهرت فى تاريخ لاحق • والى الغرب امتدت قناة خليج أمير المؤمنين • والى الشمال الشرقى ينتصب الجبل الأحمر وبنيته من حجر الكوارتزيت ذى لون متفاوت الدرجات من الحمار والصفار والزرقة •

وكان بتلك المنطقة بعض المنشآت : مثل الحديقة المعروفة باسم حديقة كافور التى شيدها الأمير محمد بن طغج الأخشيد والحق بها اصطبلات وحلبة للخيول وقد لامست أطراف الحديقة خليج أمير المؤمنين •

---

(١) يقال ان جثمانه دفن فى الكنيسة المعلقة تحت منبرها •

(٢) قديس مسيحى عاش فى القرن الثالث الميلادى وكان ضابطا فى الجيش الروماني. وقيل ان ملاك الرب تجلى له قبل أن يخوض أحد المعارك وأعطاه سيفا وأمره أن يذكر الله اذا ما من عليه بالنصر • وقد كان • وعندما عاد رفض أن يحرق البخور لآلهة روما فقبض عليه وعذب ثم قطعت رأسه •

(٣) خليج كان يفصل بين السهل الذى بنيت عليه القاهرة وقرية أم دنين (المقس فيما بعد) •

وكان هناك أيضا « دير العظام » وهو دير قبطي سمى بهذا الاسم لأنه كان يضم عظام بعض من تلاميذ المسيح · وكان بالمنطقة أيضا قلعة بدائية احتلتها قبيلة بنو عزرا وكانت تعرف باسم « قصر الشوك » ·

وكان هنـاك أيضـا مسـجد شـيد فى عام ٧٦٢ م بين خليج أمير المؤمنين والجبل ، وقد أقيم على البقعة التى دفن فيها رأس « ابراهيم » حفيد » أبو طالب » زوج أخت رسول الله صلعم · وقد حمل هذا المسجد الكثير من الاسماء آخرها « مسجد تبر » نسبة الى الأمير « تبر الأخشيد » الذى دفن فيه ·

والى الغرب بين خليج أمير المؤمنين وبين النيل الذى لم يكن بعيدا عنه فى ذلك الوقت امتدت حدائق يانعة · وقد عرفت تلك المنطقة بالحمراء كما ذكرنا من قبل ، وانقسمت الى ثلاث مناطق من الجنوب الى الشمال : الحمراء الدنية والوسطى والقصوى · والأخيرة تقع الى جوار جبل يشكر الذى شيد عليه جامع ابن طولون ، ثم يواصل النيل مجراه حتى قرية أم دنين ويحاذى منطقة سميت أثنـاء حـكم الخليفة المستنصر « بأرض الطبالة » تكريما لراقصة كانت قد نظمت بعض الأبيات فى تمجيد أحد الانتصارات على العباسيين ، وقد منحها الخليفة تلك الأرض كمكافأة على تلك الأبيات ، ثم يتجه النهر الى « أرض البعل حيث امتدت «منية الأصبغ» حتى يصل الى « منية السيرج » ·

*

فى الجزء الجنوبى لتلك المنطقة نصب الجيش المغربى خيامه فى سنة ٩٦٩ م وعندئذ بدأ العمل بحماسة فى تشييد عاصمة جديدة · وطبقا لتعليمات الخليفة المحددة كان على جوهر الخيار بين ثلاث مناطق : الأولى : ان يقلد ابن طولون ويشيد المدينة الجديدة على الأرض الرملية الجافة الواقعة الى الشمال ، بين خليج أمير المؤمنين والمقطم ، والثانية شاطىء النيل الذى سيضمن للمدينة الحصول على الماء باستمرار فضلا عن استخدامه كطريق للنقل التجارى عليه مينـاء مزدحم بالمراكب ، والثالثة : جبل الرصد الذى يجمع الى المزايا السـابق ذكرها ارتفاعه الذى يحمى المدينة من مياه الفيضان ، وقربه من النيل الذى يضمن امدادات المياه فضلا عن الفوائد المادية التى ستجنيها مدينة مشيدة فوقه من النقل النهرى · وفضل جوهر الموقع الأول ، وطبقا للقلقشندى فقد ربخه الخليفة المعز على هذا الاختيار لبعد الموقع عن النهر مصدر المياه ··

وقد أوضح المقريزى ان جوهر كان يريد تشييد قلعة تحمى الفسطاط من غارات القرامطة لا مدينة توفر حيـاة هانئة لسكانهـا • وارتبطت ببناء تلك المدينة أسطورة كما حدث للفسطاط من قبل وقد قيل ان جوهر اختار موقع المدينة الجديدة على بعد ميل تقريبا من النهر فى الليلة نفسها التى نصب فيها معسكره قرب الفسطاط • ورسم على الموقع مربع طول ضلعه ٣٦٠ مترا وغرست على طول محيطه أعمدة متصلة بجبـال علقت فيهـا أجراس • وكان على الفلكيين ، ان يجتمعوا ليحددوا لحظة مناسبة لبدء العمـل أى حينمـا يظهر فى السـماء كوكب ذو فأل حسن • وفى تلك اللحظة كان على الفلكيين ان يهزوا الحبال حتى تدق الأجراس وبذا تعطى اشارة لبدء العمل فى كل أرجاء المدينة • وبينما هم ينتظرون اذا بغراب يحط على أحد الحبـال فتدق الأجراس ، فيظن العمال انها الاشـارة فيشرعون فى العمل بينما أخذت صرخات فزع تنطلق من الفلكيين فقد كان كوكب المريخ صاعدا فى الفلك وظهوره فى تلك اللحظة الحرجة كان يعنى ان المدينة ستستعبد لأن المريخ كان قاهر الفلك • ولما كان مستحيل الرجوع فيما قد تم أو تغيير ارادة السماء فقد قرر ان تسمى المدينـة بالمنصورية حتى يتغير الفأل السىء لصالح المدينة • لكن المعز غير هذا الاسم الى قاهرة المعز على اسم نفس الكوكب الذى ظهر فى السماء لحظة بنائهـا •

وفى رواية أخرى كان المعز قد اختار اسم المدينة الجديدة القاهرة وهو ما يزال فى القيروان قبل أن يرحل جيشه لغزو مصر •

ومهما كان أصل الاسم فقد رأى الفلكيون انه اسم على غير مسمى وأعلنوا ان المدينة ستسقط فى يوم ما تحت ضربات غازى من تركيـا ــ الأرض التى يحكمها كوكب القاهرة (كوكب الحرب) ، وبعد خمسة قرون من هذا التاريخ استولى السلطان سليم العثمانى على المدينة فى عام ١٥١٧•

*

كان فى ذهن معمارى القـاهرة حقيقتان سياسيتان • ان الفاطميين شيعيون يحيط بهم فى مصر شعب سنى • وانهم أعداء للعباسيين سادة خراسان والعراق وأرض بلاد النهرين ولذا فلا بد ان تنافس عاصمتهم بغداد العظيمة وان تليق بدولة عظيمة من دول حوض البحر المتوسط ، لا ان تكون مجرد عاصمة لولاية : ولذا كان لابد للمدينة الجديدة من ان تكون محصنة تحصينا يكفل الحماية للخليفة المقيم بها ضد أى تمـرد محتمل وان تكون لائقة بسكنى ملك عظيم ، ولذا فلم يدخر وسـعا فى تجميلهـا •

لقد بنيت تلك المدينة ليسكنها الغزاة المنتصرون لا رعاياهم ولذا فقد كانت القاهرة فى ذلك العصر مدينة ارستقراطية للخاصة تذكرنا بالمدينة الامبراطورية فى بكين أو الكرملين فى موسكو · وشيئا فشيئا اتخذت مظهر مدينة محرمة : فقد كان على من يريد ان يدخلها · ان يذكر سببا قويا وان يحمل تصريحا ، ولذا فليس من الغريب ان تدعى « القاهرة المحروسة » وبدون تصريح كان من المستحيل ان تدخلها شحنة من خشب أو حتى من قش ، وكان على السفراء الأجانب ان يمروا بين صفوف الحرس اذا دخلوها ، كما كان على الفارس ان يترجل عن جواده عندما يدخل من باب الفسطاط ، وعلى هذا الباب كان الوزراء المغضوب عليهم يقفون منتظرين ان يتعطف مولاهم يسمح لهم بالمثول أمامه · وعند تتويج الخليفة كان النبلاء يسيرون خلف الخليفة على أقدامهم حتى باب زويلة وباب الفتوح · وقد عاش هذا التقليد فى احتفال المحمل عندما كانت مصر ترسل الى مكة المكرمة أستارا جديدة للكعبة فى كل عام محمولة على جمل ، وكانت المدينة كلها بمبانيها وأرضها الفضاء ملكا للخليفة يؤجر فيها المبانى ويمنح الأرض الفضاء حصصا لجنوده · وكان الخليفة ورجال بلاطه هم المستهلكون الوحيدون للبضائع التى تعرضها أسواق ومتاجر المدينة ·

ويقول ناصرى خسرو الذى زار مصر بين ١٠٤٦ ـ ١٠٤٩ م ان القاهرة واحدة من أكبر مدن العالم ، وبها مالا يقل عن عشرين ألف متجرا مملوكة للخليفة ، وبها أيضا خانات وحمامات ومبان عامة أخرى ، كثيرة العدد حتى ان مؤرخنا يعجز عن حصرها ·

وقد شيدت الفسطاط والعسكر حول جامعين كرسا لعبادة الله ، أما القاهرة فقد التفت حول قصر ، هو مقر للخليفة · وبينما كان نمو كلا من العسكر والفسطاط اطراديا كغصن وضع فى منجم للملح فأخذت تكسوه تدريجيا بلورات لامعة فحولته فى النهاية الى جوهرة بديعة ، كانت القاهرة تحفة فنية شكلها صائغ ماهر فى أيام ثم وضعت كما لو كانت توضع فى صينية وسط السهل الذى « ينحصر بين النيل والمقطم » ·



كانت للمدينة شخصية ميزتها عن المدن العربية الأخرى التى تتقاطع شوارعها الضيقة الكثيرة مكونة شبكة متعرجة ، فلقد بنيت القاهرة وفق تخطيط هندسى سابق لانشائها جعل لشوارعها انتظاما معقولا وقد خطط منها جوهر بنفسه سبع شوارع · وقد اخترقها من الشمال الى الجنوب

شارع كبير حتى لايحجب انسام ريح الشمال المنعشة ، وقد اتبع بشكل ما اتجاه الطريق التاريخي الذي سلكه الغزاة الذين هاجموا مصر بين حين وآخر ٠ وقد حافظ شـــارع النحاسين الحـالى على خط هذا الشـــارع القديم تقريبا ٠

وكان هذا الشارع (بين القصرين أو قصبة القاهرة) يفصل بين قصرين كبيرين ٠ وفى تلك المنطقة يزداد اتساعه الى ١٥ متر مكونا ميدانا كبيرا مستطيل الشكل (رحبة بين القصرين) ٠ وتتعامد على هذا الشارع أزقة صغيرة تمتد من الشرق الى الغرب وتؤدى الى قنطرة الخليج والمقس ٠ وقد كان الشارع الرئيسى مخصصا للمواكب الهامة وترك للطرق الأخرى الوفاء بالحاجات المادية ٠ وعبر قصبة القاهرة كان السلطان يمر محاطا بالخصيان الذين يحملون فى أيديهم مجامرا يحترق فيها العنبر والصبر ٠ وكان البروتوكول يحتم على الناس ان يسجدوا على الأرض لحظـة مرور الخليفة داعين له الله بالخير ٠ أما فى الشوارع الجانبية فقد كانت تمر فيها عربات محملة بالأخشاب أو الأحجار أو الماء أو البضائع المفرغة فى ميناء المقس ٠

وقد شيدت المنازل بعناية فائقة حتى ليخال الى الرائى انهـا قد شيدت من أحجار كريمة لا من ملاط وقرميد وأحجار عادية وكانت منازلها منفصلة الواحدة عن الأخرى حتى ان الأشجار المزروعة فى واحدة منهـا لا تلامس أغصانها المنزل الآخر وكل منها مزودة بحديقة أجملها يحيط قصر الخليفة ٠

ومن كتاب ناصرى خسرو اقتبس الفقرة التالية التى تظهر مدى أهمية الحدائق فى مدينة القاهرة فى ذلك الوقت ٠ « **من أهم خصائص مصر ان من يريد ان يعمل حديقة يمكنه أن يحقق رغبته فى أى فصل من فصول السنة ٠ فمن اليسير هناك على المرء ان يزرع أو يحصل على نبات سواء كان أشجار للزينة أو أشجار فاكهة محملة بالثمار ٠ فهناك اناس يمارسون هذا النوع من التجارة وهم على استعداد دائم لتوريد أى صنف ولديهم أشجار مزروعة فى براميل خشبية موضوعة على أسطح منازلهم التى تشبه الحدائق ٠ وهى أشجار فى الغالب مغطاه بالفاكهة من البرتقال السكرى أو البلدى أو الرمان أو التفاح أو السفرجل ولديهم ايضا مشاتل للورود الرياحين والنباتات العطرية ٠ فاذا ما رغب انسان فى شىء منها أتى الحمالون لنقل الصناديق الخشبية التى زرعت فيها الاشجار ؛ وتربط الصناديق الى قوائم خشبية يحملها الحمـالون الذين ينقلونها الى المكان**

المطلوب • وبعد أن تفرغ الصناديق من محتوياتها تزرع الأشجار التى لم يلحق بها أدنى ضرر • ولم اشهد لهذا مثيلا فى أى بلد فى العالم ولم أسمع بهذا فى أى مكان آخر ولا بد أن أضيف انها عادة لطيفة جدا » •

وكانت السواقى ترفع الماء اللازم لتلك الحدائق • وعلى الاسطح زرعت الأشجار وبنيت جواسق •

أما الماء اللازم للمدينة فقد كان يجلبه السقاؤون من النيل • وروى ناصرى خسرو انه قد كان ينقل على ظهر ٥٢ ألف جمل خصصت لهذا الغرض • وبالطبع فقد بالغ كثيرا فى هذا الرقم وان كان على أية حال يدل على مدى ضخامة هذه المهمة فى العصور الوسطى •

(وزودت المدينة أيضا آبار حفرت بالقرب من النيل بالماء العذب لكن ماؤها كان يتحول الى ملحى كلما بعدت المسافة عن شاطىء النهر) •

كان السقاء يحمل الماء على ظهره فى اناء من الفخار المسامى وكان القادرون يدفعون ثمنا مقابل أكواب الماء أما الفقراء فكانوا يشربون مجانا أو مقابل قطعة من الخبز يضعهـا السـقا فى جراب معلق على جانبه • ولتشجيع هذا العمل النبيل سمح للسقائين بأخذ الماء بدون مقابل من الأسبلة (وهى خزانات ماء شيدها الأثرياء وحرصوا على تزويدها دائما بالماء العذب) فضلا عن انهم أعفو من دفع الضرائب • وفى الموالد كان الاتقياء يستأجرون السـائقين لتوزيع المـاء مجانا على الحجاج وعلى من يريد الشرب •

ولابد أن منازل القاهرة الغارقة فى الخضرة كانت تؤلف مجموعة بديعة منتقاه • وكان من الممكن للمدينة ـ لولا وجود العمارات العالية ـ أن يكون لها شكل مدن الحدائق المنتشرة فى أوربا الآن • والى الجنوب خارج الأسوار كانت توجد بركة الفيل التى سميت على اسم واحد من أتباع ابن طولون • وعلى مياهها كان الخليفة مولع بالتنزه فى قاربه ولا بد أن المشهد كان ساحرا حينما كانت الجواسق التى تحف بها تضاء وقد نظم فيها الشاعر ابن سعيد المغربى قصيدة يقول فيها :

انظـــر الى بركة الفيـــل التى اكتنفـــت
بهـــا المنـــاظر كالأهـــداب للبصر
كأنمـــا هى والأبصـــار ترمقهـــا
كواكب قـــد أداروهـــا عـــلى القمـــر

وقد بنى جوهر فى شمال القاهرة ديرا للأقباط مكان الدير الذى هدمه عندما شرع فى بناء القاهرة · ويقع بالقرب من جامع الأقمر وكان يعرف بدير العظام وكان به بئرا ما زال موجودا خلف الجامع الى وقتنا هذا ، وقد نقل جوهر رفات القديسين التى كانت محفوظة فى هذا الدير الى دير بنى حديثا هو دير الخندق ·

*

أحاط المدينة الجديدة سور من اللبن يعلوه طريق دائرى يتسع لمرور فارسين ومن الصعب تتبع آثار هذا السور على وجه دقيق فلم يكن منتظم البناء وكانت أضلاعه تقريبا موجهة الى الجهات الأصلية · وفى السور الذى كان يفصل المدينة عن القطائع والعسكر فتح بابين متقاربين هما « بابا زويلة » وكانا واقعين الى الشمال قليلا من الباب الحالى الذى يحمل نفس الاسم وهو اسم قبيلة من البربر أتت مع جوهر وعندما جاء المعز من القيروان سنة ٩٧٢ م دخل المدينة من البـاب الأيمن فتدافع الناس للدخول من الباب الأيسر ليلحقوا به ، وقد أدى هذا الى اشاعة أن الباب الثانى مشئوم ويفسده مشـاريع من يعبره ، بينما أخذ الاعتقاد يرسخ فى سعد طالع الباب الأول · وقد قيل أن مفصلات ضلفتى الباب اتخذت من الزجاج وكان باب زويلة مسرحا لتنفيذ أحكام الاعدام العلنى مما ساعد على تدعيم السمعة السيئة للباب الأيسر ، فضـلا عن وجـود سوق لآلات الموسيقى كالعود والرباب ··· الخ ، التى كرهها الدين ·

فصـار هذا المكان مقصـدا للمغنيين وللراقصين وهم قوم سيئو السمعة · واشتد تطاير الناس من هـذا الباب حتى انتهى الأمـر الى سده تماما ·

أما حائط المدينة الشمالى الموازى للحائط السابق فكان به بابان هما « باب الفتوح » و « باب النصر » ، وقد شيدهما معماريون من « الرها » (وكان يقعا الى الجنوب من البابين الحاليين اللذين يحملا نفس الاسم) · وفتح فى الحائط الغربى ثلاثة أبواب باب سعادة و « باب الفرج » و « باب القنطرة » ، وبالقرب منه كانت توجد قنطرة على الخليج تربط المدينة بضواحيها وبميناء المقس وأم دنين (الأزبكية الحالية) والمنطقة الواقعة شمالها وكان بالحائط الشرقى بابين باب البرقية و « باب المحروق » وأقام جوهر قنطرة على النيل تربط الجيزة بالضفة الشرقية · وحفر خندقا فى عام ٩٧١ الى الشمال من القاهرة قرب « منية الاصبع » عرضه عشرة أذرع ومثلها عمقه ، وكان يمتد من الصحراء الى الأرض الزراعية وقد حفر لحماية المدينة من غارات القرامطة المتواصلة ·

وقدرت المساحة المربعة التى أحاطها السور ب ١٤٠ هيكتارا • وكان طول كل جانب من جوانبها يتراوح ما بين ١١٠٠ و ١٢٠٠ مترا وهى أبعاد الفسطاط والعسكر لكن تخطيط القاهرة كان أعظم وأكثر تناسقا • وقد أحسن تخطيطها فأفرخ تحفة فنية قيض لها أن تعيش أطول مما بقت عمائر العباسيين وابن طولون المتعجلة •

لكن أهم أحداث تلك الفترة كان انشاء الجامع الأزهر الذى استغرق بناؤه سنتين وقد بدأ فيه العمل فى ٤ ابريل سنة ٩٧٢ م فى المنطقة المجاورة لقصر المعز • ويرجع الفضل فى انشاءه الى يعقوب بن كلس وكان فى الأصل يهوديا ثم اهتدى للاسلام • وقد كان يدعى هذا الجامع أحيانا جامع القاهرة وقد حرف الرحالة الأوربيون اسمه الى Giamalazer وترجموه « منزل لازار » وقد لعب جامع الأزهر فى المدينة الجديدة نفس الدور الذى لعبه جامع عمرو فى الفسطاط وجامع ابن طولون فى القطائع فكل منهم كان مركزا دينيا لمدينته • وفيهم كانت تؤدى صلاة الجمعة ويخطب فيهم الخليفة فى جموع المصلين • وفى عام ٩٩٠ م بنى الجامع الأنور (فيما بعد الحاكم) على الطرف الشمالى لمدينة القاهرة وقد تمتع هذا الجامع بنفس امتيازات الجامع الأزهر •

ويزين الجامع الأزهر — أشهر جوامع العالم الاسلامى — ٣٨٠ عمودا تضفى عليه سموقا نرى ارهاصاته فى جامع ابن طولون • وقد احتفظ صحنه بالشكل المربع الذى رآه عليه المعز عام ٩٧٣ م عندما دخله حاملا رفات أجداده ، وصلى فيه عليهم ، ثم اتجه الى قصره يسبقه موكبا من حرسه وأربع من أبنائه وفيلين • وعلى مر الزمان تغيرت هيئة الجامع حتى وصلت لما هى عليه الآن • لقد عمد الكثير من الملوك خاصة الفاطميون منهم الى توسيعه واثرائه بالهبات أو بالاضافات المعمارية • ونحن نجهل متى تمت تعلية سقفه المنخفض ، لكن يحتمل أن العزيز نزار (٩٧٦ — ٩٩٦) هو الذى أضاف الايوانين الجانبيين (الشمالى والجنوبى) اللذان ضما ثلاثة بوائك على كل جانب وأدخل الحاكم بأمر الله (٩٩٦ — ١٠٢٠ م) عليه تحسينات فى هذا العهد اتخذ الصحن الأوسط شكله النهائى كفناء تحيط به بوائك ذات عقود فارسية • وكان الأمر كذلك بالنسبة لبيت الصلاة الذى تألف من خمس بلاطات موازية لحائط القبلة • وقد بنى الجامع من القرميد وجصصت جدرانه التى تركت فى بعض المواضع عارية من الزخرفة وفى مواضع أخرى حفرت الزخارف على الجص • وتحمل عقود الجامع أعمدة رشيقة جلبت من عمائر أخرى •

لعب الأزهر دورا هاما فى السياسة والدعاية الفاطمية بسبب

نشاطه التعليمى . ولذا قاسى الأزهر أثناء حركة الردة الى المذهب السنى أثنـاء حكم الأسرة الأيوبيـة التى حكمت مصر ابتداء من عام ١١٧١ ـ ١١٧٢ م فتعرضت للاهمال مبانيه وانتزع صلاح الدين بعض زخارفه مثل الطوق الفضى الذى كان يزين محرابه ومنع فيه الخطبة واقتصرت صلاة الجمعة فى القاهرة على جامع الحاكم .

لكن الحال تغيرت تحت حكم المماليك ، فقد ساء الأمير ايدمر الحلى الذى كان يسكن بالقرب منه ما آل اليه الجامع فقرر اصلاحه على نفقته بمساعدة السلطان الظاهر بيبرس الذى سمح باعادة الخطبة اليه .

وبين عامى ١٣٠٢ ـ ١٣٠٣ م أصيب الجامع بأضرار نتيجة لزلزال وأصلحه الأمير سلار .

وفى القرن الرابع عشر الميلادى أصلح الجامع واستخدم الرخام بقدر ضئيل فى محراب ، لكن هذا الاصلاح لم يؤرخ على وجه التحديد . أما محاريب المدارس الثلاث التى أنشئت فى العصر المملوكى خارجة ثم الحقت به فقد جلدت بالرخام على نحو رائع .

وأولها مدرسة « الأمير طيرس » وبنيت بين عامى ١٣٠٩ ـ ١٣١٠م والثانية مدرسة « الأمير اقبغا عبد الواحد » بين عامى ١٣٣٩ ـ ١٣٤٠ م ، وتنهضا على يمين وشمال الداخل من الباب البحرى . أما المدرسة الرائعة الثالثة فقد شـيدها الحصن جوهر القنقبائى ودفن بهـا (١٤٤٠ ـ ١٤٤١ م) . ثم حدث أن مالت احدى المآذن على نحو خطير فهدمت وأعيد بناؤها ثلاث مرات (١٣٩٧ ـ ١٣٩٨/١٤١٤ ـ ١٤١٥/١٤٢٣ ـ ١٤٢٤م) وفى عام ١٤٢٣ ـ ١٤٢٤ م بنى صهريج فى وسط الصحن به ميضأة . وقد فشلت محاولة لزرع أربعة أشجار فيه . واهتم بعمارته السلطان قايتباى فأعاد تشييد الباب البحرى على نحو بديع وأضاف اليه مئذنة وأمر باصلاحه اصلاحا شاملا . ثم أقام السلطان الغورى مئذنة من طراز فريد فى عام ١٥١٠ م وازدادت مساحة الجامع مـرة أخـرى فى القرن السابع عشر وأصبح الجامعة الوحيدة للدراسات الدينية فى مصر .

ونفذ عبد الرحمن كتخدا أو كخيا (الذى مات فى ١٧٧٦ م ودفن فى جامع الأزهر) أعمال عدة فيه مثل بناء محراب واقامة منبر جديد وصهريج ومدرسة للأطفال .

ونفذ مرة أخرى الخديوى توفيق وعباس حلمى الثانى ترميمات هامة فهدمت مئذنة عبد الرحمن كتخدا وأقيم مكانها الرواق العباسى الذى افتتح فى عام ١٨٩٨ م .

وفى عام ١٩٣٠ م تفرعت منه ثلاث كليات للتعليم العالى اتخذت لها مقارا منفصلة فى القاهرة ، لكنها سرعان أن انتقلت الى مبان حديثة شيدت خلف الجامع الأزهر وصار الطلاب يجلسون على مقاعد وقماطر فى فصول ، وقد زودت أيضا تلك المنشآت بمعامل لاجراء التجارب العلمية . وبين عامى ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ م شيد مبنى الخدمات العامة فى ميدان الأزهر الى شمال الجامع أما فى الناحية القبلية للأزهر فقد أقيمت ثلاث مبان أخرى ذات أربع طوابق للتعليم الأزهرى الابتدائى والثانوى وللخدمات الصحية مزودة بمستشفى . وفى عام ١٩٥٠ وعلى الناحية القبلية أيضا افتتحت جامعة ذات أربعة آلاف غرفة ومئذنة عالية . وافتتحت أيضا كلية (الشريعة) . وبنيت كلية اللغة العربية فى عام ١٩٥١ م . وهدمت المنازل القديمة فى الجانب الشرقى لبناء كلية أصول الدين .

وتوجد مكتبة الأزهر التى تضم بين كتبها عشرين ألف مخطوط فى داخل المدرسة الاقبغاوية . وقد بنيت مدينة جامعية لايواء الطلبة الأجانب فى ميدان « الغفير » سابقا فى العباسية .

❋

وكما كانت الفسطاط مقسمة الى خطط ، قسمت القاهرة كذلك الى حارات . لكن تلك الأقسام لم تكن موزعة على القبائل العربية المختلفة بل على قبائل وأجناس أجنبية متباعدة . ولذا نسمع عن حارات الروم والكرد والبربر والترك ، « وحارة برجوان » و « حارة الأمرا » .

ولم يسمح الا للجند الموثوق تماما باخلاصهم بالاقامة داخل أسوار القاهرة أما الآخرين والعناصر المشاغبة فقد أقاموا خارج الأسوار . وكانوا كلهم أشبه بحرس امبراطورى وقد وطن جوهر عن عمد الروم بنى جلدته الأماكن المجاورة لأبواب المدينة ووزعت باقى فرق الجند فى مناطق مختلفة . فقد وطن الجنود الزنوج (عرفوا اختصارا بالعبيد) الذين اشتهروا بعدم الانضباط فى المنطقة الواقعة الى شمال باب الفتوح ، خارج أسوار المدينة بالقرب من الخندق الذى حفره جوهر لوقاية المدينة من أى هجمة تأتى من سوريا . ولذا عرفت تلك المنطقة « بخندق العبيد » . وقد أوت ضواحى القاهرة الجنود الجدد الذين وصلوا بعد تقسيم أراضى المدينة . واسم أحد الضواحى يكشف عن أن جوهر كان يتمتع بروح الدعابة ، جاءه بعض الجند المتأخرين وطالبوه بقطعة أرض . فأوضح لهم أن الأرض كلها قد وزعت فقالوا « رحنا نحن فى الباطل » أى كان مجيئنا

بلا فائدة . ولصق هذا الاسم « حى الباطلية » بالجزء الذى سكنوه بالقرب من « الباب المحروق » .

وتعكس المساحات الواسعة من الأرض الفضـــاء التى تركت بين المبانى رغبة جوهر الأساسية من بناء القاهرة . فقد تحتم أن يكون فى تلك المدينة عاصمة الخلافة ، أماكن واسعة يمكن فيها اشباع رغبة الخليفة فى الظهور بمواكب واقامة فيها احتفالات باهرة . فالى جوار « باب العيد » كانت توجد قطعة من الأرض مساحتها ٢٠ ألف متر مربع وأخرى عند قصر الشوك ومساحتها ٧ آلاف متر مربع ، أما ميدان الأزهر فقد كان يقدر بـ ٨ آلاف متر مربع .

وكمعطف فاخر يتدلى ذيله فى الوحل ، امتدت مدينة الخلفاء الرائعة الى الجنوب على جانبى الشارع الأعظم الذى كان يؤدى الى جامع ابن طولون مكونة أحياء مزدحمة شوارعها ضيقة يصعب الوصـــول اليها . وقد انقسمت المنطقة الى ثمانى حارات عسكرية أسـكنها الجنـد وأغلبهم من السودانيين الذين كونوا الى الشمال والشرق من بركة الفيل حيا من خمسين ألف نسمة .

*

وهذه المدينة (القاهرة) التى أمر بانشائها المعز وبناها جوهر ثم أكملها المعز وخلفائه تعرضت لتغيرات عدة فبعد أن تلاشى الخوف من ثورة أو غزو ، فقدت الأسوار معناها وبدأ طوفان من المنازل يغمرها رويدا رويدا حتى ان ناصرى خسروى الذى زار المدينة بعد خمسين عاما من تشييدها عجز عن أن يميز أســـوارها لكثرة المبانى التى تكتنفه على الجانبين . وقد ذكر المقريزى فى القرن الخامس عشر الميلادى أن آخر أثر لتلك الأسوار قد تلاشى تماما . ومن ناحية أخرى ضاقت المدينة بسكانها بمرور الوقت مما اضطرهم للزحف خارج أســـوارها . ولما كان الخلفاء زاهدين فى التضحية بقصورهم أو بميادينهم فقد اضطروا الى توسيع نطاق المدينة حتى يحفظوا لها وحدتها . فعندما بنى الحاكم بأمر الله ، الخليفة المعتوه ، جامعه خارج أسوار المدينة ، هدمت الأسوار وأعيد بنائها بحيث أدخل الجامع فى نطاق المدينة . وفيما بعد بعيد بدر الجمالى ، وزير الخليفة المستنصر ، بناء الأسوار مرة أخرى لتوسيع المدينة .

بيد أن الحائط الشمالى الشرقى للمدينة ، الذى كان يفصله عن الخليج منطقة بين السورين ، لم يتعرض لتغيير . لكن النبلاء والأغنياء شيدوا لهم هناك قصورا وفيلات ، أما الأرض الفضاء استغلها البسطاء

لاقامة احتفالاتهم وللنزهة · وبنى المعــز من جديد أرصفة بميناء المقس الواقع الى شمال الفسطاط والروضة · ولقد ظلت المقس الميناء الرئيسى ودار لصناعة السفن حتى غير النيل مجراه بعد ظهور بولاق · وبالقرب من باب البحر شيد الحاكم بأمر الله مسجدا · ومما سبق يتبين لنا سبب اجتذاب السكان الى تلك المنطقة · وبعد ان ظهر الخليج وصــار صالحا للاستعمال بين الفسطاط وعين شمس ازداد عمران المقس تدريجيا حتى أصبح جزءا من القاهرة ·

❋

كان قصر الخليفة مشيدا فى الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة · وعندما كان يرى من بعد ، كما يروى ناصرى خسرو فى عــام ١٠٤٦ م ، كان يبدو كالجبل نظرا لضـــخامته وارتفاع مبانيه · وقد بنى فى عام ٩٧٢ م على مكان « بستان كافور » و « دير العظيم » وقصر الشوك ، وعرف « بالقصر الكبير » · وكان يضم حجرات واسعة للخليفة وأسرته ومخازن للأثاث ومطابخ ومصالح حكومية ومخازن تعج بالغلال والسكر والزيت والصابون والشمع والمعادن · وفيما بعد أقام العزيز ابن المعز قصرا (القصر الصغير الغربى) على الجانب الآخـر « لقصبة القاهرة » وخصصه لابنته ست الملك وقد أكمله الخليفة المستنصر فى عام ١٠٥٨ وكان ظهر البناء يطل على الخليج · وعلى جانبى الواجهة الشرقية امتد جناحين للبناء مما جعل القصر يشبه فى مخططه حدوة الحصان التى يمتد فرعيها تجاه القصر الكبير · وبين القصرين امتد ميدان عظيم عرف بهذا الاسم « رحبة بين القصرين » وكانت قصبة القاهرة تخترقه ، وموقعه يمكن تحديده فى المنطقة المحصورة حاليا بين جامع الحسين وخان الخليلى ومارستان قلاوون ·

❋

كان مجىء « المعــز » الى القاهرة فى عام ٩٧٢ م · وبعد أن دخل الى قصره ، خر لله ساجدا وصلى متبوعا بأعوانه ، ثم أنزل أولاده وحريمه وخدمه بالقصر · وفى منتصف شهر رمضان الذى لم يكن بعيدا جلس المعــز على عرش من الذهب نصبه له جـوهر فى الايوان الجـديد · واستقبل الأشراف (أحفاد رســول الله صلى الله عليه وســلم) والولاة والنبلاء · وفى حضرته كان الكل وقوفا وقد انقسموا الى مجموعات صغيرة تقدمت الواحــدة منهم بعد الأخـرى الى الخليفة بينما قائد القواد جوهر يعرض عليه هداياها التى اشتملت على مائة وخمسين فرسا مطهمة بألجمة من ذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة أو بالعنبر الرمادى ، ثم دخل الخدم

حاملين واحد وثلاثين هودجا مفروشا ومطرزا بالقصب ثم قدم ثلاثة وثلاثين بغلا مسرجة ومائة وثلاثين بغلا مخصصة للحمل وتسعين جملا ثم أربع صناديق مشبكة تبدو منها أوانى ذهبية وفضية • ثم مائة سيف دمشقى من الذهب والفضة وصناديق مكفتة بالفضة مليئة بالأحجار الكريمة ، وأخيرا تسعمائة سلة مملوءة بكل ما أمكن تدبيره له من كنوز مصر •

*

وتدريجيا أخذت العمائر ترتفع حول القصرين الأساسيين فشيد العزيز « قصر الذهب » و « الديوان الكبير » و « قصر اللؤلؤ » وأضاف الخلفاء الآخرون والوزراء مبان أخرى كبيرة أو أصلحوا القائم منها حتى جعلوا منها فى النهاية عشرة قصور عرف كل منها باسم خاص مثل « قصر الغزال » و « قصر المظفر » الخ •• ، اشتمل كل واحد منهم على قاعات كثيرة بالاضافة الى حوض ماء لمقاومة اى حريق محتمل • وشهدت تلك المجموعة الرائعة المتناسقة من القصور على ولع هائل بالترف • وعلى جانبى القصر الغربى امتد الميدان وحديقة كافور •

وأخذت القصور الزاهرة ، كما كانت تعرف تلك المجموعة ، فى الاتساع حتى انها كانت تأوى فى القرن الحادى عشر اثنى عشر ألفا من الخدم معظمهم من السود أو الروم أما حريم القصر فقد ضم ثلاثين الفا من نساء وخصيان • ويروى المقريزى ان صلاح الدين قد وجد فى القصر عندما أخرج منه العاضد آخر خلفاء الفاطميين اثنى عشر ألف امرأة من الجوارى • أما من الرجال فلم يكن هناك سوى الخليفة وأقربائه وأولاده • وقد خلف لنا نفس هذا المؤرخ وصفا دقيقا للقصرين الرئيسين • كان بالقصر الكبير الشرقى تسع بوابات ، تعلو احداها منظرة يظهر الخليفة فى شرفاتها عند الاحتفال بمواسم معينة • أما أسماء الأبواب الأخرى فتذكرنا بقصص ألف ليلة وليلة « باب الزمرد » و « باب السلام » و « باب الفتوح » الخ •• وكان بالقرب من القصر بئر يدعى « بئر الصنم » تلقى فيه أجساد من يأمر الخليفة باعدامهم • وقد قيل ان به كنز مخبوء • وعندما صار صلاح الدين سلطانا على مصر بعد قرنين من الزمان ، أمر بحفر قاع البئر • لكن البئر كان مسكونا بالجن — كما يروى المقريزى — الذين قتلوا الكثير من العمال وفى النهاية أمر بردم البئر • وربطت القصور سراديب محفورة تحت سطح الأرض معدة لانتقال الخليفة من قصر لآخر • ويقول المقريزى ان الخليفة كان يمتطى البغال أو الحمير التى كانت الجوارى تقودهم فى تنقلاتهم عبر تلك السراديب •

وفضلا عن هذا كان القصر يضم « الاسطبل الدائرى » ، وقد كان

مخصصا أساسا للخيل التى يمتطيها الخليفة ، وجامع الأزهر الذى كان يؤدى فيه الخليفة صلاة الجمعة بنفسه ، و « ميدان العيد » حيث كانت تتجمع فرق الجيش أيام الأعياد الكبرى كعيد الفطر أو الأضحية ، وهناك يداعب الهواء ريش عمائمهـا ويخطف بريق جواهرها الابصار وتختال خيولها على وقع خطواتها . وهناك أيضا كان من الممكن رؤية باب تربة الزعفران » . وهى مقصورة جترية خصصت للخليفة وزوجاته وأطفاله ، والسبع أبواب الخلفية « للقصر التى كان الخليفة يخرج منها قاصدا الجامع الأزهر فى ليلتى الوقود . وعلى مقربة من هذا المكان كان يقع بيت العلم » و « خزانة السلاح » .

وعلى الجانب الآخر لميدان العيد شيد « بيت الضيافة » و « خان الوزراء » و « اصطبل الجمال » .

وأمام « باب الزهور » (روائح الطعام) بنيت المطابخ التى كانت تمد مائدة الخليفة بالطعام . أما حلوى الخليفة فكانت تصـنع فى دار الفطرة (دار الحلوى) ، واختصت بالتوابل دار خاصة (دار التوابل) . وعند الانتهاء من اعداد الطعام للخليفة وحريمه والعـاملين بقصره كان يرسل عبر باب الزهومة ومن هذا اشتق الباب اسمه . وقد ذكر ناصرى خسرو أن الباب كان يؤدى الى ممر سفلى يربط بين القصر والمطابخ (وهو أمر ليس ببعيد اذا آن من الصعب تخيل أن طعام الخليفة ينقل فى الهواء الطلق معرضـا للتراب) . وكان بالقصر ممرات سـفلى أخرى تقود الى الخارج وكما نعلم فقد عبرها جثث ثلاثة من الخلفاء . ويروى ناصرى خسرو عن مطابخ القصر انه كان من المعتاد أن يرسل للخليفة أربعة عشر حمل جمل من الثلج فى كل يوم . « وكان معظم الموظفون الكبار والنبلاء يتسلمون أنصبة معينة من الطعام وكذا كل من يطلب من أهل المدينة من أجل مريض وكان القصر يفرق على كل راغب مشروبات ومراهم مثل زيت البلسم . ولم يكن يرد سائلا أبدا .

❋

كان ثراء تلك القصور خرافيـا ، ففى قصر الذهب كانت توجـد قاعتين « قاعة الذهب » و « قاعة الفضة » . الأولى كانت قاعة العرش ، والثانية قاعة المقابلات . وقد كسيت الجدران بالذهب أما العرش فقـد طعم بالأحجار الكريمة ووضع على منصة مذهبة ، وأحاطت به اجمات من نخيل من ذهب مثقل بفواكه وازهار من الأحجار الكريمة وبه طيور من ذهب ومزخرفة بمينا متنوعة الألوان يسمع لها تغريد .

وقد ترك لنا ناصرى خسرو وصفا للقصر « عندما دخلت من باب القصر رأيت حشدا من العمائر وانقاعات لو وصفته لتضخم كتـــابى . كان هناك اثنى عشر جوسقا مربع الشكل متصلة ببعضها مساحة الواحد منها مائة ارش (أربعين مترا) مربعا عدا واحدا منهـا كانت مساحته فقط ٦٠ أرش مربعا . (٢٤ مترا) . وفى هذا الأخير وضع عرشا يمتد بعرض الجوسق وطوله ٤ قيز (القيز يسـاوى ٢٤ شـبرا) وارتفاعه مثله ، وثلاث من أوجهه كسيت بالذهب وعليها مثلث منـاظر صـيد وفرسان يرمحون بجيادهم ومواضيع أخرى . وعليـه نقشت كتـابات بديعة وقد فرشت تلك القاعة بستان رومى وبوكالمون (وهو قماش يتغير لونه حسب انعكاسات الضوء) وبأنسجة صنعت بمقاييس تتـواءم مع المكان الذى ستوضع فيه . وأحاط العرش سياج مشعر من الذهب يعجز البيان عن وصفه وكانت هناك درجات من الفضة خلف العرش ملاصقة للحائط . واذا أراد المرء أن يوفى هذا العرش الرائع حقـه من الوصف فلن يكفيه كتاب واحد . وقد قيل لى أن راتب مائدة الخليفة من السكر كان خمسين ألف مين (المين يساوى ٥٣٦٤ر١ كجم) وقد رأيت هناك شجرة تحاكى شجر البرتقال فاكهتها وأوراقها من السكر وكانت المائدة تزين بألف تمثال صغير من السكر ايضا » .

ولدينـا رواية لجويـوم دوتير (طرابلس) Guillaume de Tyr عن بعثة أرسلها أمورى الأول ملك القدس للخليفة العاضـد تعطى لنا فكرة عن الانطباع الذى تركه القصر الكبير على الأوربيين وهى تفضـــل روايات المؤرخين العرب التى كثيرا ما تكون مبالغة .

« وفى عـام ١١٦٧ حمـــل الى مصر الفرنســيان أى دوجزير Hues de Gesaire وجوفروافوشـــيه «Jeufrois Fouchier رسالة من أمورى الأول الى الخليفة العاضــد وفى القـــاهرة اصطحبهم الى قصر يسميه العرب فى لغتهم « قصرا » وهو بناء فاخر شـديد الثراء . واستقبلهم هناك حراس شاهرى السيوف وقادوهم عبر سراديب مظلمة وعبر ثلاثة أبواب يحرس كل منها سودانى ، ثم وصلوا الى فناء واسـع مفروش برخام متعدد الألوان مزين بألوان ذهبية فنية . وكان به نوافير بأنابيب من ذهب وفضـه . وبكل مكان كان المرء يرى مجموعات كبيرة من الطيور النادرة . وأســلم الحرس الرســولين الى آخرين الذين اصطحبوهم الى فناء آخر فى مبنى آخـر كان مثل المبنى الســابق فى

فخامته وثرائه الذى لم يروا له مثيلا من قبل • ورأو هنـاك حيوانات من أنواع متعددة ومختلفة الى حد لا يصدق •

وبعد أن عبروا من جديد عددا من الأبواب والمنعطفات دخلوا أخيرا القصر الكبير حيث استقبلهم عدد من الجنـود جيدى التسليح ويبرقون بالذهب والفضة • ثم أدخلوا الى حجرة بهـا ستار ضخم ممتد من حائط الى حائط وقد زخرف تماما بالحرير متعدد الألوان وبخيوط الذهب وقد مثلت عليه صور بشرية عدة وهيئات طيور وحيوانات ، تتألق تماما بأحجار الزمرد والياقوت والأحجار الكريمة من كل نوع وسجد الوزراء على الأرض ثلاثة مرات ثم فتح الستار ، فظهر الخليفة جالسـا على مقعد من الذهب والأحجار الكريمـة ويحيط به خاصة مستشاريه وقد كساهم الوقار • وتقدم أحد الوزراء من الخليفة وقبل قدميه ثم جلس على الأرض قرب العرش •

وكاد تعالى الخليفة ان يؤدى الى أزمة دبلوماسية أثناء الحديث الذى دار بينه وبين السفيرين ، فقد طلب منه أى Hues أن يتصافحا كعلامة على موافقته على المقترحات التى قدمهـا المبعوثان • تردد الخليفة لحظة لاعتقاده أن هذا العمل لا يتفق مع مكانته • وأخيرا مد يده ، لكنه كان يرتدى قفازا ، وأصر الأفرنجى على أن تكون يده عارية كالحقيقة فخلع على مضض قفازه حتى يقسم ويده فى يد أى Hues على أن يرعى المعاهدة بأمانة •

*

عرف الباب الرئيسى للقصر الكبير « بباب الذهب » ، كما لو كان بابا يؤدى الى مملكة ساحرة ، وقد نسجت حوله أسطورة ، عندما عاد المعز من المغرب قاصـدا مصرا ، جمع كنوزه وصهرهم وصبهم فى هيئة أحجار طواحين ثم حملهـا على مائة جمل وفى قول آخـر مائة وخمسين لينقلها الى مصر • وتمر الشهور وهذا الثعبان المبرقش بالذهب يتلوى زاحفا عبر الصحراء • وعندما وصل مصر وضع السبائك الذهبية بجوار باب قصره الجديد • وعندما رأى الناس تلك الأكوام الذهبيـة دعوها « الحشرات » وهو اسم يعكس اعجابهم الساذج بتلك الكنوز ولعل تلك التسـمية قد أتت من لمعة ذلك المعدن الثمين التى أوحت اليهـم بمنظر حشرات صغيرة تلمع أجنحتها تحت الأشعة كالذهب • وقد وضعت السبائك فوق بعضها البعض حتى كونت عوارض الباب الذى سمى باب الذهب •

وبعد سبعين عام ، أى فى عام ١٠٥٤ م ، تسبب فيضان شحيح للنيل فى حدوث مجاعة • فارتفع سعر القمح الى ثمانى دنانير تقريبا للاردب الصغير مما أدى الى ندرة متزايدة فى الخبز • فأشفق الخليفة العزيز بالله على الفقراء أن يموتوا جوعا ، فصرح لهم بأن ينتزعوا بأزاميلهم شقفا من المعدن الثمين الذى ألف عارضى باب القصر وكما يتوقع فقد اختفى الجزء الأكبر من العارضين فى لمح البصر • فاضطر السلطان لنقل الباقى الى داخل القصر • ولا يعلم أحد مصير هذا الجزء الباقى من الذهب •

*

ولن نعرف أبدا حقيقة هذه القصة لأن المؤرخون العرب اعتادوا أن ينقلوا من بعضهم البعض •

وقد أتيحت الفرصة لناصرى خسرو أكثر من مرة لرؤية « باب الذهب » ولدخول القصر نفسه ، لكنه لم يتحدث مطلقا عن أحجار طواحين المعز الذهبية • ولو كانت قد كونت جزءا من باب القصر ، لما فاته أن يذكر هذا •

كان يقوم على حراسة باب الذهب مائة من الفرسان فى كل ليلة وعندما كان مؤذن القصر يرفع صوته بأذان العشاء أمام أهل القصر الموجودين فى تلك اللحظة ، يسرع أحد الأمراء الى «باب الذهب» وبمجرد الانتهاء من الصلاة يعطى أمرا بنفخ البوق ثم تقرع الطبول وتستمر الموسيقى لمدة ساعة • وعندئذ يخرج ضابط مكلف من القصر وينادى أمير المؤمنين يسلم على الأمير فلان ، فيتناول هذا رمحا ويغرسه بحركة قوية فى الأرض على عتبة الباب ثم ينتزعه ، ثم يغلق الباب ويدور بالقصر سبع مرات • وعندئذ تنتهى نوبة الحراسة ، فيضع حراسا لليل ، ويذهب الآخرون الى مخادعهم المشيدة على مقربة من هذا المكان ، ثم تمد سلسلة بعرض ميدان باب القصرين تغلقه فى وجه المارة ، حتى يعلن صوت النفير وقرع الطبول من جديد عن مجىء يوم آخر ، وعندئذ ترفع السلسلة وتعود حركة المرور •

وقد « استخدم باب الذهب » أجمل أبواب القصر التسع لمرور الأمراء والعلماء وكبار رجال الأسرة وجموع الحرس الى داخل القصر أيام الجمع والأربعاء من كل أسبوع لحضور مجلس الخليفة فى قاعة العرش • وكانت تلك مشيدة فى الايوان الكبير داخل القصر حتى عصر الحاكم بأمر الله (٩٩٦ ــ ١٠٢٠) • وبدءا من هذا العصر نقلت الى قصر الذهب

وهو واحد من عشرة قصور كانت تمتد بين « باب الذهب » و « باب النهر » واستمر القصر الكبير الذى شيده المعز وأتمه ابنه العزيز وخلفاؤه ثلاثة قرون قبل أن يؤول تدريجيا الى الخراب ·

ومحاولة حصر الثروات التى ضمتها يوما تلك القصور أمر لا يثير خيال المرء فحسب بل يملأ النفس بدهشة شديدة · فما الذى يمكن للمرء أن يصنعه باثنى عشر ألفا رداءا (كما قيل) من مختلف الألوان وبمئات الصناديق المملوءة بكافور القصير ورشيد · ولقد تركت ابنة المعز رشيدة التى ماتت فى عام ١٠٥٠م ؟ ثروة قدرت باثنين مليون وسبعمائة ألف دينار · وقدر وزن الأختام التى وضعتها أختها عبدان على حجراتها وصناديقها وصواوينها بأربعين رطل · وقد أحصى منها بين كثير ثلاثمائة وألف نصيصا من الفضة المزينة بالمينا ومزخرف بنقوش بارزة وأربعمائة سيف مغشى بالذهب وثلاثين ألف شقة قماش صقلى ·

*

تعددت الأعياد التى أضفت البهجة على حياة أهل القاهرة فى العصور الوسطى · وكان كل منها فرصة لاستعراض الثراء الخرافى · ففى يوم عرفات على سبيل المثال كان المعز يجهز شمسية (كسوة) للكعبة المشرفة فى مكة المكرمة · وكانت الشمسية مربعة طول كل جانب منها اثنا عشر شبرا (الشبر يساوى ٢٢٫٥ سم) وكانت تزينها خمسون لؤلؤة كل منها بحجم بيضة الحمامة ، وكانت الكتابات القرآنية عليها من اللؤلؤ أيضا وقد شكلت بالزمرد · وقد قيل انها حوت ثلاثين ألف مثقالا من الذهب وعشرين ألف درهم من الفضة وستمائة وثلاثة آلاف جوهرة متنوعة الألوان وفى أول أيام عيد الفطر كان الخليفة يخرج على صهوة جواده الى مصلى فى الهواء الطلق متبوعا بموكب · وبعد انتهاء الصلاة يعود الى قصره ويتوقف عند باب القاعة حتى يخلع عنه الوزير ثوب العيد ويلبسه ثوبا آخر · وفى هذا الوقت يكون قد تم نصب العرش فى قاعة المائدة · وتوضع أمامه مائدة من الفضة وعليها أوانى من نفس المعدن وأخرى من الذهب أو الصينى مملوءة بأطعمة مختلفة · وكانت تمتد بطول القاعة مائدة ضخمة من خشب مصقول أشبه بمنصة منخفضة تغطيها الأزهار وبطولها امتد صفان من أرغفة الخبز الدائرى الأبيض بين كل منها ثلاثة أرطال صنعت من خميرة شديدة النقاء · أما القسم الأوسط من المائدة فقد امتدت على طوله واحد وعشرون طبقا مستديرا ومستطيلا حوت خرافا محمرة ساخنة محاطة بدجاجات وطيور أخرى وعلى جانبى تلك الأكوام من الأطعمة امتد حائطان من المربى المجففة

قطعت الى شرائح عريضة تلتمع بألوان عديدة · وبين الأطباق وضـــع خمسمائة طبق صغير من الفاينس بكل منهـا سـبع دجاجات محشوة بالخلطة فضلا عن اللحم المفروم جيد الاعداد · وعند الفراغ من تنـاول الطعام ، يأتى بالحلوى ، وكانت فى هيئة قصرين كل منهما يزن سبعة عشر قنطارا محمولة على محفات وكانت مغطـاة بأوراق الذهب ومزينة بنقوش بارزة ·

وبمجرد أن يجلس الخليفة على العرش كان الوزير يتخذ مجلســه على يمينه ، وعلى جانبيهما يقف أربعة من السياس وأربعة من الخـــدم الخصوصيون · وعندئذ يجلس الأمراء وعلية القوم الى المائدة دونما أى ترتيب مسبق ثم تبدأ المأدبة ·

ولاضـفاء لمســة من المرح على تلك المآدب كان يدعى اليهـا عادة ضابطان يدعيا كما يذكر المقريزى ، ابن الفايز والآخر الديلمى · وكان الواحد منهما قادرا على التهام خروف محمر وعشر دجاجات محشوة بمفرده فضلا عن رغيف من الحلوى يزن عشرة أرطال · وكان أحدهما قد سجن فى عسقلان فى احدى الحملات الحربية على تلك المدينة · وكان الموظف الذى سجنه يمتلك عجلا سمينا يزن بضعة قناطير · وقد قال لسجينه ضاحكا « ان أكلت هذا العجل اعتقت » فقبـل هـذا الرهان · وحمر الخروف ونجح السجين فى تناوله · فأطلق سراح الرجل وفاءا لعهده · وفى كل عام كان الخليفة يدعو السجين السابق الى مائدته فى القاهرة ·

*

ومن بين تلك الأعياد عيد « قطع الخليج » · وفى هذا اليوم تكون فرق جيش الخليفة كلها على أتم استعداد وتتوزع فى فرق وفصـــائل منفصلة · ويمكن للمرء أن يميز بينهم عشرين ألفا من فرسان القطامية الذين كانوا قد أتوا مع المعز ، والباطلية وهم قوم من المغرب كانوا قد أتوا الى مصر قبل أن يغزوها المعز ، « والمصمودية » وهم من الســود جميعا ، أما الترك والفرس فكانوا يسمون بالمشارقة وهم حسنو الهيئة، وحولهم يصطف عبيد الشراء (أى المشترون) ، وبدو الحجاز وعدتهم خمسون ألف رجل كلهم مسلحون بالرماح ثم يأتى السبرايا (أو خـدم القصر) ثم المشاة وقد أتوا من مختلف البلاد ويخضعون لرئيس يتولى رعايتهم واعاشتهم وكل منهم يقاتل بالسلاح الذى اعتاد عليه فى بلاده ثم يأتى العبيد السود أو البيض ، ثم الزنوج وعددهم ثلاثون ألفا مسلحون بالسيوف · وكانت هنـاك فرقة خاصة مستقلة عن الجيش تتألف من

أبناء الملوك والحكام الأجانب الذين أرسلوا الى مصر · ويلمح المرء منهم أمراء من اليمن أو من بلاد الروم أو السلاف أو النوبيين أو الاثيوبيين أو أبناء أمراء جورجيا وخاقانات التركستان · وكانت نفقة تلك الفرقة عظيمة بينما انحصرت واجبات أفرادها في المثول في حضرة الوزير من وقت لآخر ، وكذلك في المناسبات التي يقدم فيها الولاء الى الخليفة ووزرائه ·

*

تولى عرش البلاد الخليفة العزيز في سنة ٩٧٥ م وكان في سن الحادية والعشرين وقد وصف بالشجاعة وفراعة الطول والوسامة (وبالرغم من زرقة عينيه وحمرة شعره وهي صفات كانت لا تروق لعربي) كان صائدا ماهرا ومحاربا صنديدا · وهو أكثر شخصيات الخلفاء الفاطميين اثارة للحب · فقد كان ميالا للتسامح كارها لسفك الدماء فقد أتاه يوما وزيره ابن كلس يشكو اليه أبياتا تسخر منهما الاثنين فقال العزيز « **نحن شريكين في الاهانة ، فقاسمني الصفح** » (١) وكثيرا ما عبر عن رغبته المتقدة في اسعاد رعاياه لكن عيبه الوحيد كان ايمانه في قدرته على التنبؤ بالمستقبل · ولولعه بالترف فقد شيد عدة عمائر زادت في جمال القاهرة · وينسب اليه « قصر الذهب » و « قصر اللؤلؤ » السالف ذكرهما واللذان قد اعتبرا لثراء رياشهما ووفرة استخدام الذهب في زخرفتهما وجمال موقعهما ، أبدع قصور المدينة · ومن أعلى القصر كان البصر يمتد شرقا حتى حديقة كافور · أما في المغرب فقد شيد حول الخليج في وسط المزارع والحدائق عمائر بديعة كونت حيا الطبالة واللوق · أما في الجنوب فكان النيل يتلألأ · وقد شيد لأمه مسجدا في القرافة · وفي عام ٩٩١ م بدأ في بناء الجامع الذى أتمه الحاكم بأمر الله ابنه وحمل اسمه بالاضافة الى حفر العديد من القنوات وبناء الكثير من القناطر والجسور وأرصفة الموانى وحديقة Sordus ثم قصرا في عين شمس ·

وفي عهده تمتعت القاهرة بدرجة من الثراء يصعب تصديقه · فقد كانت العمائم تشكل من أقمشة ثقيلة متعددة الألوان ومطرزة بالذهب تدعى « دابق » نسبة للمدينة التي كانت تصنعها · وبعضا منها كان يصل طولها الى مائة ذراع · وفي هذا العصر أيضا شاع استخدام السروج المذهبة المطعمة بالأحجار الكريمة والمعطرة بالعنبر وكانت الأسلحة أيضا تكسى برقائق الذهب ·

---

(١) ترجمة للنص الفرنسي ·

وامتدت هالة الثراء التى أحاطت بقمة الهرمالاجتماعى الى قاعدته أيضا • فلأول مرة تعرض فى الأسواق أسماك طازجة من البحر أرسلت إلى القاهرة حية • وأغرقت الأســواق بنبــات الكمــأة Truffe الذى كان يجلب من المقطم حتى صــار يبــاع بدرهم لثمانية أرطال • وربيت سلالة من الخيل فى القاهرة سوداء ذات ارجل بيضاء كانت غير معروفة من قبل فى المدينة • ولأول مرة فى هذا العصر استقدمت الى مصر اناث أفيال • وكن النوبيون حتى هذا العصر يمنعون تصديرها الى مصر حتى لا تتكاثر وتستخدم كســلاح فى معركة مستقبلة ضدهم وضد أى بلد مجاور • وشهد ذلك العصر محاولة لاستجلاب وحيد القرن الى القاهرة • لكنه مات فى الطريق وكان على أهل القاهرة الاكتفاء بمشــاهدة جلده محشوا فقط •

*

فور وفاة العزيز فى عــام ٩٩٦ م أخذ « برجوان » مؤدب ابنــه « الحاكم » يبحث عن تلميذه ، فوجده مختبأ فى شــجرة تين ، فألبسه برجوان عمامة مزينة بجواهر وعرضه على الناس الذين أخذوا فى الركوع أمام الامام الجديد • وفى اليوم التالى سار الامام الفتى البالغ من العمر أحد عشر عاما خلف الجمل الذى كان يحمل جثمان أبيه ، وكان يحمل فى يده رمحا وسيفا معلقا فى جرابه •

أثرت نزوات الحاكم الشخصية التى شابت تصرفاته منذ حداثته على حكمه الذى دام ٢٥ عاما • وقد أدت الصــعاب التى واجههــا بعد سنوات قليلة من ولايته عندما قتل مؤدبه « برجوان » الذى كان قد اتخذه وزيرا ، الى تشويش عقل الخليفة الشاب تماما وصار عهده سلسلة طويلة من الفظائع والمراسيم الشاذة والقرارات المثيرة للحنق التى فرضها على رعاياه • وقد أثار شذوذه وغرابة أطواره حيرتهم فلم يكن المرء قادرا على أن يعرف ما يخبىء له الغد • فتارة حرم الملوخية ولعب الشطرنج وتارة أخرى منع النساء من التردد على الحمامات العامة • ثم أمر باعدام الكلاب فى القاهرة • وقد أثرت طبيعته الشرقية الحادة على مزاجه النهم الى الملذات وأضيفت الى تلك شخصية لمسة من أهواء أهل الغرب • لقد وصفه بعض المؤرخون بالجنون ، لكن شــخصيته كانت أقرب الى الحساسية وعــدم الاتزان • كان شخصية حســاسة أمكنها أن تنفذ نزواتها ، لكنها شخصية فنــانة بالتأكيد مثلهــا مثل نيرون الذى شابهه فى أكثر من شىء • لقد أشعل النار فى أركان القاهرة الاربع ليستمتع

بمنظر ألسنة اللهب من نافذة مندرة قصره وهى تمتد فى طريقها الى النيل ، وليتمكن من اعادة بناء المدينة على هواه • كان وجهه بعيناه الزرقاوتين الرهيبتين وصوته الجهورى يبعثا احساسا بالنفور فى النفس • وقد طابقت شخصيته المراوغة الماكرة النعت الذى وصفه به مؤدبه برجوان « السحلية » • فلقد كان يفضل الظلام على النور ، لذا كان يعقد مجلسه فى الليل • وفى الليل كان يطوف بالمدينة على حماره وقد أخفته الظلمات • وكان يتجسس على رعيته بحجة تفقد الموازين والمكاييل• ولارضاء نزوته فقد تحتم على المتاجر أن تفتح أبوابها طوال الليل وتغلقها فى النهار •

امتزج فى شخصه الذكاء والجنون والوحشية والتقوى • وقد خلف مجموعة من العمائر التى ساهمت فى نمو القاهرة ومن أشهرها جامع الحاكم الذى عاش الى يومنا هذا ليذكرنا بهذا الخليفة الشاذ • وقد بدء فى بنائه فى عام ٩٩٠م وفرغ من بنائه ١٠٠٣م • لكنه افتتح للصلاة فى عام ٩٩١م وفى تلك المناسبة ذهب اليه الحاكم (وكان حينئذ طفلا) فى موكب كبير بصحبة أبيه ، تحميه من وهج الشمس مظلة ، بينما سار أبوه دون ان يحجب عنه الشمس شىء • وقد تولى الحاكم مهمة اتمام الجامع • وعلى نسق جامع ابن طولون بنى من القرميد عدا المئذنة التى بنيت من الحجر مثل مئذنة ابن طولون • وفى كلاهما يحيط بالصحن أربعة أولوين • ولقد قاسى الجامع مقاساة شديدة من زلزال فى عام ١٣٠٢ لكنه رمم فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون •

وهو الآن الجامع الخرب (١) الذى يلاصق سور القاهرة الفاطمى بالقرب من باب الفتوح •

*

وبعد ان بلغ الحلم شيد الحاكم جامع رشيدة حيث كان كثيرا ما يؤدى فيه صلاة الجمعة • واشترى من احفاد عمرو الجامع الذى يحمل اسم الفاتح العظيم (جامع عمرو) فقد آل هؤلاء الى الفقر ومن ثم طلبوا من الحاكم ان يسمح لهم بهدم الجامع ليبيعوا أنقاضه فاعطاهم الخليفة مائة ألف دينار وأصلح الجامع على نفقته الخاصة • ووضع فيه ثريا من الفضة تزن خمسة وعشرين قنطارا ولكبر حجمها فقد اضطرا الى هدم

---

(١) اعيد ترميمه ترميما شاملا فى السنوات الأخيرة على نفقة سلطان البهرة ، وهم طائفة من الشيعة تعتقد انها انحدرت من الفاطميين •

أحد أبواب الجـامع لادخالها • وبأمر الخليفة اضيء بيت الصلاة بمئة مصباح فى كل ليلة كانت ترتفع فى أيام الأعياد الى سبعمائة •

وبنى فى المقس مسجدا آخرا (وهو مكان يتدبر فيه المرء الأخرة) وأقام منظرة تشرف على ما حولها (وهو مكان للمسرات الدنيـاوية) • لكن أهم أعماله كان بناء « دار العلم » فى عام ١٠٠٥ م وكان الهدف الأول من انشائها نشر العقيدة الشيعية وان عنى أيضا بتدريس علوم أخرى عدة • كالنحو والشعر والشريعة والطب وكتابة الموسوعات • وقد احتل هذا المعهد بناءا فاخرا مزودا بمكتبة عظيمة نقلت اليها كتب من مكتبة القصر • وسمح بالاطلاع فيها لكل راغب فى قراءتها أو الرجوع اليها • وكانت رو`تب المعلمين تدفع من مال الحاكم • وكان المعهد متكفلا بتوفير الحبر والوق والأقلام التى قد يحتاجهـا المرء • وبعد سبع سنوات من تأسيس هذا المعهد دعى الحاكم طوائف علمائه كل طائفة على حدة اليه حيث خلع عليها أثوابا شرفية •

*

وعلى النقيض من نشـاطه المعمارى ، تسبب فى خـراب كثير من المنشآت • فقد هدم الكثير من الكنائس بالقرب من شارع رشيد ونهب كنيسة المقس • وذات يوم رأى دمية فى الشارع البست ثوبا ، فظنها للوهلة الأولى امرأة حقيقية عصت أمره الذى منع خروج النساء من منازلهم وكان بيد الدمية رقعة من ورق تسخر من الخليفة • فجن جنونه وأرسل جنوده من السود ليحرقوا الفسطاط فحمل الناس أسلحتهم وخرجـوا للدفاع عنبيوتهم • وعلى الرغم من مقاومتهم المستميتة فقد ذبح الرجـال واغتصبت النساء ومحى نصف المدينة تماما •

وفى عام ١٠١١ م أمر بهدم « قصر اللؤلؤة » القائم بالقرب من مقياس النيل ، ومنه كان المرء يرى منظرا جميلا للنيل وحديقة كافور • وترك للناهبين محتويات القصر بأكملها فباعها هؤلاء ، وبعد أيام قلائل قبض على كل من كان فى حوزته شيء منها وأودع السجن •

ومن بين منشآت الحاكم ، الذى كان مولعا بعلم الفلك ومنه ادعى استقاء أحكام شـاذة وأحيانا قاسية طبقها على رعاياه ، مرصد شيد على جبل المقطم ولم يتم بناؤه كما شيد أيضا فى المقطم بيتا صغيرا خصصه لدراسة النجوم •

ولا بد ان صورة الحياة فى القاهرة كانت شـديدة الغرابة تحت حكم الحاكم بأمر الله فخلال سبع سنوات لم يكن يسمح لامرأة بالخروج الى

الطريق وكانت مشترواتهن تبعا لهذا تتم عن طريق النافــذة · وفرض الحاكم على كل طوائف المسيحيين بدون استثناء رداءا خاصا فكان المسيحى يرى فى كل مكان مرتديا ثوبا ذو عراوى صفراء معقود بزنار (حزام) ويتدلى من عنقه صليبا خشبيا يزن خمسة ارطال وتحتم على المسيحيين ارتداء عمامات زرقاء وعلى اليهود ارتداء أخرى صفراء · وحتى الحيوانات لم تسلم من مزاجه الشــاذ فقد حرم استخدام السروج المطرزة بالذهب والفضة التى شاعت فيما قبل واستبدلت بسروج من الجلد الأسود ·

وأمر الحاكم بالقاء مخلفات القاهرة خلف أسوارها حتى يحميها من السيول التى تنهمر من جبل المقطم وبذا تكونت التلال المعروفة (بالبرقية) وظل هذا الجانب خاويا من العمائر حتى سقوط الأسرة الفاطمية ·

لمدة ستين عاما (١٠٣٦ ــ ١٠٩٦) حكم مصر « معد » حفيد الحاكم بأمر الله ، وهو ابن ابنه الظــاهر من جارية سـودانية ، تحت اسم المستنصر بالله · وبذا يكون عهده أطول عهود ملوك المسلمين · وقد رآه ناصرى خسرو فى احتفال « قطع الخليج » ووصفه بانه شاب صغير حسن الوجه ، حليق اللحية · وكان احد ضباطه يظلل رأسه من الشمس بمظلة مرصعة باللؤلؤ والاحجار الكريمة · وكانت ملابس الخليفة البسيطــة لا تتوأم مع فخامة موكبه فقد اكتفى بارتداء قفطانا أبيضا وعمامة · بيد أن هذه الملابس البسيطة لا يجب أن تخدعنا عن حقيقة أمره · فلقد كان مولعا بالملذات الحسية ولعا يبعده عن شخصية المسلم الورع · وقد أقام فى قصره فى عين شمس خيمة أمام حوض ملأه بالخمر · واعتاد ان يقيم فيها حفلات يشترك فيها موسيقيون وراقصات · وبذا أراد ان يسخر من الكعبة المشرفة وبئر زمزم · وقد كان من رأيه انه من الأفضــل للمرء ان يقضى هناك وقته على أن يذهب لزيارة حجر أسود حيث يسمع أصوات مؤذنين قبيحة تدعو الى الصلاة ويشرب ماء غير مستساغ (كذا) ·

وتميزت شخصيته بالضعف والتردد وسيطر عليهــا الطــامعون والمتآمرون ، فلا عجب أن توالى على منصب الوزارة آكثر من ثلاثين وزيرا حتى عام ١٠٦٠ م حينما قلدها الى نصر الدولة وكان انســانا مستبدا اعتمد فى الاحتفاظ بمنصــبه على الوقعية بين فرق الترك والسود التى الفت حرس الخليفة · فبعد ان صار قائدا للفرقة التركية ، مزق أوصال فرقة السود وسيطر على الخليفة وترك الترك ينهبون كنوز القــاهرة وتحفها الفنية ومكتبة المستنصر الثمينة · ولم يضع حدا للفوضى سوى وصول بدر الجمالى الى منصب الوزارة وهو شخصية اتسمت بالحيوية والعزم ·

وبالرغم من هذا اتسمت سنوات عهد المستنصر الأول بالهدوء ، على الأقل بالنسبة للبسطاء • فلم تكن المؤامرات التى تحاك فى القصر تعنى فى شىء أصحاب الحوانيت والضياع • وقد ركـــز ناصرى خسرو على الاحساس بهدوء واستقرار الحياة الذى تبعثه القاهرة ، فكأنما كان هذا ربيعا مبشرا بفترة من السعادة قادمة •

لكن سرعان ما أتى الصيف مصحوبا برياح ساخنة وشمسا قاسية وجفافا مدمرا ومحرقا لكل شىء حول الأرض الى صحراء • وكان بدر الجمالى بمثابة الخريف بفاكهتة الغضة وحصاده الوفير لتعود القاهرة الى النماء والازدهار خلال العشرين سنة الأخيرة من عصر المستنصر •

*

وقد قدر (ناصرى خسرو » مساكن القاهرة فى ذلك العهد بعشرين ألف كل منها مكون من خمس أو ست طوابق • وكان ايجار منزل من أربعة طوابق احدى عشر دينار فى الشهر وقد طالب صاحب المنزل الذى نزل فيه الرحالة بخمسة دنانير كايجار شهرى للطابق الأخير من منزله • وروى « خسرو » ان رجلا رفع الى سقف منزله المؤلف من سبع طوابق عجلا وبعد ان كبر استخدمه ليدير ساقية ترفع الماء الى السطح حتى يزرع هناك شجار برتقال وموز وفواكه أخرى •

وامتدت جنوب الفسطاط رقعة من الأراضى تغطيها الخضرة ، طول كل جانب من جوانبها حوالى ميل وفى موسم الفيضان كانت تتحول الى بركة عرفت باسم « بركة الحبش » تحيط بها الحدائق من كل جانب تغنى بجمالها الشعراء •

وقامت هناك كنائس للمسيحيين جنبا الى جنب مع مساجد المسلمين• فجوار البركة بنى دير القديس يوحنا بحدائقه البديعة التى اولع الخليفة الحافظ بالنزهة فيها • وبها كان بئر الدرج الذى كان تظلله شجـرة جميز عملاقة وفضلا عن هذا كان بالفساط سبع مساجد عامرة وثمـان أخرى بالقاهرة • وفى شهر رمضان عام ١٤٠٦ م زاد المستنصر فى سعة المقصورة الموجودة فى جامع عمرو من جانبيها الشرقى والغربى ، وبناء على أمره ثبتت على وجه المحراب لوحة من الفضة تحمل اسمه منقوشا ، وطوق عمودى المحراب بطوقين من نفس المعدن • وفى شهر شعبان من سنة ١٠٤٩ م ذهب حائط القبلة فى نفس المسجد حول المنبر • وبعد ثلاثة سنوات اضيفت الى الجامع مئذنة جديدة •

وفى كل عام كانت مائتى قافلة تحمل المسافرين الى القاهرة التى كان

يربطها بجزيرة الروضة جسر من القوارب ، ومنها يمكن عبور النهر بقارب الى الجيزة ٠

*

وكان بالفسطاط سوق يسمى « سوق القناديل » حيث كانت تباع تحف فنية لا توجد في مكان آخر ، ومنها أوان من الفاينس (فخار مطلى بطلية زجاجية) شديدة الرقة حتى ان المرء يرى من خلالها يدا وضعت فيها ، وأكواب زجاجية خضراء اللون رائعة الصناعة ٠ ويذكر ناصرى خسرو ان من بينها كان ما يباع هناك أشغال الصدف مثل الصناديق والامشاط ومقابض السكاكين ، وأيضا كريستال دقيق الصناعة استورد من المغرب وأنياب أفيال من زنزبار يزن الواحد منها مائتى من ثلاثمائة وأربعين كيلو جرام » ٠ ويذكر نفس المؤرخ ان كميات الخضر والفاكهة التى كانت معروضة للبيع كانت هائلة ، وقد عدد منها أربعة وعشرين نوعا وكان السعر محددا فاذا ما حاول البائع خداع الشارى قبض عليه وشهر فى المدينة باركابه جملا علق فى عنقه جرسا حتى يقر بذنبه ٠ وكان بالمدينة خمسون ألف حمارا استخدمت لتنقلات الاهالى ، أما العسكريين فاعتادوا ركوب الخيل ٠

كان الأمن يسود البلاد الى درجة ان الصائغ أو الصياد كان لايبال باغلاق حانوته أثناء تغيبه عنه بل كان يكتفى بمد حبل أو شبكة عبر الباب اشارة الى عدم وجوده ٠ وكان هذا كفيلا بمنع الدخول ٠٠

*

كانت مكتبة القاهرة واحدة من أعظم مكاتب العالم الاسلامى حينذاك حتى لقد عدت من عجائب الدنيا ٠ وكان تدميرها فى عصر المستنصر خسارة لا تعوض لمصر فى هذا العهد ٠ احتلت المكتبة أربعين حجرة من القصر الكبير (ذكر بعض المؤرخون انها كانت تشغل صالة من صالات المستشفى القديم) ٠ وكان بها ستمائة ألف ومليون مجلدا تمثل مائة الف كتاب فى مختلف فروع العلوم والأداب التى كانت معروفة للعرب حينذاك ٠

وكانت كلها محفوظة في صواوين مغلقة بمفتاح وعليها قوائم بما تحويه من كتب ٠ وعين للمكتبة أمين وناسخين للكتب وخادمين ٠ واشتملت المكتبة على ٢٤٠٠ نسخة ملونة من القرآن وعلى مخطوطاتها كتبت بيد ابن مقلا وغيره من مشاهير الخطاطين ٠ وحوت أيضا ثلاثين نسخة من قاموس

عربى شهير هو « كتاب العين » للخليل بن أحمد ، وعلى عشرين نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخطه هو ، وعلى مائة نسخة من « جمهرة ابن دريد » . وغيره من الأعمال النفيسة وأخيرا فقد كان بها ١٨٠٠ مجلدا عن علوم القدماء . وكان بها أيضا صناديق حفظت فيها اقلام براها « ابن مقلا » « وابن البواب » وغيرهم من مشاهير الخطاطين .

وقد أنشأ القاضى الفاضل معهداً فى القاهرة حمل اسمه ، ونقل اليه مائة ألف مجلدا أتى بها من مكتبة القصر .

وعندما كان الخليفة يرغب فى زيارتها ، كان يأتى اليها ممتطيا صهوة جواده ثم يترجل عند الديوان الذى كان موضوعا فى القاعة وعليه يجلس ، ويأتى اليه أمين المكتبة حاملا القرآن والكتب التى يطلبها الخليفة . واذا ما أراد الخليفة مطالعة كتابا ، أخذه معه ، ثم رده فيما بعد . وقبل ان يغادرها كان الخليفة يتجول فيها بعض الوقت متأملا ذخائرها ثم يغادرها بعد أن يمنح القائم عليها عشرين دينارا .

وقد أخذ الجنود الترك كل تلك الكتب وفاء لرواتبهم المتأخرة والتى كانت بلا شك أقل بكثير من قيمة الكتب . ولم تنجو من أيديهم سوى الكتب المحفوظة فى القاعات الداخلية قرب مساكن الحريم حيث لم يكن يجرؤ أحد على الدخول هناك .

وفى هذا الوقت أيضا وبالتحديد فى عام ١٠٦٩ نهب الغوغاء « دار العلم » التى أسسها الحاكم بأمر الله وذلك أبان الاضطرابات التى صاحبت سقوط نصر الدولة . وقد انتزع العامة أغلفة الكتب ليصنعوا منها نعالا للاحذية بينما استخدمت الأوراق وقودا . وقد نال حاكم الاسكندرية قسما من هذه الكتب ، ونقله الى مدينته وعند سقوط الاسكندرية فى يد قبيلة من البربر ، أحرق البدو بعض الكتب واتخذوا من جلدها أحذية .

أما القسم الأخر من الكتب فقد ترك أكواما مهملة فى قلب الصحراء فغطاها الرمل تدريجيا مكونا تلالا صغيرة سميت تبعا لهذا « تل الكتب » .

*

فى عام ١٠٧٣ م عين المنتصر بالله بدر الجمالى حاكم دمشق الفاطمى السابق وزيرا . وكان الوزراء السابقون قد سيطروا تماما على المستنصر وبمساعدة المرتزقة من الترك نهبوا البلاد بمعنى الكلمة . وفى صحوة من المستنصر قبض على قائد الحرس التركى وأرسل رسالة الى بدر الجمالى يستدعيه لادارة البلاد . وقبل هذا على شرط أن يصطحب معه جنوده

السوريين ولم يرتاب الجنود الأتراك فى نواياه عندما أتى الى القاهرة لكنه كان معتزما على التخلص من مناوئيه · فأمر كل جندى من جنوده بقتل أحد الضباط الاتراك (١) وفى اليوم التالى أتى اليه الجنود السوريون وكل منهم يحمل رأسا من اذنيها أو من شعرها أو يحملها بأصبع أولجه فى فم القائد التركى الذى كلف بقتله ·

أجتث العشب الفاسد وآن للبذرة الطيبة أن تنمو · كان بدر الجمالى حاكما كفأ وعادلا وتحت قبضته الحازمة تمتعت القاهرة بفترة طويلة من الرخاء وعادت مرة أخرى ولأول مرة منذ عصر العزيز قبلة للمعماريين · ففى عام ١٠٨٧ م أعاد بدر الجمالى بناء سور القاهرة حتى يدخل فيه الأحياء التى نمت خارج اطار المدينة القديم فى الشمال والجنوب ، وبنى أو أعاد بناء بعضا من الستين بوابة (٢) وقيل أن ثلاثة أشقاء قدموا الى القاهرة لبناء ثلاث من بواباتها على الطراز البيزنطى وهم « باب الفتوح » وباب النصر و « باب زويلة » · والبـاب الأخير قد حل محل « بابى زويلة » القديمين · وأمامه أقيم ميدان واسع رصفت أرضيته بحجر مصقول حتى تنزلق عليه سنابك خيل أى عدد قد يهاجم المدينة · وقد سبقت ولاية بدر الجمالى لمنصب الوزارة فترة أشتد الوباء والمجاعة فى مصر مما أدى الى أقفار القاهرة · وقد أعتزم بدر على أن يعيد العمران اليها ولجأ الى انتزاع مواد البناء من خرائب العسكر والقطائع · وهدمت المنازل التى رفض أو أهمل أصحابها فى اصلاحها وأستخدمت أحجارها فى تشييد عمائر جديدة مما أدى الى أندثار جزء كبير من هاتين المنطقتين اللتين كانتا قد أقفرتا من السكان بفعل المجاعة والوباء وصارت أكواما خرائبها أشبه ببراكين متناثرة خامدة انفصلت بذلك الفسطاط تماما عن القاهرة التى اندمجت فيها المناطق السكنية الملاصقة ·· وحول جامع عمرو وأبن طولون ظهرت مدينتان صغيرتان وأضاف الأفضل بن بدر الجمالى جامعا جديدا فى عام ١١٠٤ م بالقرب من بركة الحبش سمى « جامع الفيل » لأن القنطرة القائمة أمامه بعقودها التسع كنت توحى لمن يراها يوم العيد عندما يمر عليها موكب بمنظر فيل يحمل رجالا مسلحين ·

*

تجلى ثراء الخلافة فى المواكب الاحتفالية التى كانت تتكرر على مدار

---

(١) قيل انه دعى الضباط الى مأدبة فى القصر الكبير جعل خلف كل منهم جنديا من جنوده وباشارة منه أطاحوا فرقاب أعدائه ثم ألقى بجثثهم فى بئر فى القصر ·

(٢) بلاشك بوايات حارات القاهرة ·

العام فلم تكن تقل فيها عدة الفرس في روعتها عن ملابس صاحبها وكانت سروج الخيل توشى بالذهب والفضة وتطعم بالأحجار الكريمة البراقة وأما أعناقها الخيل فتزين بسلاسل من ذهب وعنبر وحول أقدامها تثبت أجراس صغيرة من الذهب ترسل رنينا فى كل خطوة فلا عجب أن وصل ثمن الجواد أحيانا الى ألف دينار ٠ وفى أول أيام السنة كان يطوق بالمدينة موكبا ، فى مقدمته يسير أولاد الأمراء وأصدقائهم ثم مجموعة من الجنود تمثل فرق الجيش المختلفة، يتبعهم الأمراء الأقل منزلة الامراء ذوى السيوف المكفتة بالفضة « والأمراء ذوى الياقات الذهبية (١) » « وشادو التاج » (وهم الخدم المنوط بهم شد تاج الخليفة) ثم يأتى أهل بيت الوزير وعلى الجانب يسير حاملا « لواء المجد (٢) » وأخيرا يأتى حامل الدواة (وهى مجرة من الذهب مطعمة باللؤلؤ) وحاملوا السيوف وكل منهم يسير محاطا بعشرة الى عشرين تابعا ٠

ثم يأتى الخليفة على صهوة جواد زينت جبهته بياقوتة هلالية لشكل ويتبعه فرقة من الخيالة الخفيفة يقودهم والى القاهرة وكانت مسئولية حفظ النظام فى الطرقات ملقاة على عاتق كل صاحب الباب (رئيس التشريفة) ووالى القاهرة والأسفهسلار (قائد الجيش) وكان كل يحمل دبوس قتال من أجل هذا لغرض ٠

وسارت خلف الخليفة كوكبة من الخيالة الخفيفة لحمايته ٠ وجاء بعدهم حسب الترتيب التالى عشرة رجل كل منهم يحمل سيفا فى صندوق مغطى بحريرا أحمر أو أخضر يعرف هذا السيف بأسم سيف الدم ثم يليهم حملة الأسلحة الخفيفة ، ومن بعدهم الوزير مرتديا حلة فاخرة متبوعا بخمسمائة رجل ثم فرقة صبيان الزرد ويليهم الموسيقيون من قارعى الطبول ولاعبى لصنج والصفاير التى تلف موسيقاهم الموكب ٠ ثم يأتى حاملو الحراب ودروعهم مغشاة بالذهب وهم ينسبون الى حمزة عم النبى ويليهم الملاحون ومن بعدهم الرماة من الجزيرة العربية ويقدر عددهم بخمسمائة تقريبا ثم المشاة من البربر ومن بعدهم الفرنجة (وهم جند من العرب لقبوا بهذا الاسم لأنهم قهروا الفرنجة) ومن خلفهم يأتى حوالى أربعة آلاف جندى من فرق مختلفة ويليهم أصحاب الرايات (وهم فرقة انحدرت من الانصار وقريش الخ ٠٠٠) وكانوا يحتفظون براية

---

(١) هذه ترجمة اللقبين فى الأصل الفرنسى ، ولكن المقريزى الذى اعتمد عليه المؤلف فى وصفه يذكر « أرباب القصب » ، « أرباب الأطواق » ٠

(٢) Gloire فى الأصل ، ولكنها فى المصادر العربية « الحمد » ٠

تسلموها من عمرو بن العاص ومن هنا جاء أسمهم) • ثم تليهم وحدات مختلفة من الجيش من الاترك والكرد يبلغ عددهم جميعا ثلاثة آلاف رجل. وكانت الموسيقى الممتزجة بصفق الاعلام التى يصفعها الهواء مع سنابك الخيل تهز الأرض هزا بينما يشق الموكب طريقه وسط هتاف أهل القاهرة البسطاء ، الذى تقطعه شهقات الاعجاب المحمومة لدى رؤية الخليفة وصفوة أهل البلاد •

كان الموكب يبدأ من قصر الخليفة قاصدا صهريجا مشيدا عند باب النصر ومن هناك يتجه نحو باب الفتوح ليعود الى القصر عبر بين القصرين. وهنا يتوقف الجند وينزل الامراء عن جيادهم ويتوقف الخليفة أمام جامع الأقمر بالقرب من القصر الشرقى • وينفصل الوزير عن الموكب ويسرع بجواده نحو الخليفة حيث يقدم له فروض الولاء والطاعة فيرد عليها الخليفة بحركة خفيفة من يده وهى تعبر عن اسمى شرف يمكن لمخلوق أن يناله من الخليفة • ولما كان الوزير يلقب وحده برب السيف فقد كان أحيانا يحظى بهذا الشرف وعندئذ يعود الوزير مسبوقا بالأمراء راجلين الى القصر ويذهبون الى صالة الأعمدة التى كانوا قد خرجوا منها وعندئذ يترجل عن جواده ويصطف مع الامراء فى انتظار قدوم الخليفة •

وعندما يصل هذا الى القصر ينزل اتباعه عن جيادهم ويتبعون الخليفة المتطى صهوة حصانه الى القصر • ويأتى الوزير لملاقاته ويحييه ثم ينصرف مع الأمراء بينما يذهب الخليفة الى مخدعه ، وعندئذ ينصرف كل الى حاله سائرا على قدمه أو راكبا جواده أو تابعا لفرقته •

وكتب القلقشندى عن هذه المواكب « **كان الناس يستمتعون بتلك المواكب ويعجبون بها ثم يعودون الى منازلهم** » (١) • وعند عودتهم كان الناس الذين اشتركوا فى هذا الموكب يجدون عندهم هدايا مرسلة من الخليفة : مثل دنانير مربعة ودراهم مدورة ضربت خصيصا فى الأيام الأخيرة لشهر ذو الحجة لتوزيعها فى بداية السنة الجديدة على النبلاء • وكانت اخبار تلك المواكب ترسل الى كل من مدن مصر •

*

وفى مقابل ثراء تلك الطبقة عاش البسطاء من الصناع والعاملين حياة خشنة • تجمعت فئات الصناع والتجار فى أسواق كانت تغلق أبوابها ليلا ويحرسها حراس يدفع رواتبهم أصحاب الحوانيت فى كل

---

(١) ترجمة عن النص الفرنسى •

منطقة . وكان على من تضطره الظروف الى التأخر ليلا معرفة كلمة السر ليتمكن من المرور .

وكان لكل مهنة تقريبا سوق خاص بها ، الا أن الخبازين والشوائين وباعة المشروبات وأصحاب المطاعم انتشروا فى كل مكان . ففى سوق الحدادين كان المرء يرى الصناع منكفئين على أعمالهم وقد غطاهم سواد الفحم والسناج ، وقد أخذ بعضهم يثبت حدوات لحيوانات الجر . وكان يوجد عدد قليل من البياطرة اختصوا بمعالجة الكسور والجروح وتوليد الحيوانات المستأنسة ومعالجة ٣٢٠ مرضا من أمراض الحصان . أما الآخرون تخصصوا فى المسبوكات البرونزية والحديدية كالاسلحة والاجراس ومقارع الأبواب والمصابيح .. الخ . وقد فرض عليهم السلطان كتابة عيار السبيكة المستخدمة على مصنوعاتهم سواء كانت قطعة كاملة أو أجزاء . وعلى هذا كان فم المصباح يحمل عيار سبيكة مختلفة عن جسمه . وكان من يعمد منهم الى غش السبيكة باضافة الرصاص أو يهمل كتابة العيار ، يعاقب . أما صناع المفاتيح فكان عليهم ان يقسموا يمينا فاذا ما ضبطوا يصنعون مفاتيح مقلدة منعوا من ممارسة صناعتهم .

وعلى بعد منهم أقام مبيضو النحاس والمرايا حوانيتهم . وفى سوق الصاغة كانت تباع حلى حقيقية الى جانب أخرى مقلدة وقد ظهرت تلك الأخيرة منذ القرن الحادى عشر الميلادى وبينا كان الصائغ يضع الى جوار اللآلىء والأحجار الكريمة غالية الثمن حلى من نحاس مذهب وزجاج مصقول ملون .

وكان الحائكون يصنعون الملابس اما بالجملة أو حسب الطلب وهؤلاء الآخرون كان يزنون القماش الحرير الذى يحضره الزبون ثم يتعهدون بتسليمه ثوبا بمثل هذا الوزن فى ظرف أسبوع . وقد تمتع الاسكافيون بقدر كبير من الأهمية حيث لم يرتد القباقيب الخشبية سوى الفقراء . أما الآخرون فكانوا يرتدون أحذية الرخيص منها صنع من جلد الحمار . أما الأحذية الغالية فكانت تصنع من جلد الزراف . أما جلد الخنزير البرى فقد كان محرم الاستخدام فى تلك الصناعة . وعلى عكس الحائكين اشتهر عن الاسكافيين عدم الأمانة والدقة فقد كان بعضهم يحشر بين طبقات الجلد المكونة لنعل الحذاء الورق ومزق من قماش . وأحيانا كانت تصنع نعال الشباشب تماما من القماش ، فقد كانت قصاصات القماش الطويلة المستطيلة تجمع بعضها فوق بعض ثم تثنى فى طيات صغيرة منتظمة كالاكورديون ثم تضغط فى مكبس ، أو عندئذ تثبت

بواسطة سيور رفيعة من جلد البقر تنفذ خلال ثقوب طولية أحدثت بواسطة مخراز رفيع سخن الى درجة البياض ٠

واعتاد تجار السجاد على بسط بضائعهم فى قلب السوق وتحت أقدام المارة لاثبات جودتها وقد تخصص بعض الصناع فى اصلاح الأوانى الخزفية والصينية المكسورة وكانت عدتهم عبارة عن ملقاط من النحاس يمسكون القطعة المكسورة بها حيث يضعونها فى مكانها ثم يغطونها بلصق من بياض البيض المخلوط مع الجير ٠

ومن بين المهن التى امتهنها البسطاء كان العواد الذى يصنع آلة العود والقانون والنجار الذى يصنع المشربيات وقطع الأثاث الصغيرة المطعمة والصناديق من الخشب الفاخر المطعم بالصدف والعاج والفضة ٠ والى جوارهم كان هناك تجارون مختصون بصناعة المقاعد والأسرة من جذوع النخيل ومن زعفها كانت تصنع السلال والمكانس والمذبات ٠

وفى أسفل السلم الاجتماعى عانى شظف العيش تجار السكسونيا الذين كانوا يطوفون بالأسواق والشوارع يجمعون الخرق والملابس القديمة وهم منظفى البيبة ، وكان المرء يرى هؤلاء فى الشوارع حاملين على أكتافهم أنابيب من الصفيح وقصبة مجرفة تخرج منها أسلاك وحقيبة من جلد تحتوى على نسالة خرق يلفونها حول احد طرفى السلك ويولجونها فى نبوب الغليون ٠

*

وقبل أن نترك المستنصر لا بد لنا من كلمة عن الكنوز التى كان يغص بها قصره ٠ فوصفها سيعطينا لمحة عن الفن الاسلامى فى هذا العهد وعن أوجه انفاق الخليفة ٠ ولنبدأ بطاووس مطعم بأنفس الأحجار الكريمة: عيناه كانتا من الياقوت وريشه من المينا المذهبة التى تعددت ألوانها بألوان طاووس حقيقى ٠ وننتقل الى ديك شكل عرفه من الياقوت وكسى تماما باللآلىء وبأحجار كريمة غالية الثمن ٠ أما صدره الأبيض فكان من أجود أنواع اللآلىء ٠ ثم بطيخة من الكافور تزن سبعين مثقالا « حوالى ٣٢٠ كجم » تلفها ستارة مذهبة ومرصعة بالاحجار النفيسة ، ومائدة من الياقوت تسع عدة أشخاص ، ثم نخلة من ذهب مرصعة باللآلىء الرائعة والأحجار الكريمة موضوعة فى صندوق من ذهب وبلحها مشكل من الجواهر التى تمثله فى مختلف درجات نضجه ٠ ويذكر المقريزى أيضا أربعمائة قفص كبير مغشى بالذهب مملوءه بجواهر من كل صنف وعمامة مرصعة بالاحجار الكريمة تساوى ١٣٠٠٠٠ دينار وزورق بالحجم الطبيعى بفرشه وقمرته صنع فى عام ١٠٢٥ م بأمر أحمد الجرجاوى وقد

استخدم فمه ١٦٧ر٧٠٠ درهم من الفضة ودفع لصائغيه ٢٩٠٠ دينار كأجر عن عملهم · ويذكر أيضا حوض وأبريق من الكريستال ، وأنائين من كريستال شديد الشفافية وصناعة رائعة وعلى كل منهما نقش اسم الخليفة العزيز بالله · و ١٠٠٠ اناء من الكريستال أيضا يساوى الواحد منهم ألف دينار · وحديقة أرضها من فضة منقوشة ومذهبة وتربتها من عنبر أصفر ، وكان بها أشجار من الفضة تتدلى منها فاكهة من العنبر وكثير من المواد النفيسة ·

لن نحاول هنا أن نتتبع تفاصيل حكم كل خليفة فاطمى أو ملك آخر على حدة فليس الغرض من هذا الكتاب تقديم تأريخ لمصر بل تأريخ لمدينة القاهرة · ولذا لن نتوقف الا عند هؤلاء الذين أحدثوا أثرا فى المدينة أو غيروا من مظهرها · ولم تشهد فترة القرنين التى شغلتها الاسرة الفاطمية مولد أعمال أدبية عظيمة · فمناخ انعدام الأمن الذى ساد البلاد لم يشجع على العمل الذهنى الهادىء ، وقد كان اعدام الخليفة الحاكم بأمر الله للشاعر عبد الغفار عبرة لكل من يراوده شيطان الكتابة ويريد أن يحفظ فى نفس الوقت رأسه على كتفيه · ومن ناحية أخرى تجنب الكتاب السنيون الخلفاء الفاطميين لاختلافهم عنهم فى المذهب لكن هذا النشاط الذى انعدم فى الأوساط العليا من المجتمع وجد متنفسا فى أوساط الشباب من الطلاب ومدرسى الجامع الأزهر ·

وان افتقر الفاطميون الى الثقافة الأدبية فقد كانوا فنانين عظماء سخروا ثروتهم الطائلة فى خلق تحف فنية وكانوا بلا استثناء وكذا وزرائهم مولعين بالعمارة · وتنهض الجوامع المتخلفة من هذا العهد دليلا على ولعهم بالفخامة والبهاء ·

صلاح الدين والقلعة

فى عام ١١٦٩م تولى صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب المعروف فى الغرب باسم سلادين Saladin امارة جيوش مصر · وقد عينه فى هذا المنصب الخليفة العاضد الذى مات فى عام ١١٧١م وبعد ثلاث سنوات من توليه المنصب تقلد سلطنة مصر معترفا بالولاء لخليفة بغداد الذى لم يكن أكثر من صورة دون أى سلطة حقيقية مما جعل من صلاح الدين ملكا مستقلا بمصر ·

كان صلاح الدين رجلا رقيق الحاشية الى حد الخجل أحيانا ، وقليلا ما كان يتخذ زمام المبادرة لكنه كان سياسيا محنكا ذو رأى صائب · وتمتع بمقدرة على انتقاد مستشاريه والاصغاء اليهم وهى مقدرة هامة لأى ملك ، كما تميز بالصدق فى وسط كانت تسممه الخديعة ، وبالتسامح الا فيما يتعلق بسلامة العقيدة · وقد خاض غمار الحروب طيلة حياته رغم رقة بنيته · واتصفت أخلاقه بالشهامة والفروسية وكانت تملؤه روح العطف والحب مما أثر فى أفكاره وأفعاله · كان دءوبا على عمله ، بسيطا فى حياته ، عميقا فى ايمانه حتى مثل بحق الصورة المثالية لفارس عربى ·

فقد شارك فى حملات عدة وضم الى ملكه أرض نهر الفرات ودمشق وانتصر على الصليبيين فى حطين انتصارا حاسما ثم استطرد منهم القدس

ومعظم الأرض المقدسة ثم مات فى عام ١١٩٣م فى دمشق . وكان من بين الستة وخمسين عاما التى عاشها ثمان فقط قضاها فى مصر .

*

ومع ذلك فمدينة القاهرة تدين له بالكثير . فلقد كان بناؤه لقلعة الجبل بمثابة عمود فقرى لذلك التجمع السكانى فى سفح جبل المقطم ، وبعد ان تم بناء القلعة كان للمدينة أن تشعر بالعزة والزهو وقد اتخذت هيئة وقورة كرجل وضع قبعته على رأسه ، وكان لمحمد على بعد ستة قرون من هذا التاريخ أن يتم ما بدأه صلاح الدين بتشييد جامعة السامق فى سماء قلعة الجبل وكأنما كان به يضع ريشة فى قبعة القاهرة .

*

بعد سقوط الفاطميين وزع صلاح الدين القصور الفاطمية على أقاربه وقواده أما فهو فقد سكن مؤقتا فى دار الوزارة الواقعة شمال المدينة . أما ميدان باب القصرين والميدان الواصل الى قصر الشوك والبستان الكافورى وباب العيد فقد تركت للعامة .

وفى عام ١١٦٧م أمر صلاح الدين ببناء قلعة على شرف صخرى فى سفح المقطم . وقد تمتعت تلك البقعة بمناخ صحى عظيم فقد قيل أن اللحم المحفوظ فيها لا يفسد الا بعد أربعة وعشرين ساعة عن مثيله المحفوظ فى القاهرة . وقد استغله الطولونيون فى بناء للترفيه عرف «بقبة الهواء» . ولكن الفاطميين قنعوا بقصرهم المحصن المشيد فى السهل بيد أن صلاح الدين لاحظ على التو ضعف هذا الموقع الشديد من الناحية الحربية فأى عدو يتمتع بكثرة فى الرجال والعتاد الحربى وعاقد العزم على النصر يمكنه بسهولة احتلال القاهرة بل ان ثورة بسيطة شعبية يمكنها أن تشكل خطرا على المدينة نظرا لملاصقتها لضواحى يسكنها العامة . ومن ناحية أخرى لابد أن صلاح الدين السنى المذهب نفر من سكنى قصرى الخلفاء الشيعيين . فضلا عن أنه كان قد رأى المدن فى سوريا مزودة بقلاع تحميها وقد علمته التجربة أن المدينة كثيرا ماتسقط بينما تظل القلعة صامدة فتشكل ملجأ للأهالى وقاعدة للمقاومة يمكن منها استعادة المدينة مرة أخرى . وأخيرا فقد رأينا فيما سبق حرص كل أسرة حاكمة على أن توسع العاصمة باضافة قصور وأحياء اليها وبذا أخذت المدينة فى الاتساع فى الاتجاه الشمالى الشرقى كسجادة ضخمة تفرد شيئا فشيئا . فلذا اعتزم صلاح الدين على ضم المدن الأربع المتوالية وهى الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة فى مدينة واحدة ، وهو شرط أساسى لنمو المدينة نموا متجانسا مخططا . ويبدو أن السلطان قد تنبأ بمستقبل زاهر للقاهرة بالامتداد الذى ستصل

اليه وبامكانية دمج الفسطاط فيها يوما ما مما يمكنها من أن تستعيد الحياة مرة أخرى بفضل هذا الاندماج ٠

*

وكان اختيار هذا الموقع لبناء القلعة اختيارا بديهيا يمكن تلخيصه فى الأمن والمهابة ٠ فلما كان صـــلاح الدين عازما على احاطة الفسطاط والقاهرة بسور واحد كانت تلزمه نقطة يشيد عليه قلعة يسيطر منها على المدينة ويسهل عليه الدفاع عنها وتكون على بعد كاف من المدينـــة حتى يستحيل عليها بهجوم غير متوقع ٠ وفى الوقت نفسه كان الهدف منها أن تكون مقرا ملكيا مثل فرساى فى فرنسا يليق بالأسرة الجديدة ٠

أما نقطة الضعف الوحيدة فى البناء فكانت فى وجود منحدرات صخرية تعلوه فى الجانب الشرقى منه ٠ ومنها كان يمكن السيطرة على القلعة التى تشرف على القاهرة بيد أن هذا الأمر كان مستبعدا فى هذا العصر الذى كان السلاح فيه لا يتعدى المنجنيق والمقلاع والسهم ٠

بدأ العمل فى القلعة فى عام ١١٧٦م لكنه لم ينته الا بعد ثلاثين عاما فى عهد الملك الكامل ابن أخو صلاح الدين ومنذ ذلك الوقت جدد بناؤها مرات ومرات حتى صار من المتعذر علينا تمييز البناء الأصلى ٠ ومع هذا فقد وصل الينا النص التأسيسى الذى يحمل اسم مشيدها وهو موجود على « باب المدرج » وهو عبارة عن لوحة رخامية تحمل تسعة سطور من الخط النسخى الأيوبى ٠

« بسم الله الرحمن الرحيم انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما (١) تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمتـــه عليك ويهـــديك صراطا مستقيما (٣) وينصرك الله نصرا عزيزا ٠ أمر بانشاء هذه القلعة الباهرة المجوارة (المجاورة) المحروســة (٤) القـــاهرة بالعزمة ؟ (تعنى الجسر أو الحاجز الذى يعترض السيل) التى جمعت نفعا وتحسنا وسعة على من التجى (هكذا فى النص) الى ظل (٥) ملكه وتحصنا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو (٦) الملك المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين (٧) على يد أمير مملـــكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله الملكى (٨) الناصرى فى سنة تسع وسبعين وخمس مائة ٠ »

أشرف على العمل الخصى (طواشى) قراقوش الذى اتخذ المصريون لسوء حظه الغريب من سيرته مادة للضحك والعبث ووصفه المؤرخ السيوطى بأنه كان رجلا صالحا رقيقا لكنه ساذج ، وتصوره الكثير من نوادر عهده بصورة مضحكة ، فقد روى أن امرأة مات زوجها ذهبت اليه ترجوه أن

يمنحها بعض المال لشراء كفن له فأجابها « ان مال الزكاة لهذا العام قد نفذ ، فتعالى العام القادم ان شاء الله وسنعطيك كفنا » ٠

انتزع الحجر اللازم لبناء القلعة من الأهرام الصغيرة بمنطقة الجيزة وقد ذكر « ابن جبير » أن البناء قد تم فى عام ١١٨٣م وقد استخدم فى انشائه أسرى الحرب من الفرنجة وعدد غير محدد من الفلاحين الذين سخروا لهذا الغرض كما كان الأمر شائعا فى الماضى للحصـــول على أيدى عاملة مجانية ٠ وبعرق وآلام الفلاحين المصريين وأبناء فرنسا أخـــذت ترتفع الأسوار المزودة بأبراج حصينة من على الأرض الملتهبة بالشمس ومن بين سحابات الغبار الذى ملأ الحناجر ٠ وحفر بئر فى الصخر هو « بئر يوسف » وان ذكر بعض المؤرخون أنه كان موجودا منذ زمن بعيد بيد أنه كان مطمورا بالرمال ويبلغ عمق البئر ٨٤ مترا وهو منقسم الى جزئين كان فى العلوى منهما ساقية ترفع الماء الى القلعة ٠

ويبدو أن الملك الكامل أضاف الى أبنية القلعة ، لكننا لم نعثر لهذا على أثر ومع هذا يذكر المؤرخون جامعا وبوابات وحظائر وأبراج حمـام خصصت لتربية الحمام الزاجل الذى كان السلطان بفضله على اتصـال دائم بسوريا ٠

وبنيت السلطانة الشهيرة شجرة الدر « صالة الأعمدة » التى كانت تسبق حجرات السلطان وكان بها عرشا من الذهب وعددا من الأوانى الذهبية والفضية ٠ وأسست فرقة موسيقية عسكرية « نوبة الأميرة » التى كانت موسيقاها كل مساء فى القلعة ٠ وفى احدى حمامات هذا البناء لقيت شجرة الدر مصرعها عام ١٢٥٧ ضربا بالقباقيب على يد حفنة من الجوارى ٠ وقذف بجثتها شبه العارية فى خندق حيث لبثت أياما نهشتها فيها الكلاب ٠ وفى القلعة أيضا استقبل السلطان بيبرس البندخدارى فى عام ١٢٦١ الخليفة العباسى المعتصم (١) الذى فر من بغداد أمام المغــول وهناك قلده الخليفة عمامة سوداء مغشاة بالذهب وعباءة أرجوانية والسلسلة وخاتم العرش من الذهب مما جعل منه حاكما شرعيا لمسلمى ســـوريا والجزيرة العربية ومصر ٠

تحت حكم المنصــور قلاوون الذى شغف بالعمـــارة ازدانت القلعة بالعمائر ولم يتردد هذا السلطان فى هدم جميع منشآت سابقيه تقريبا

---

(١) هذا ما ذكره المؤلف ٠ أما حقيقة الأمر فان آخر الخلفاء العباسيين كان الخليفة المستعصم بالله الذى قتل على يد المغول ٠ أما الخليفة الذى استقبله الظاهر بيبرس فكان المستنصر بالله أحمد ٠

حتى يفسح المجال لمنشاته التى أنزل بها خلفائه بعد موته نفس المصير .
ففى عام ١٩١٨ هدم ابنه الناصر محمد مسجدا وشيد فى موضعه مسجدا آخرا يحمل اسمه الى يومنا هذا . ويروى عنه المقريزى انه كان مبلطا بالرخام تزينه لوحات مزخرفة بالذهب . وفى وسطه قبة منتفخة الجوانب بينما قسمت النوافذ الجصية مصبعات الى مربعات صغيرة . وتظهر ذات القمم البصلية المكسوة بالقيشانى تأثيرا فارسيا بحتا ويرى هنا المتخصصون دليلا على تأثر معمارى هذا العهد بالعمارة المغولية . وقد شيد الناصر أيضا الايوان الذى عرف فيما بعد « بديوان يوسف » ، وقد حملت قبته الهائلة أعمدة جلبت من الصعيد وفى وسط القاعة نصب العرش وكان من العاج والأبنوس . كما بنى « القصر الأبلق » ، الذى عرف بهذا الاسم لان واجهته كانت مداميك صفراء وسوداء متعاقبه » . زينت الجدران والأرضيات بالرخام والفسيفساء الذهبية وتعددت ألوان جدرانه الى ألف لون وامتزج اللازورد مع الذهب على سقفه . توجت الجميع قبة خضراء ينفذ من خلال نوافذها المزينة بالزجاج الملون القبرصى الضوء الذى تعكسه الجدران على القبوات فكأنما هو جوهر منثور . واحتفل السلطان بافتتاحه احتفالا عظيما وزع فيه خمسين ألف دينـار على الفقراء وخلع على المعمـاريين والعمال ألفين وخمسمائة ثوب . كما حول الميدان الى حديقة ، فقد حفر فيه آبارا لتزويده بالماء الدائم ، ثم زرع فيه أشجار فاكهة ونخلا كما شيدت قناطر لنقل الماء من النيل الى القلعة .

كانت أعمال محمد بن قلاوون نقطة الذروة فى تاريخ القلعة فقليل منها ما تغير خلال الخمس قرون التالية ويروى المقريزى حادثة غريبة حدثت فى عام ١٣١٨م فقد ذكر أنه فى أثناء احدى الفتن دمرت كنيسة كانت قد بنيت سرا فى القلعة فى ثكنات (طباق) المماليك التتار ، ويبدو أن بعض هؤلاء كانوا مسيحيين .

وفى عام ١٣٥٩م شيد السلطان حسن مؤسس المدرسة العظيمة التى تحمل اسمه والموجودة أمام القلعة قاعة فى القلعة قاعة عرفت باسم « البيسرية » التى تؤلف جزءا من الحريم ، وكانت تضيؤها أربعمائة ثرية (١) تحمل الشموع . وكان ارتفاعها اثنين وثلاثين مترا وعمل فيها برجا من العاج والأبنوس . واستخدام فى تزيينها الذهب باسراف حتى أن المقريزى قال « يكاد يذهل الناظر اليه (بريق الذهب) .

كان أهم مزايا القلعة بلا شك المنظر الرائع الذى ينبسط أمامها والذى وجد الكثير من السلاطين قدرا كبيرا من المتعة فى تأمله . وقد روى

---

(١) ٤٩ ثرية حسب المقريزى .

المؤرخ ابن اياس فى أحداث عام ١٣٩٥م أن السلطان برقوق كان يتأمل هذا المنظر حينما لمح خيمة منصوبة على جزيرة الروضة فأرسل أحد أتباعه ليتقصى أمرها فعاد اليه وأخبره أنها تخص « الصـــاحب كريم الدين » وأصدقائه وأنهم يلهون هناك ويشربون الخمر التى يحرمها الاســــلام • فاستدعاه فورا السلطان وأمر بتغريمه خمسين ألف دينار وبجلده وختم ابن اياس روايته متعجبا « فكان هذا من الأمور الغريبة » •

وعندما احتل الأتراك القلعة فى عام ١٥١٧ انتزعوا قدرا كبيرا من الفسيفساء وألواح الرخام والأخشــاب وغيرها ونقـلت جميعا بالمراكب وأرسلت الى استنبول • وفى الطريق غرقت احدى السفن فطوى البحر ما كانت تحمله من كنوز • وفى مقابل ما انتزعوه من تحف شيد الأتراك فى القلعة مسجدا فى عام ١٥٢٨ هو أول المساجد العثمانية فى مصر وسمى مسجد سليمان لكنه عرف لدى العامة باسم « سيد ساريه » نسبة الى أحد الصحابة المدفون هناك وقد قيل ان بعض المماليك الذين قتلوا فى مذبحة القلعة سنة ١٨١١م دفنوا هناك أيضا •

وبعد الغزو التركى لم تعد القلعة مقرا للحكام بأمر من الســلطان سليم العثمانى وقد علل القنصل الفرنسى مايه Maillet القرار الى خشية السلطان من تفسد علية كبار موظفيه فألوا الى الذى سيقطن قصرا أفخم بكثير من ديوان السلطان فى القسطنطينية قد يفكر فى الاســـتقلال عن الامبراطورية وصارت القلعة ثكنات للغرب (جنود المشــــاة) واستخدم القصر الأبلق كمشغل تصنع فيه كسوة الكعبة الشريفة •

وقد أجرى محمد على فى عام ١٨٣٠م تغييرا جذريا فى القلعة حتى لم يبق من البناء الأصلى سوى السور والبئر ، وبنى فيها جامعه الذى أكسبته مئذنتاه المدببتان وقبته السامقة منظرا رائعا وسط القلعة العتيقة غير أن اضافات أخرى بنيت بذوق سقيم أفسدت هـــذا الاطار الرائع ومنهــا الساحة التى أهداها « لويس فيليب » ملك فرنسا الى محمد على والتى وضعها فى برج صغير مربع • وفى الركن الجنوبى الشرقى أضاف « قصر الجوهرة » الذى تشرف نوافذه على القاهرة ووادى النيل وهو منظر من أبدع مناظر الدنيا •

*

تعطى القلعة بثقلها وقوتها انطباعا بقوة متوعدة شريرة • فمنذ أول أيامها أخذت الشائعات تروج بين الناس عنها • وكما ذكرنا من قبل انتزعت الأحجار اللازمة لبنائها من أهرامات صغيرة ولذا تهامس الناس بأن شبحا هائلا يظهر ليلا خلف جدران القلعــة التى تتصـــاعد تدريجيا على جبل

المقطم . وهو شبح فرعون الذى انتهك قبره جاء يبكى حطام قبره الأبدى .
وكان الناس يعزون الى غضبه الأوبئـة والفتن والمجاعات التى تصيبهم والمصائب التى تحل على أبنية القلعة . وعزوا اليـه أيضا مصرع الملكة شجرة الدر المفجع الذى ذكرناه آنفا .

وأرجع الناس أيضا كثرة الفتن والحرائق فى عصر الناصر ابن قلاوون الى لعنة حلت بالقلعة . فلقد تسلم السلطان الناصر من حموه وهو ملك ماغولى هدية من القاشانى من ألوان متعددة ليكسوا القبة البصلية لمئذنتى جامعه الجديد فى القلعة . ولما كانت تلك الهدية صنعت بيد ووفق ذوق وثنى فقد جلب وضعها على مسجد اسلامى اللعنة على القاهرة .

وصاحب حفر بئر يوسف انتشار شائعات مخيفة ، فقد قيل ان قراقوش كان يقذف فيه بمن يتمرد من عماله المسخرين وامتـدت تلك الشائعات الى الممرات السفلية المنقورة فى أرض القلعة . وكانت قد حفرت لتستخدم كمخازن وملاجىء وطرق المواصـلات لكنهـا تحولت فى خيال العامة الى سجون كان قرقوش يقذف فيها بمن يضايقه من العمال ويسد عليهم بالبناء .

وعلى الحائط الغربى للقلعة نحت نسرا ناشرا جناحيه ومخالبه تقبض بتشنج على الحائط . ورأسه التى اختفت حاليا كانت تلتفت الى اليمين بكبرياء وكأنما هو حامى المدينة التى تمتد تحت أقدام القلعـة . لكن البسطاء أمنوا منذ عهد بعيد أن لهـذا الطائر الجارح قدرة على التنبـؤ بالغيب : فاذا ما صفق بجناحيه ونفخ حوصلته فيعنى هذا خيرا يصـيب المدينة . أما ان أطلق صرخة فهو فأل سىء للموت أو بكارثة وشيكة .

*

كان لبناء القلعة آثارا قوية على الأحياء المجاورة . فقد توقف زحف المدينة الفاطمية نحو الشمال وبدأت فى الاتساع العرضى ، ثم ارتد الامتداد الى الخلف تماما ، وأخذت فى الامتداد نحو الجنوب الشرقى مبتلعة الجبانات والضواحى والمنازل المبعثرة فى الطريق نحو القلعة حيث توقفت أمام الحاجز الصخرى للجبل . وبدأت تلك المنطقة التى كانت صحراء تفيض بالحياة فى كل صورها الانسانية والحيوانية والنباتية . وصار ميـدان الرميلة الواقع فى سفح المقطم سوقا للخيل وللحمير وللجمال . تحولت المساحات الخاوية التى نتجت عن خراب حارات الزنوج ، التى كانت قد شيدت على جانبى الشارع الأعظم جنوب القاهرة ، بعـد أن استأصل صلاح الدين شقفتهم ، عندما ثاروا عليه ، الى حدائق غناء تزينها البرك المائية .

فصار من الممكن رؤية باب زويلة للواقف عند جامع ابن طولون والى الغرب غرست حدائق أخرى (اللوق) ازدهرت تحت حكم المماليك • ويصفها لنا جان تنو Jean Thénaud الذى جاء الى مصر فى سفارة من الملك لويس الثانى عشر • « **حدائق عظيمة غناء مليئة بأشجار الفاكهة مثل الليمون والبرتقال والمشمش وتفاح آدم وقد سمى بهذا الاسم لأن آدم عصى ربه بأكله وتروى تلك الحدائق ليلا ونهارا بماء النيل الذى تجلبه اليها الخيل والثيران ومازالت هناك بقايا لتلك الحدائق حتى يومنا هـذا أسفل القلعة** » •

❋

وبمجرد أن وضع أساس القلعة وجه صلاح الدين اهتمامه ببنـاء أسوارا لحماية المدينة • كان سور القاهرة الثانى الذى بناه بدر الجمالى يبدأ بالقرب من مبنى « معونة الشتاء » الحالى ويتبع الجانب الغربى لحديقة الأزبكية ، وكان من الممكن رؤية هذا الجزء حتى عام ١٨٤٢م • ثم يصل الى البقعة المشيد عليها الآن قصر عابدين ثم يتجه الى « باب زويلة » ثم يتصل بالحائط الشرقى • وكان سور صلاح الدين تجديدا لهذا الجزء أضيف له جزء يصعب تتبع آثاره ، مد فى الحائط الشمالى حتى النيل • أما الحائط الشرقى فامتد حتى القلعة • وفى النقطة الشمالية الشرقية شـيد بناءا منفصلا هو برج الظفر قصد منه تشديد الرقابة على المدينة • وقد حفظت كثير من الأبواب القديمة « باب البحر » و « باب الشعرية » و «باب الفتوح» و « باب النصر » وأزيلت أخرى • وبدء فى تشـييد حائط جـديد من الفسطاط فى اتجاه القلعة لكنه لم يتم • ونحن لا ندرى لهذا سبب هل ألغى المشروع الأساسى أم فضل أن يترك ناقصا حتى يجذب أى مهاجم محتمل الى أسفل حوائط القلعة التى كانت تبنى فى هذا الوقت • وربما رأى خلفاء صلاح الدين أن منطقة نصف خربة كالفسطاط لا تستحق عناء بناء سور طويل يمتد لكيلومترات ويحتاج للكثير من النفقات •

❋

كان آخر أعمال صلاح الدين الدفاعية انشاء قناطر ضخمة فى الجيزة على الضفة الغربية للنيل • التى كانت مفتـوحة الطريق لأى مهاجم من الغرب ولهذا فقد قرر السلطان أن يضع عقبة فى طريق أى غزوات من تلك الناحية • وكانت القناطر المشيدة على النيل قد صارت عاجزة عن التحكم فى حياة الفيضان نظرا لاهمالها لفترة طويلة ولذا كانت المياه تفيض دون عائق وتدمر الطرق وتعوق اسـتغلال مسـاحة كبيرة من الأرض واهتم بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين اهتماما كبيرا باصـلاح الطرق

والقنوات مستخدما الأهرام الصغيرة فى منطقة الجيزة محجرا وقد كسى القناطر المتآكلة وحواف القنوات الهامة بالأحجار · ثم شيد على طول النيل جسرا واسعا متينا يحمى حواف النهر من التآكل بفعل المياه ، كما سهل المواصلات بين العاصمة والوجه البحرى وبين الصعيد · وقد وصف ابن جبير الرحالة الأندلسى هذا الجسر قائلا :

رصيف ابتدىء به من حيز النيل بازاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض ، تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة وهى نحو الأربعين قوسا ·· والقنطرة متصلة بالصحراء التى يفضى منها الى الاسكندرية » · وكان هذا الطريق محمولا على أربعين عقدا عاش بعضها قرونا عدة ·

*

والى جانب تلك العمائر العظيمة بنيت منشآت أقل أهمية فى القاهرة وقد بنى صلاح الدين مارستانا قبل المارستان الشهير الذى شيده قلاوون كما روى لنا ابن جبير « **ومما شاهدناه أيضا ، من مفاخر السلطان ، المارستان الذى بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائقة حسنا واتساعا ، أبرزه لهذه الفضيلة أجرا واحتسابا ، وعين (فيه) قيما من اهل المعرفة ، وضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف أنواعها ، ووضعت فى مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى · وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكلفون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم ·**

وبازاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ، ولهن أيضا من يكفلهن ، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء ، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد ، اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد ·

وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم : ومع هذا فلم تكن قاهرة ذلك اليوم تضارع القاهرة التى سحرت يوما الرحالة · وقد ذكر ابن سعيد أن معظم شوارع المدينة ضيقة ومملوءة بالتراب والقمامة ، ومبانيها من الطين والبوص ، وتكاد تحجب الهواء والنور لارتفاعها · « **لقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدرى ، ويدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج الى بين القصرين ·**

ومن عيوب القاهرة انها فى أرض النيل الأعظم ويموت الانسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها » ٠

وروى نفس هذا المؤرخ أن وزير كان يمر بأحد الشـــوارع وخلفه أتباعه واذا بعربة محملة بالأحجار تسد الشارع فتوقف الوزير وصار الزحام شديدا ٠ وكان بهذا الموضع حوانيت شوائين يتصاعد منها دخان يحتبسه ضيق الشارع خلف الوزير بسحابة سميكة كادت تخنقه هو ومن معه ٠

وقال نفس المؤرخ عن الخليج : « **وفيها الخليج لا يزال يضعف بين خضرتها حتى يصير كما يقول الرصافى :**

مازالت الأنحال تأخــــــذه حتى غـدا كذؤابة النجم »

وفضلا عن القصـــور أثارت الحمامات اعجـاب الرحالة ، ومنهم عبد اللطيف الذى زار مصر سنة ١٢٠٣ م بعد سنوات قليلة من وفاة صلاح الدين وقد ترك لنا وصفا يدل على اعجابه الشديد بحمامات القاهرة التى يقول عنها انه لا يوجد مثلها فى الدنيا فى حسن بنائها ولا فى مهارة ادارتها ٠ فكل حوض بها يسبح أربع قرب من الماء ٠ ويمـــدها بالماء الساخن والبارد صنبوران ويمكن للمستحم أن يمزجهما فى طست صغير بالدرجة التى تروق له ٠ وفى حجرة خلع الملابس توجد كبائن خاصـة يخلع فيها كبار القوم ملابسهم بمنأى عن أعين العامة ٠

كان الحوض الذى يستحم الناس فيه مغطى بقبة من الرخام وتحيط به أعمدة ، كما كانت تزين السقف صور ملونة ٠ و « **بالاختصار فمن يدخله لا يرغب أبدا فى الخروج منه » ويسخن الماء تدريجيا بواسطة أربعة مراجل تتصل بالحوض عن طريق أنابيب ويتحد كل هذا بسرعة ويسر ودون أدنى قدر من العناء »** ٠

*

كان الشيعة من أهل القاهرة شوكة فى ظهر مســـلم سنى ورع كصلاح الدين ٠ وعلى الرغم من شهامته ورقته كان فى وسعه أن يكون قاسيا اذا ما تعلق الأمر بسلامة العقيدة والمارقين عنها أو الكفار ٠

وقد قرر أن يعدل عن استخدام القوة مع الشـــيعيين وأن يلجأ لأسلوب آخر ٠ فبدلا من الجلاد استعان بالمعلم وبدلا من السوط استخدم الكتاب ٠ ولكن كيف يعلم أهل القاهرة العقيدة الصحيحة بينما لم يكن يوجد فى القاهرة عند توليه السلطة معهد واحد يعلم المذهب السنى ٠ وعلاجا لهذا اضطلع بانشاء العديد من المدارس الدينية التى ستصبح بمرور الوقت عنصرا معماريا مميزا فى القاهرة ٠

وافتتحت أولى مدارسه فى عام ١١٧٦م وكانت ملاصقة لقبر الامام الشافعى الموجود حتى الآن على الرغم من أن المدرسة نفسها اختفت ٠ وقد وضعت هذه القبة فى عام ١١٨٣ على لســان الرحـالة ابن جبير « **مشهد الامام الشافعى رضى الله عنه وهو من المشاهد العظيمة احتفـالا واتساعا ، وبنى بازائه مدرسة لم يقم بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناءا ، يخيل لمن يتطوف عليها انها بلد مستقل بذاته ، بإزائها الحمام الى غير ذلك من موافقها ، والبناء فيها حتى الساعة ، والنفقة عليها لا تحصى ، تولى ذلك بنفســه الشــيخ الامام الزاهد العالم ، المعروف بنجم الدين الخبوشانى ، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ، ويقول : « زد احتفالا وتأنقا ، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله » .**

أحدث نظام المدرسة الذى ادخله صلاح الدين تغيرا كبير فى العمارة القاهرية ٠ فحتى ذلك العصر كانت المساجد تبنى جميعا وفق رسم واحد ، يحدد اتساعه عدد المصلين الذين سيستقبلهم « وعلى جانبه القبلى بنى بيت الصلاة المغطى » الايوان القبلى « الذى يحمى جموع المصلين من وهج الشمس ، وكان به صحن واسع مفتوح يتجمع فيه الناس أثناء الأعياد ٠

فى بداية عهد صلاح الدين كان فى القاهرة اربع جوامع من هذا الطراز : الأزهر والحاكم وابن طولون وعمرو ، أما الجوامع الأخرى كالأقمر والصالح طلائع فقد انقطع الناس عنها عقب موت مؤسسيها فأهملت مما أدى الى خرابها ٠ وفضلا عن هذه الجوامع كان يوجد فى المدينة مساجد (المسجد وهو مكان للصلاة اليومية عدا صلاة الجمعة والعيد) ، مساحتها أقل من مساحة الجوامع ٠ وقد ادخل صلاح الدين المدرسة الى مصر وهى منشأه تدرس فيها المذاهب الســنية الأربــع ٠ وكانت تلك المدارس ، نواة للمسجد ذو التخطيط المصلب ؟؟ ، وعليه بنيت أشهر الجوامع مثل السلطان حسن وبرقوق والناصر قلاوون وقلاوون ٠ ولما كانت تلك العمائر مخصصة للتدريس أساسا لا للندوات الثقافية فقد اختلف تخطيطها عن تخطيط الجامع العادى ، فقد استبدل الصحن المكشوف الواسع الذى اعتاد الناس على التجمع فيه أيام الجمعة بصحن مربع صغير ، غطى أحيانا بسقف خشبى ملون ، وكثيرا ما وضعت فى قلبه قبة صغيرة ٠ واستبدلت الأروقة المعمدة الجانبية بأربع ايوانات أعمقها الايوان القبلى حيث توجد القبــلة ٠ وكان كل ايوان مخصصا لتدريس المذهب الشافعى والمالــكى والحنفى والحنبلى ٠ وفى كل منهم كان يجلس الشيخ المعلم يحيط به تلاميذه فى حلقة وكانوا جميعا يقيمون فى داخل المنشأة التى زودت بمكتبة معامل وصالات استذكار ٠

أثرت سياسة صلاح الدين الدينية تأثيرا هاما على القاهرة ، فأثناء غيابه الطويل عن قاعدة ملكه كانت السلطة فى يد أخوه أو ابنه اللذين أصغيا باستمرار لمشورة « القاضى الفاضل » وهو عربى من مدينة عسقلان ، وكان غزير العلم صائب البصيرة • وبفضله عاد الطلاب الأجانب للدراسة فى جوامع القاهرة • وتلاقى علماء المشرق الاسلامى بالمغرب الاسلامى فى القاهرة • وكان صلاح الدين من هؤلاء المحاربين الذين وجدوا لذة فى محاورة الفلاسفة والعلماء ، وبفضله وبفضل نظام الدراسة فى تلك المدارس عادت القاهرة مرة أخرى المركز الروحى للعالم الاسلامى •

*

أدى انشاء صلاح الدين لسور جديد للقاهرة الى تغيرات واضحة بالنسبة لأطراف المدينة الشمالية الشرقية ، وكان الفاطميون قد بنوا فى هذا الجزء قصر اللؤلؤة وترسانة وأرصفة ميناء وحفروا بركة ، وبدأت المقس فى الاتساع نحو الشرق لتلتحم بالقاهرة ، وكانت فى السابق على بعد فرسخ (أربعة كيلومترات) وكان اتجاه اتساعها فى الغرب على الأرض التى يتراجع عنها النيل • وكانت تلك الأرض قد استغلت فى مبدأ الأمر كملاعب وأرض لتدريب الجيش ثم تحولت الى حدائق وأخيرا بدأ الناس فى البناء عليها فى المساحات التى تركها النبلاء خاوية ، واحتل الناس فى تلك البقعة « ميدان قراقوش » و « الملك العزيز » تدريجيا • وقد جذب السكان الى تلك المنطقة سهولة امدادها بالغذاء والماء والازدياد المستمر فى حركة النقل المائى بميناء المقس فضلا عن حسن جو المنطقة ووجود مساحات واسعة من الأرض الفضاء وفى الوقت نفسه أخذت بعض المناطق الأخرى فى العمران مثل المنطقة التى بها حديقة الأزبكية الحالية والتى بها ميدان باب اللوق وظهر حى الحسينية أمام السور الشمالى • وبذا مزقت أسوارها كما يمزق جسد الطفل النامى ملابسه •

وحتى الفسطاط ، تلك الجارة الفقيرة ، استفادت من الرخاء والازدهار الذى تمتعت بهما مدينة القاهرة • كانت تكاليف المعيشة فى الفسطاط أقل منها فى القاهرة ، وقد شيد فيها معامل للسكر ومصانع للحرير ، ومن ثم فقد فضل عمالها الاقامة فيها حتى يكونوا على مقربة من أعمالهم وكان بالمدينة سوق كما أصلح صلاح الدين جامعها « جامع عمرو » وشيد السلطان الصالح نجم الدين أيوب قلعة وثكنات فى الطريق الجنوبى لجزيرة الروضة وفى الحقيقة كان هذا البناء قصرا أكثر منه قلعة حربية حيث كان سحر شاطىء النيل فى تلك البقعة يجذب الأثرياء ويغريهم ببناء فيلات هناك • ولكن ذلك الازدهار لم يدم طويلا كما أوضحنا فيما سبق •

ولتكتمل لنا صورة القاهرة فى عصر صلاح الدين سننظر فى القسم الذى خصصه ابن جبير فى كتابه عن أحد أجزاء المدينة الهامة وهو جبانة القرافة ، التى قيل عنها انها تضم رفات عدد من الاعلام كالنبى صالح وروبيل ابن يعقوب والسيدة آسيا امرأة فرعون رضى الله عنهم جميعا ، وقد ذكر الرحالة أربعة عشر مشهدا لأحفاد ذكور لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه · ولم يحاول ابن جبير التأكد من صحة نسبه تلك المشاهد واكتفى بالتعقيب بعبارة « **وبالجملة فالصحة غالبة لا شك فيها ان شاء الله عز وجل** » · ومن بين المقابر كان هناك مشاهد أولاد أبو بكر الصديق رضى الله عنه ومشهد لابن الزبير بن العوام رضى الله عنه « **وبقبلة القرافة المذكورة بسيط متسع ، يعرف بموضع قبور الشهداء ، وهم الذين استشهدوا مع سارية رضى الله عنه** » · واضاف ابن جبير « **ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ، ومشاهد معمورة ، يأوى اليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء والأجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر والمدارس التى بمصر والقاهرة كذلك** » ·

*

كان عصر صلاح الدين حلقة الصلة بين القاهرة الفاطمية والقاهرة المملوكية لقد كان هو الذى وضع حدودا للمدينة الجديدة وترك للمماليك مهمة تجميلها ·

(★) · النفقة ·

المماليك

حكم المماليك مصرا ثلاثة قرون (من ١٢٥٠ الى ١٥١٧) وهم عبيد نشئوا تنشأة عسكرية واعتقوا ٠

كان خلفاء بغداد أول من اتخذ فرقا عسكرية من العبيد الأجانب ، فقد اشتروا عبيدا من الجنس الأصفر من وسط آسيا ليكونوا منهم حرسا يحميهم من جيرانهم من القبائل العربية ذات النزعة الحربية ولم يرحب الجند الكرد فى الجيش الأيوبى بتولى الملك الصالح كرسى السلطنة على عكس الجند الترك الذين عضدوه ، ولذا استكثر منهم حتى يكونوا عونا له فى الحفاظ على سلطته ٠ وأسكنهم جزيرة الروضة فى النيل (الذى يسميه العامة البحر) ولذا أطلق عليهم المؤرخون « المماليك البحرية » لتميزهم عن مماليك الأسرة التى ستخلفهم « المماليك البرجية » الذين كانوا يسكنون القلعة اعتبارا من ١٣٨٢م ٠

تألفت فرق المماليك أساسا من أتراك « كيبشاك » الذين عرفوا بالاخلاص والوفاء والشجاعة واعتدال القامة وحسن الصورة ٠ وقد ضمت صفوفهم أيضا الشركس واليونانيين والكرد والتركمان ٠ وقد غمرهم سادتهم السلاطين بالرعاية والهبات والخلع من الأقمشة والاقطاعات ٠ وبذا صار جزء كبير من أرض مصر مملوكا لأمراء المماليك وأتباعهم ٠

ضمت صفوف المماليك مجموعات من المغامرين الذين أتوا اما حبا في المغامرة أو هربا من العدالة أو ليسلوا حزنا ألم بهم • وكانت فرقهم بذلك أشبه بمرجل ملىء بصنوف مختلفة من الخضروات واللحم دائم الغليان ، يتراقص غطاؤه بفعل البخار المتدافع ويوشك على القفز فى الهواء • فقد كان كل مملوك كبير منهم يدرك ان أمامه طريقان الأول يؤدى الى العرش والثانى الى السجن • فبقليل من الجراءة والحظ يمكنه أن يصير سلطانا • أما اذا تقاعس فالجلاد أو خنجر قاتل فى انتظاره غير أن بعض المماليك الذين لم يتطلعوا الى العرش ارتقوا الى مرتبة عالية فى الجيش وفى المجتمع واحتلوا مناصب مجيدة وأعتقهم السلطان وكان لهم هم أنفسهم مماليكا •

ولما كان الجيش مؤلفا من أجانب فقد كان على الضابط المملوكى أن يدفع لجنوده رواتب عالية أو أن يمنحهم فرصة للاثراء عن طريق السلب والنهب • وأقرب الغنائم لهم كانت القاهرة ، وبمعنى دقيق بيوت منافسيهم وأعدائهم •

وقد تناقل هؤلاء المماليك من رئيس لآخر كلما تغير السلطان وكان الضابط منهم من رتبة أمير ألف شخصية هامة أشبه بسلطان صغير • فالسلاطين أنفسهم كانوا مماليكا ناجحين فى مناصبهم بموافقة المماليك الآخرين وكان السلطان بذا يعد الأول بين أسوياء ولم يسمح له رفاقه أبدا بأن ينسى أنه مساو لهم وان كان هو الرئيس •

وبالرغم من تباين أصولهم الا أنهم جميعا اشتركوا فى أمر واحد هو تقلب الشخصية فالضحكة الباسمة تتناوب مع الغضبة المتجهمة والحماس يتناوب مع الفتور وأحط الشرور تتواجد فى نفس الوقت مع الروحانية الشفافة • فقد يقضى المملوك ليله فى النهب ثم يملأه النهار بالندم فيوزع على الفقراء غنيمته وقد يهم بالقتل فتراجعه نفسه بما ينتظره فى العالم الآخر من جزاء لقد اتسم السلاطين أنفسهم بهذا المزاج المفعم بالتقلب • بل وتمادوا فيه بدرجة وحشية كأن يتنقلوا من فرض الضرائب التى تتصاعد باستمرار الى مصادرة الأموال بصورة مفاجئة وتسخير الموظفين بأبخس الأجور • وقد سمح هذا النظام للموظف بأن يبتز أموال دافعى الضرائب ، تحت حجة استعادة تلك الأموال غير المشروعة صادرت الحكومة أموال هؤلاء الموظفين • فكان كل واحد ينهب فى انتظار أن ينهب هو فى دوره •

لما كان هؤلاء العبيد الذين تحولوا الى محاربين قد قدموا من مختلف بقاع العالم فقد تعددت عاداتهم وتقاليدهم وعيوبهم • لكن كل تلك

الفوارق ذابت واختفت سريعا أمام عاطفة واحدة ربطتهم جميعا ، هى انتمائهم الى الاسلام • وقد سمى المماليك مصر « المملــكة الاسلامية » وسعوا الى نيل الصدارة فى العالم الاسلامى • ولما كانوا قد استقبلوا الخليفة العباسى ، فقد اعتبروا أنفسهم ورثتــه الروحيين ، وبذا اكتسب حكمهم صيغة شرعية • واحتفظوا بسيطرتهم على المدن المقدسة فى الجزيرة العربية وطردوا الصليبيين وصدوا الزحف المغــولى ، واســتحقوا بذلك الشهرة والمجد اللذين اكتسبوهما • وتبدو لنا هنا الصــورة غريبة فبالرغم من أن مصر تمتعت بمكانة روحية كبيرة فى الخارج ، الا أنها كانت ممزقة بالصراعات فى الداخل • فالقتال فى الشوارع يتفجر بين كل لحظة وأخرى • ففضلا عن أعمال السلب والنهب التى مارسها المماليك فى أحيــاء أعدائهم كانت غارات البــدو على الريف وعلى الطرق المؤدية الى العاصــــمة ، مما أدى الى تذبذب مدادات الغذاء ومثــل هذا عقبة أمام التجارة • وانتشرت الأوبئة والمجاعات وتفجرت الفتن حينما كانوا يحسون بضعف السلطان الحاكم وأضيفت الى كل هـــذا الحرائق والزلازل التى أصابت المدينة فبدت كما وصفها أحد المؤرخين العرب كما لو أنها قد أخذت بجيش غاز • وان كان هذا لا يؤثر اطلاقا على اشعاعات القاهرة المملوكية الروحية والثقافية • فقد ظلت الواجهة على روعتها رغم القلاقل والصراعات الداخلية •

كان متوسط حكم كل سلطان خمسة أعوام ونصف ، ولذا فالمرء يدهش لعدد الآثار الرائعة والتحف الفنية التى خلفها المماليك • لقــد امتزجت فى كل منهم شخصية مدمرة وحشية الى جانب أخرى مولعــة بالعمارة وبالترف ، فاليد التى كانت تقبض على السيف كانت تحب أن تداعب سطح ابريق بديع • وقد انغمسوا فى المتع ، لشعورهم بعــدم الاطمئنان لما يخبئه لهم المستقبل ، وكطفل يبـــادر الى شراء لعبــة اذا ما وقعت فى يده قطعة نقود ، كان المملوك بشخصيته البربرية والمولعة بالمغامرة ، يعمد الى الاستمتاع الفورى بثروته • وكانت القاهرة لعبته يهدم فيها القصور والجوامع ويعيد بنائهــا ويغير باستمرار فى الطرق والميادين • وقد أدت ثروات المماليك الى تغيير أساسى فى أحياء القاهرة •

❋

لم يبــد على الرحالة الذين زاروا القاهرة واعجبــوا بها فى هــذا العهد أنهم قد لاحظوا أمارات الفوضى والاضطراب التى ألمت بسكانها • وهو تناقض يسهل تعليله كان الكثير من سلاطينهم كبيبرس وقلاوون وابنه الناصر والمؤيد وقايتباى والغورى رجالا مرموقين ، جمعوا الى جانب

رهافة الحس الفنى روحا عملية حادة . فالى جانب تشييدهم للعمـــائر اهتموا بحل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية . وبذا تمكن البعض منهم فى أن يدخل نوعا من الاستقرار الى النظام ، مثل الناصر محمد بن قلاوون الذى خلع عن العرش مرتان ، وفى كل مرة كان يتمكن من استرداده وأخيرا استقر عليه لمدة ثلاثين عاما .

والسبب الآخر للرخاء الذى تمتعت به القاهرة أيام المماليك كان يرجع الى نجاحهم فى جذب تجارة شرق حوض البحر المتوسط الى القاهرة التى صارت مركزا للنقل التجارى . وقد استفادوا من التجارة بين الهند وأوروبا مما أدى الى ثراء أهل القاهرة فى العصور الوسطى . ولثراء المدينة وفتوتها كانت قادرة دائما على أن تضمد جراحها بعد أى فتنة . كانت مدينة عامرة بالحياة والحركة لم تؤثر فيها الأوبئة المهلكة ولا الكوارث الطبيعية . وقد قال عنها فرسكو بالدى Freschobaldc الذى زارها فى عام ١٣٨٤م أن بمينائها عدد ضخم من المراكب الراسية يفوق كل ما رآه فى موانىء جنوة والبندقية وانكونى Anconi معا . وقد ذكر أن عدد سكانها أكثر من سكان توسكانا . وقد قال بعض الرحالة الآخرون أن المدينة أكبر من باريس سبع مرات . وأكد بود جيبونسى Poggibonsi أن المركبة تحتاج الى يومين كى تطوف بها . وكتب الراهب جاك دى فرون Jacque de verone فى عام ١٣٢٥ « **ان أهل القـــاهرة يتمتعون بثراء كبير نتيجة التجارة الهندية ، فالمراكب تجلب كميات هائلة من التوابل والأحجار الكريمة عن طريق البحر الأحمر .. وعن طريق البحر المتوسط (...) تجلب السفن من كل أنحـاء العـالم كل ما يمكن أن يروق للانسان** » . وقد قدر جوتشى دى دينو Guci di Dino أن القاهرة تمتد لمسافة عشرة أميال طولا وخمسة أميال عرضا وأن عدد سكانها يصل الى ثلاثة ملايين نسمة . وقد علل هذا العدد الضخم بأن المصريين على حسب قوله يحيون ألف عام . وذكر الرحالة توماس فوستر أن الأرض المصرية شديدة الخصب حتى ان النساء والمخلوقات الأخرى تنجب فى الأعم توأمين وثلاثة توائم .

وبعد قرن من الزمان وفى عام ١٤٥٨ قال روبرتو ســانسفرينو Roberto Sanscverina « **من الأفضل ألا أتحدث عن مدينة القـاهرة لأن كلامى سيأخذ على أنه أساطير . انها عظيمة الاتساع الى حد لا يصدق ، فهى أكبر من ميلانو بأربع مرات . وقد قال عنها أحد الرحالة كان قد شاهد ميلانو أن القاهرة أكبر منها ست مرات** » .

شهدت القاهرة خلال القرنين الرابع والخامس عشر ازدهارا واتساعا عظيما هدد بجعلها « وحشا مختل التناسق مع باقى أنحاء البلاد » (كلرجة Clerget كان من الممكن أن يلحظ المرء فى عاصمة البلاد فى ذلك العصر ثلاث مدن أولها القلعة وثانيها القاهرة الأصلية وأخيرا الفسطاط · كما عبر عن ذلك بيت شعرى شهير لألفنسودواكريتشيلا ·
«Mira Alcayro que incluye tres ciudades»

ظلت القلعة قاعدة الحكم فى البلاد ، بالرغم من أن بعض السلاطين قد تلمكتهم نزوات طارئة لسكنى جزيرة الروضة · كانت الحدائق تغطى القلعة ، وكان بها ايوان باهر منتصب بين قصورها · وقد ضمت القلعة مجموعة من المنشآت الادارية ، فضلا عن الحوانيت التى حفت بفنائها وامتدت على طول امتدادها الغربى ·

وتعرضت القاهرة الفاطمية الى تحولات عميقة ، فهدمت العمائر القديمة واستبدلت بأخرى جديدة ، فقد تنافس السلاطين فى المباهاة بالثراء فكان كل منهم يبغى أن يتميز عن الآخرين · أو أن يخلق ريعا جديدا لنفسه ، أو أن يكفر عن اثم ارتكبه وبذا ارتفعت فى المدينة قصور عديدة ومساجد ومدارس وأسبلة · وتحولت القاهرة من مدينة ملكية الى حى تجارى ومركز للنقل التجارى العالمى · وعلى طول شارع بين القصرين قامت الأسواق الرئيسية وامتدت الى الشوارع المجاورة · وتسابق الناس فى البناء فى تلك المنطقة حتى عزت وندرت أرض البناء ·

أخذ الحى الجنوبى الممتد الى الفسطاط فى العمران ، فقد كان أهل الفسطاط يستخدمون باستمرار الشارع الأعظم الذى كان يربط القاهرة بالفسطاط · وأدت الحركة الدائمة بهذا الشارع الى أن أقام التجار حوانيتهم على طول الطريق ، الذى كانت تضيئه ليلا أنوار المطاعم والمتاجر · وعاد العمران الى منطقة جبل يشكر بعد أن سكنها الخلفاء العباسيون الذين كان بيبرس قد دعاهم الى سكنى القاهرة بعد سقوط بغداد فى يد المغول · واتسم هذا الحى بسمة أرستقراطية حيث شيد به النبلاء قصورهم · ومما شجع على سكنى تلك المنطقة المجاورة لجامع ابن طولون وجذب اليها التجار ، أن رجلا صالحا كان قد حلم أن النبى صلى الله عليه وسلم بارك تلك المنطقة ·

وغطت ضفاف بركة الفيل الواقعة الى الجنوب الفيلات والقصور · ويحدثنا المقريزى عن قصر بناه والى حلب دخلت فيه مساحة أربعة وعشرين ذراعا مربعا من أرض البركة وفى الليل كانت أصداء المرح الصاخب تتردد على جوانبها وعلى سطحها تنزلق القوارب المزدانة بالمصابيح

كأنها النجوم • أما فى موسم الفيضان فقد كانت المنطقة تبدو كمدينة البندقية بمنازلهـا التى يحيط بهـا الماء وتغنى الشعراء بتلك البركة فوصفوها بالبدر المستدير تحيط به القصور كالنجوم (١) •

*

طرأت تغيرات ملحوظة على المنطقة الشمالية الغربيـة للعاصمة • ولما كان فم الخليج آخذاً فى الانطمار بالرمال فقد قرر الناصر بن قلاوون أن يحفر قناة أخرى تحمل اسمه فى عام ١٣٢٤ • وكانت تلك القناة تتفرع من النيل على بعد خمسمئة متر تقريبا من فم الخليج القديم ، ثم تتجه شرقا ثم شمالا حتى تلتقى بالخليج فى منطقة الطبـالة • وعلى ضفاف تلك القناة شيدت قصورا وأسواق ومنـازل وبذا عمرت تلك المنطقة •

ثم بدأت جزيرة بولاق فى الاندماج التدريجى فى شاطىء النيل منذ حكم المؤيد عام ١٤١٥ • وقد بنيت فيها الأسواق والمخازن والحمـامات حتى صارت فى القرن الخامس عشر ميناء للقـاهرة • وتأثرت الأحياء الشمالية للعاصمة من ظهور تلك الضاحية الجديدة وبدأت فى الزحف التدريجى نحو شاطىء النيل •

والى شمال باب الفتوح كانت توجد قرية الخندق ، حيث كان أهل القاهرة مولعون بالنزهة فى الربيع وفى موسم الفيضان • وكان بهـا مزارع خضروات وحدائق نخيل وفاكهة أخرى وأسواقا ومسجدا • لكن الكوارث حلت بالعاصمة فى عام ١٤٠٣ أدت الى خروب البلدة ، وظل جامعها مغلقا حتى عام ١٤١٢ حيث هدمه الأمير طوغان •

وعلى الجانب الآخر فى المنطقة الشمالية الشرقية امتدت الجبانات مثلما امتدت الأحياء الشمالية الغربية • وظهرت فى سفح القلعة مدينة فعلية للموتى • فبعد أن شيدت قرية بدر الجمالى امتلأ الوادى بالمقابر ، التى ماثلت قبابها خوذات القتال ، فبدت المنطقة للناظر كما لو كانت ميدان معركة هائلة تناثرت عليه الدروع ووصلت الجبانة الى منطقة باب النصر حيث لامست مدينة الأحياء • وتكونت جبانة فى المنطقـة التى يشغلها الآن حى العباسية •

ولا تشبه تلك الجبانات الجبانات الأوروبية ، فلم تكن الأسوار تحيط

---

(١) نظرى الى بركة الفيل التى اكتنفت ... بهـا المناظر كالأهداب للبصر
كأنمـا هى والأبصـار ترمقها ... كواكب قد أداروها على القمـر

بجبانات المسلمين لتعزلها عن العالم المحيط ، فليس الموت هنا الا امتدادا للحياة والميت لا يغادر أرض الأحياء ، لكنه يغير فقط من سكنه • ولهذا تمضى الحياة بين القبور فيعبر بينها المارة ويلعب حولها الاطفال وتتصاعد فيها الضوضاء كأحد أحياء المدينة المزدحمة • وهذا يفسر لنا سبب فخامة مقابر المماليك • وقد احتاجت المنشآت الخيرية الملحقة لطاقم عمال كبير فبنى السلطان برقوق على سبيل المثال منازل للفقراء وللعمال وعائلاتهم حول مقبرته كما بنى قايتباى بالقرب من مدرسته منازلا لطلاب الأزهر وللعلماء • وقد حاكى الأمراء سلاطينهم ، فحول تربة الأمير قرقماس شيدت متاجر ومطابخ واصطبلات ومدارس وحفرت آبار وأقيمت سواق لجلب الماء •

ومن هذا يمكن أن نتصور العدد الكبير من العمال التى تطلبته صيانة تلك المنشآت والذى جعل منها مناطق جذب للتجار • فاذا أضفنا الى ذلك ما اعتاده المصريون ، كما يقص علينا ابن بطوطه ، من قضاء ليلة الخميس والجمعة ، خصوصا يومى ١٤ ، ١٥ شعبان بالقرب من مقابر ذويهم فيمكننا أن نتخيل بسهولة طوفان الباعة الجائلين الذى كان يتبعهم •

*

كان افتقار القاهرة لتخطيط منظم ومنسق نقطة الضعف الوحيدة بها • لقد كانت أشبه بخليط متنافر الوحدات ، كما لو كانت ثوبا مبرقش الألوان وكانت القاعدة هى عدم النظام • وقد اقتصر جهد السلاطين على بعض النواحى الفرعية مثل اجبار أصحاب المتاجر والمنازل على تعليق مصابيح على أبوابها واحتفاظهم بأوان مملوءة بالماء لاطفاء أى حريق محتمل • وكان قصارى جهدهم • فلم يدر ببال السلطان أو اى من رعاياه فكرة التنظيم العام فلقد كان السكان فى قرارة أنفسهم مايزالون بدوا لم يرتقوا بعد الى مرتبة أهل المدن بالمفهوم الحديث • كان أهل المدينة يهدمون أو يقيمون منشآتهم حسبما يتراءى لهم فقد يستغل أحدهم قطعة أرض فضاء فى اقامة منشأة قد لا يكون من ورائها منفعة ثم يتركها فتؤول تدريجيا الى الخراب ومن ثم يزداد عدم الانتظام • وقد يعمد أحد أصحاب المنازل الى شراء أرض مقابلة عبر الشارع • ويبنيها ثم يقوم فى مرحلة لاحقة بوصل المنشأتين فيقطع على الناس طريقهم • وكان كل قاهرى شديد الالتصاق بحارته وهى مجموعة الشوارع التى يقضى فيها معاملاته ويلتقى فيها بأصدقائه ففى الليل تغلق الأبواب التى ظلت حتى القرن التاسع عشر تعزل كل حارة عن الأخرى •

ويمكن تصنيف تلك الحارات على النحو التالى :

١ ــ الحارة تحيط بمنزل والى المدينة أو السلطان وتعرف تلك المنطقة بالميدان وتخصص للخاصة • ولدخولها يلزم المرء تصريحا من الشرطة • والى جانب السلطان وعائلته وعدد من العظماء سمح بسكناها لعدد من العمال والخدم اللازمين لقصر السلطان •

٢ ــ قلب المدينة ، وهو يتألف من الحارات الشعبية ، وبها توجد منازل متعددة الطوابق وتحتل الحوانيت الطابق الأرضى منها •

٣ ــ اذا ما ابتعدنا عن قلب المدينة وجدنا نوعا من الضواحى مثل الفسطاط وباب اللوق • ومنازلها أقل ارتفاعا وايجاراتها أكثر انخفاضا ، ويقطنها العمال والصناع وبعض التجار الذين يمارسون أعمالهم بهــا وسكان تلك المنطقة يعملون فى المدينــة صباحا ويغادرونها ليلا لبيوتهم فى الضواحى •

٤ ــ أما على أطراف البرك فقد شيدت فيلات وأحياء للمتع مثل بركة الفيل والحبش وجزيرة الروضة •

ويضاف الى ذلك فى النهاية الحارات التى سكنها أناس من ملة أو قومية واحدة مثل حارات الفرنج والروم والقبط واليهود •

❋

تؤلف شوارع القاهرة وأزقتها شبكة شديدة التعقيد فبعضها كان يمر من تحت منازل أو ينتهى بسد • وأقل المشاوير يحتاج فيه المرء الى كثير من الانعطافات • وقد سقفت تلك الطرق بألواح خشبية أو بحصر أو شقق من قماش أو سقائف من قش لحماية المارة من وهج الشمس • وقد ضاعفت الشرفات البارزة من سمت الواجهات (المشربيات) من الظلال حتى كان المرء يحتاج أحيانا الى أن يضىء مصباحا فى وهج النهار • ومن ناحية أخرى تمتعت تلك الطرقات بطراوة كبيرة حتى فى ابان قيظ الصيف وقد اقتطعت المصاطب التى كانت تبنى أمام المتاجر للجلوس عليها ونصبات المقاهى والحوانيت جزءا من أرض الشارع •

كانت حياة القاهرة خارج المنزل آنذاك متعددة الألوان وان افتقدت الى الراحة أما داخل المنزل فقد تمتعت بقدر كبير من الرفاهية •

كانت المنازل تكسى بالجص وتزين بالرسوم وتزخرف بالفسيفساء سقوفها وحوائطها • وتغيض أرجائها الســتائر والأرائل والنمــارق والأبسطة • وفى كل مكان فرشت أبسطة مخملية أضفى بريقهــا على

أبسط الأركان جوا من الثراء • وقد ذكر المقريزى أن المرء يراها حتى فى أبسط الأماكن ، أما الفقراء قد استخدموا الحصر الملونة بدلا منها • وكان بكل الحجرات تقريبا كوات مدببة العقد محدثة فى الجدران تحفظ فيها أشياء عدة مثل الاوانى الفضية أو الذهبية أو العاجية أو البلورية المزخرفة أو الأوانى الصينية كما كان بها مصابيح من نحاس أو فضة مشغولة وضعت أمام مرايا حتى تضاعف من لمعان بريقها •

وعلى السرير توجد مرتبة حشيت قطنا وقد وضعت على سجادة وغطيت بملاءة من قماش واغطية من صوف أو قطن كما استخدمت صناديق خشبية كصواوين واحيانا تكون تلك فاخرة الصناعة ومطعمة بالعاج المفضض أو المذهب •

وقبل أن يقوم لويس التاسع بحملته على مصر زار القاهرة طبيب من بغداد ، وقد وجد فندقه مزودا بوسائل حديثة للراحة من تهوية لطيفة وجهاز للتقطير لتطهير الماء وحمام به صنابير للماء الساخن والبارد • وقد قال مشولام بن مناحم Mushullam ben Menahem فى عام ١٤٨١ م « لا يوجد فى مكان آخر حمامات شعبية تفوق فخامة حمامات القاهرة » واضاف : « وهى مزودة بكنائف » • وقد وصف كل من أبى حمدى وجوس دوجستل Josse de Ghistele قصر السلطان فقالا : « أنه كان مفروشا ببلاط رخامى وهواؤه معطر كما لو كان مشبعا بالمسك ، وسقوفه عالية ، وكل شىء يعطى احساسا بالراحة ليتذوق المرء لذات حياة جنة عدن قبل أن يذهب اليها » • ويمضى الرحلة قائلا « أن ما رآه داخل القصر هو افخم شىء يمكن للمرء أن يتخيله فقد كسيت الجدران بألواح حجرية مصقولة متعددة الأنواع من مرمر أبيض وأسود وأحمر الى حجر الثعبان Serpentine والبرقير والعقيق الأحمر وغير ذلك من الأحجار النفيسة مختلفة الألوان •

فاذا ما تركنا قصور السلطان الى بيوت الطبقة الوسطى لوجدناها تضم أنماطا متعددة من الوحدات شديدة الاختلاف :

أحيانا كانت تلتف حول فناء متسع مركزه « حوش » وحدات سكنية تستطيع استيعاب ثلاثين أو أربعين أسرة وللحوش مدخل واحد وبه بئر للمياه •

وأحيانا أخرى تبنى حول المدخل حجرات سقف الوسطى منها أعلى من الأخريات وأكثر اضاءة أيضا وتخصص كغرفة استقبال « سلاملك »، وخلفها تبنى حجرات أخرى ، وحول تلك الغرفة يلتف دهليز يلعب دورا

قريبا من دور « الحوش » ويبنى الحوش فى أقصى جزء من المنزل محاذيا السلاملك وغالبا ما يكون هذا النوع من المنازل مخصص لأسرة واحدة ٠

والطراز الثالث من المنازل يمثل حلقة وسطى بين الطرازين الأولين ، فهو يضم فناءا مثل النوع الأول لكن الغرف منظمه على نسق الثانى ويجد المرء فيه المخادع على جانبى الفناء وهذا النوع من المنازل صغير يفتقر الى سلاملك فيتحتم على الرجل الذى يدخله ان يصفق بيديه قائلا « يا ساتر » حتى تتوارى النساء عن طريقه ٠

وتوجد أيضا منازل متعددة الطوابق أو ذات وحدات متصلة « ربوع » وقد يضم الربع منها من عشرة الى خمس عشرة وحدة ٠

وعلى اختلاف تخطيط تلك المنازل فقد كانت تشترك فى سمتين : مراعاة فصل الجنسين ٠ وانكسار دهليز المدخل (الدركاة) حتى تمنع المارة من استراق النظر الى داخل المنزل ٠

وكان بالكثير من المنازل غرفة استقبال للرجال « مندرة » تبنى فى الدور الأرضى ٠ وكثيرا ما كانت تزود بمقعدة (قاعة مزينة بعقود ترفعها أعمدة وتفتح على الفناء) وبهذا يكون جيد التهوية ولذا يستخدم فى فصل الصيف وأيام الأعياد أو الاستقبالات ٠ وتوجد أيضا نوافذ مغطاة بمصبعات خشبية تحجب الناظر تسمح لنساء الحريم بمشاركة الرجال وهن مستورات فى احتفالاتهم ٠

وأخيرا نأتى الى الخان (ويطلق عليه أحيانا وكالة) والفندق ٠ والنوع الاول بناء قد يكون مربعا أو مستطيلا يستخدم لايواء التجار ، وبه حوانيت معقودة تفتح على الفناء المزود بمدخل واحد وبه مخازن وورش الصناع ٠ وبالدور الأول دهليز يلتف حول الفناء يؤدى الى مخازن مخادع ويمارس المرء البيع والشراء أو تحويل العملة فى الفناء وأشهر تلك الخانات خان الخليلى الذى وصف بأنه يشبه قصرا كبيرا لأحد النبلاء يضم ثلاث طوابق ٠

أما الفندق فيتميز عن الخان بجنسية من يقطنه ، فالخان مخصص للمصريين أما الفندق فللأجانب ٠ ويمكن للجالية التى تقطنه ان تستخدم فيه نقودها أو موازينها ومكاييلها ٠

وكانت أسطح المنازل القاهرية مزودة « بملقف هواء » وصفه ليون الافريقى قائلا :

« تشتد الحرارة فى فصل الصيف لدرجة ان من المعتاد بناء نوع من الأبراج المفتوحة على أسطح المنازل وقاعدتها تكون مفتوحة بمستوى الغرفة فيدخل الهواء من أعلى ويخرج من أسفل » . ويضيف بروسبر ألبان Prosper Alpin **« انه نوع من الأنابيب فى قلب المنازل يجتذب الهواء ويعلو السطح مسافة عشرة أذرع فى المتوسط . ويوجه الملقف نحو الشمال ولا غنى عنه لأى منزل حتى أفقر منها . فهو يستقبل ريح الصبا العليلة وينقلها الى داخل المنزل » .**
وتلك الطريقة مستخدمة فى السفن الحديثة .

كانت الحدائق كثيرة وربما كان هذا تأثيرا عراقيا ، وما شجع عليه وفرة المياه سواء من النيل أو الخليج أو الآبار أو البرك الجديدة فضلا عن سهولة العناية بالنباتات الخضراء .

*

كانت التجارة تمارس فى الأسواق والسوق هو صفان من الحوانيت على جانبى طريق قد يكون مسقوفا أو مكشوفا . وكانت تلك الحوانيت « دكاكين صغيرة تفتقر الى التهوية والضوء الجيد . ويجلس صاحبها على مصطبة مفروشة بالسجاد أو الحصير خارج الدكان ويجلس الى جواره العميل . وبالرغم من تواضع تلك الحوانيت فى هيئتها الا أن بعضها كان يطوى كنوزا ثمينة . ويغلق الحانوت بباب ذو مصراعين أفقيين يستخدم العلوى منها وقت النهار كمظلة للحانوت والسفلى كنضد للبيع والشراء . وقد يشترك أكثر من تاجر فى حانوت واحد يتناوبون فيه العمل على ورديات . فيحدثنا أبو المحاسن عن حانوت صغير ملاصق لجامع ابن طولون كان يمارس فيه ثلاث من التجار عملهم بالتعاقب الأول كان يبيع غزل القطن من الفجر حتى الظهر ، والثانى يستخدم الحانوت كمخبز حتى صلاة العصر أما الثالث فيبيع فيه الحمص والفول .

وفى الليل كان هناك حرس موكلون بحراسة الحوانيت يقومون بأعمال الدورية وكانت تلك الأسواق تضم جميعا اثنى عشر ألفا حانوتا اصطفا على جانبى الطريق الذى يبدأ من عند جامع الحاكم بأمر الله حتى تربة السيدة نفيسة مارا بجامع ابن طولون . ولابد ان أصحاب الحوانيت كانوا يضيقون ذرعا بنشاط الباعة الجائلين ويتشاجرون معهم . فالواحد منهم يفرش بضاعته على منصة صغيرة على الطريق ويحاول ان يجذب اليه المشترين وينجح فى ذلك لكن هؤلاء الباعة كانوا يعيقون حركة السير

فيطاردهم رجال الشرطة مدفوعين بشكاوى أصحاب الحوانيت المتضررين لكنهم لم ينجحون أبدا فى استأصال شأفتهم ٠

وكما هو الحال في الشرق فقد كان التجار يتجمعون حسب تخصصاتهم ، فعند باب الفتوح وجد الجزارون وباعة الحبوب والتين المجفف وعلى مقربة كان السروجيون يمارسون نشاطهم فاذا ما قصدنا الى الجامع الأقمر لداعبت أنوفنا روائح متباينة فى اثارتها للشهية تتصاعد من المطابخ والفاكهيين والشوائيين وبوجه عام من باعة الأطعمة الذين تحف حولهم سحابة من الذباب ٠ وحول الجامع الأقمر تراكمت مئات الفوانيس الشمعية التى تستخدم بكثرة فى شهر رمضان وهى على درجة كبيرة من الرقة تنبعث من بريق معدنها الأبيض ٠

فاذا ما اتجهنا الى باب النصر فسنلقى أنفسنا وسط شلال دافق من الأقمشة المبسوطة يعرضها كل من كانت حرفته تتعلق بلباس أهل القاهرة من حائكين وصباغين وغيرهم ٠ وعلى مقربة منهم علقت شباشب أزواجا فى صفوف مدت على حبال ٠ وفى البقعة الواقعة بين جامع الأقمر والخرنفش يحسب المرء نفسه فى معرض هائل للطيور يتداخل فيه صوت الدجاج مع ارجاع البلابل وهديل الحمام فقد كانت الطيور تعرض فى هذا المكان بأنواعها أما ارضاء لشهوة البطون أو تشنيفا للأذان ٠

ويقصد البقعة الواقعة أمام تربة السلطان قلاوون عملاء من نوع آخر انهم الضباط والجنود من المماليك الذين يسعون الى شراء سيوف وحراب ودروع وزرود من باعة السلاح ٠ ويردد فى نفس تلك البقعة رنين القطع النقدية التى يتداولها الصيارفة وغيرهم وينافس بريق الجواهر فى حوانيت الصاغة ضياء أشعة الشمس ٠ والى الجنوب من ه مدرسة الملك الصالح أيوب حيث يتجاور باعة الحلوى بطعامهم اللذيذ مع الوراقين (المكاتب) باعة أغذية الروح ٠ وعلى الجانب المقابل من الطريق قرب بيمارستان (مستشفى) قلاوون نصادف من جديد الجند وهم ينتقون المهاميز وقد أخذوا يتقلبون بين تلك الرخيصة المصنوعة من الحديد ، وهذه الغالية المتخذة من الفضة أو الذهب الخالص ٠ وبالقرب من تلك البقعة أخذ باعة الأقمشة فى عرض بضاعتهم من المفروشات والطنافس والى جوارهم باعة الفراء المتخذ من السمور أو الفاقوم (حيوان من فصيلة بنت عرس) أو السنجاب ٠ أما عند أبراج باب زويلة الهائلة فقد اتخذ باعة الحلوى حوانيتا لهم ومن بينهم من تخصص فى صناعة تماثيل حيوانية أو انسانية من السكر ٠

لعب التجار الأجانب دورا هاما فى الحياة التجارية القاهرية . فمن كانوا ؟ يأتى اليهود فى المرتبة الأولى الذين استطاعوا بمهارتهم النفاذ فى كل مكان ، فى أوروبا حيث لم يكن يسمح للعرب دائما بالدخول وفى العالم الاسلامى حيث لم يكن يلق التجار الأوربيون ترحيبا كبيرا . ومن بعد هؤلاء يأتى الفرس وكثير من الأوربيون وخصوصـــا الايطاليون من البندقية ومن بيزا وصقلية وأيضا اقليم الأرجون ومن فرنسا .

فماذا كان يشترى هؤلاء أو يبيعون فى مصر ؟ منذ القـرن الثامن الميلادى صـــارت مصر مركزا هاما لتجـارة العبيد فكان بعض التجار يسافرون حتى منغوليا فى آســـيا الوسطى لجلب الارقاء . وقد حظى الشركس والســلاف وجورجيون والأتراك على اقبـال كبير . فكان ثمن الواحد منهم أعلى من مثيله من الزنوج . فعلى ســـبيل المثــال اشترى السلطان قلاوون فى حداثته بمبلغ ألف قطعة ذهبية .

*

والسلعة الثانية كانت التوابل . وكان تجارها يجنون من ورائها أرباحا هائلة حتى انه قيل عنها انها سقطت فى بدء الخليقة من الجنة فحملتها مياه النيل وقذفت بها الى أرض مصر . وأهم أنواع التوابل التى كانت ترد هى القرفة والقرنفل والمستكة والفلفل والزعفران وحتى القرن الخامس عشر كان البلسم شـــديد التوفر فى القاهرة . فقد كان يزرع فى المطرية وعندما كان النبات يمتلىء بالعصارة ، كان يخدش ، فيسيل البلسم منه ، ويجمع ويترك لفترة ، ثم يسوى على النار . ثم يوزع السلطان بعضا منه على أصدقائه وعلى المستشفيات ويرسل الباقى منه الى ايطاليا .

ومن بين السلع التى اشتد عليهــا الطلب كانت المومياوات (وهى الأجساد التى حنطها قدماء المصريون) فكان يستخلص منها عقار . وقد اعتقد انها تتألف من مادة القطران التى حفظت اللحم البشرى وقد خلطت مع مجموعة من المواد المطهرة . وكان منهـــا نوعان المومياء البيضـــاء وهى الأقل جودة ، والمومياء السوداء وهى الأفضل وخصوصا اذا كانت لبنت عذراء وقد ساد الاعتقاد قديما فى قيمتها العلاجية . فصدر منهـــا فى عام ١٤٢٤ م الى فرنســـا كمية قدرت بـ ١٢٥ اكى ذهبى écus (الواحد منها يســـــاوى ٣ فرنكات) للكوينتـــال quintal (مائة كيلو جرام) .

ولن نطيل فى سرد بقية قائمة السلع التى كانت تباع فى القاهرة

حينذاك خشية الاملال ولكن لنذكر باقتضاب بعض المنتجات الحيوانية مثل درقات السلاحف وريش النعام والسياط من جلد فرس النهر والجلد المراكشي كانت الخامات المعدنية تجلب من أوروبا عدا الذهب الذى كان يأتى من السودان ، والأحجار الكريمة من سيلان والهند وايران • ونذكر أيضا السكر المصنوع فى الفسطاط والسجاد المنسوج فى مصر وان كان يسمى « سجادا تركيا » الخ • فاذا ما أردنا الاختصار لقلنا كان المرء يجد كل شيء فى القاهرة ، ومن كل أنحاء العالم من بغداد والجزيرة العربية والقسطنطينية وسوريا والمغرب كان يأتى الناخاسون الى القاهرة ليزودوها بالعبيد •

*

ترك لنا المصورون الذين زاروا القاهرة فى العصور الوسطى لوحات لها مفعمة بالحياة مثل شوارعها وهى مكتظة بالناس نهارا ، أو أبواب حاراتها الخشبية وقد أغلقت ليلا وحسبما يذكر لنا فرسكو بالدى Frericobaldi وقد سبقت الاشارة اليه ، ان أكثر من مائة ألف من سكانها كانوا ينامون فى الحدائق أو على قارعة الطريق • وان عددا من الطباخين كانوا يمارسون مهنتهم فى الطرقات ليلا ونهارا ويطبخون فى قدور بديعة من النحاس المبيض وطعامهم فائق الجودة الى الحد الذى يفضل الناس معه الا يطبخوا فى منازلهم ويكتفون بشرائه من الأسواق « ويتناول المارة قطعا من لحم الخيل (!) والحمير (كذا) (!) والجمال فى أطباق نحاسية ويأكلونها جالسين القرفصاء وبعدها يلعقون اصابعهم» (خورى) ويخبرنا المقريزى بطعام العامة فيقول : « مأكل أهل القاهرة الدميس (الفول المدمس) والصير (صغار السمك) والصحناء والبطارخ • ولا تصنع النيلة (وهى حلاوة القمح) الا بها وبغيرها من الديار المصرية • وفيها (القاهرة) جوار طباخات ، أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ، لهن فى الطبخ صناعة عجيبة ورياسة متقدمة » ، « وكان زيت بذرة الكتان يستخدم فى طهى الطعام ويتم الحصول عليه بسحقها بأقدام العصارين الحافية أما فى الأحياء الراقية فكان المستهلكون يصرون على ان ينظف العصارون أقدامهم بحجر الخفاف وان يرتدوا كمامات على أفواههم (مزاهرى) • وكان هذا الزيت غالى الثمن ، لذا كان يتم فى كثير من الأحيان خلطه بزيت الزيتون رخيص الثمن • أما عن الشراب فيقول المقريزى « وعامتها يشربون المزر الأبيض المتخذ من القمح ، حتى ان القمح يطلع عندهم سعره بسببه ، فينادى المنادى من قبل الوالى بقطعه وكسر أوانيه ، ولكن كان المرء يكتفى عادة بشرب الماء • وكان يوجد بالمدينة

مهرجون يسلون أهلها : « **كانوا يرتدون القرون ويكســـون أجسامهم بالريش ويكسبون وجوههم تعبيرات غاضبة ويحملون فى أيديهم مصابيح كديوجين * ويقومون بحركات عابثة وقفزات مجنونة كالبلياتشو الحالى « خورى »** •

« كان رجل الشارع يتسم بالمرح والتسامح ويهتم بجودة طعامه وحسن شرابه وكان يميل الى الضحك أما قارس القول فلا يغضبه • لكن رجلا جادا كالرحالة بن سعيد يعبر عن سخطه فيقول « **ولا ينكر فيها اظهار أوانى الخمر ، ولا آلات الطرب ذوات الأوتار ولا تبرج النساء العواهر ، ولا غير ذلك مما ينكر فى غيرها من بلاد المغرب** » •

*

وقد أثار حسن بنية أهل القاهرة حينذاك اعجاب الرحالة فيقول عنهم سيمون سجولى Simon Seqoli « **انهم قوم شـديدى الحسن ، أجسامهم تفوق أجسامنا ، وكلهم يحرص على ان تكون له لحية شـديدة طويلة • وبها عدد كبير من المعمرين الذين تعدوا الثمانين ومن الممتع حقا ان نتأمل جمال هؤلاء وما هم عليه من مهابة** » • أما عن نسائهم فيقول الرحالة الانجليزى جون ليو John Leo « **انهن جميلات •• ومثيرات الى حد ما ولا يظهرن عداء لمن يريد المرح • وتمارس بعضهن التجارة • ويذهبن الى الاسكندرية ودمياط مثل التجار الكبار • ويركبن للانتقال خيلا وحميرا حسـنة الزينـة كما يركبها الرجـال** » • ويتحدث عنهن محمد أبو حـامد بحماس كبير ويذكـر حديث الامام الشـافعى : « **من لم يتزوج مصرية لم يعرف الزواج الحق** » (١) •

ويصف جيل الراعى Gilles le Bovvier الذى زار مصرا عام ١٤٥٠ م أهل القاهرة فيقول :

« **يرتدى أهلها ثيابا تشبه تلك التى يرتديها الشمامسة فى فرنسا عندما ينشدون فى القداس • وهى منتظمة الاتساع سواء فى أعلى أم فى أسفل وثيابهم مشقوقة فى النصف وهم لايرتدون أحذية ولكن يلبسون نعالا صفراء وعندما يذهبون الى المدينة وعندما يكونوا فى الخان يخلعونها حتى يريحوا أقدامهم • ويرتدوا على ثيابهم عباءات من نسيج ابيض كما يفعل القساوسة الفرنسيون • ويلفون حول رؤوسهم قماشا يبلغ طوله**

(*) فيلسوف يونانى روى أنه كان يسير فى وضح النهار وبيده مصباحا قائلا أنه يفتش عن الحقيقة •

(١) ترجمة عن النص الفرنسى •

من ثلاثين الى أربعين ذراعا ويســـمونها toques ويختارون لها أقمشة ثمينة حسب قدراتهم ولا يتنكر هؤلاء الناس أبدا فهيئاتهم دائما واحدة .
وعندما تخرج نساؤهم ترتدى الواحدة عباءة من قماش وطرحة ترخيها على رأسها ونقابا خفيفا على وجهها وترتدى نعلا أصفرا ويمكن لهن بهذا رؤية الناس لكن الناس لا يستطيعوا رؤية وجههن » .

ولايمكن للمرء ان يخفى دينـه فى القاهرة حيث يرتدى المسيحيون عمامة سوداء أو زرقاء ، اما المسلمون فيرتدونها بيضاء واليهود صفراء .

ويرى المرء أحيانا فى الطريق ثلاثة أو أربعة رجال مقيدين بسلسلة حديدية مشدودة الى وثن يحرسهم « وهم لصوص يستجدون الناس وقد فرض عليهم السلطان ان يدفعوا اليه مدنيين أو ثلاث كل ليلة فإن لم يدفعوها ضربوا . وبينما هـــم يستجدون الناس لا يتورعون عن سرقتهم اذا اتيحت لهم فرصة حتى ينجوا من العقاب الذى يتوعدهم بالليل » .

*

يعيش كلا من الرجال والنساء فى انفصال فلا يحق للمرأة ان تبدو فى مجتمعات الرجال خـلا الراقصـــات منهن والمغنيات . لكن مجتمع النساء ، لا يخلو من مرح ونشــاط « فهن يتنزهن فى الحدائق ويعنين بمنازلهن ويعنين بتربية أطفالهن . وكثيرا ما يســتقبلن أصـدقائهن فى الحريم فينشغلن بالحديث عن الأزياء والزينة ويخضن فى ذكر الخوارق أو يتبادلن الاشاعات ويتحدثن عن الزواج ووصـــفات الجمال أو اعداد الطعـام » (مزاهـرى) وعندما يردن اللهو يجتمعن ويحضر لهن الخدم الحلوى ولذيذ الطعام على صوان كبار . وتأتى مغنيات وراقصات يرقصن على أنغام موسيقى مكفوفى البصر ، وهم من يسمح لهم بالدخول الى الحريم من الرجال .

« كان الذهاب الى الحمامات العامة من أكبر متع نساء ذلك العصر فالى جانب الاستحمام كن يتجملن فيها . وبعد أن تفرك أجسادهن بقفاذ من صــوف خشن كن يتنــاولن طعام يأتى به خدمهن من منازلهن ، ثم يسترحن ساعة أو ساعتين وتعتنى بتجميلهن امرأة تعرف « بالبلانة » ، وهى تتولى صبغ شعورهن بالحناء فى عنــاية فائقة حتى لا تلطخ جبـاه أو أعناق زبائنها بتلك المادة . وتكسب الحناء الشعر درجة جميلة من الاحمرار . وكانت الشقراوات يصبغن شعورهن بالسواد لأن القاهريين لم يكونوا مولعين بهذا النوع الا اذا كان فى حريم السلطان اميرة شقراء تعمد النساء الى محاكاتها . وكانت النسوة تنظفن اجسامهن من الشعر

بعجينة كبريت الزرنيخ الأصفر والكلس تترك الجلد أبيض وناعم الملمس ٠ ويتبع هذا صبغ الأظافر والمساج ٠ ثم يأخذن حماما فاترا لاراحة الجسد وبعده يستمتعن بالحلوى والفاكهة (مزاهرى) ٠

ولم تكن كل امرأة فى القاهرة تضع الحجاب ٠ فقد كان هذا الترف قاصرا على المنعمات منهن وكانت المسيحيات يرتدين النقاب أيضا ٠ فهو اشارة على ارتفاع المكانة الاجتماعيـة على الدين ٠ والنسـوة المحترفات يرتدينه للحفاظ على نضارة الوجه ونقاء بشرتهن٠ أما الغاسلات والناسجات وصابغات الملابس فلم يكن فى وسعهن ان يتمتعن بهذا الترف ٠

« والاحتفاظ بالنسوة فى قسمهن بالمنزل (الحريم) حيث تخدمهن الجوارى ترف لم يكن يقدر عليه البسطاء ٠ فكان على نسائهم ان يخرجن الى الطرقات مكشوفات الوجوه آيعنين بشؤونهن ٠٠

ولم يكن من الجائز للرجال دخول الحريم الا ان المنجمين والأطباء والتجار ورواة القصص كانوا يدخلون اليه على ان تتحجب النسوة كما يفعلن لو اردن الخـروج ٠ ولا يدل وجـود الحريم بالضرورة على تعدد الزوجات ، فمثل هذا التعدد لم يكن الا بمقدور الأغنياء ، فحريم أهل الطبقة الوسطى الصغرى والعمال لم يكن يضـم الا زوجـة واحـدة » (مزاهرى) ٠

« كان الرجال يطلقون اللحى فى العادة ٠ وطول اللحية وشكلها ولونها يحدد مكانة صاحبها : فهى طويلة عند أهل الطبقة الوسـطى ، وقصيرة عند العمال والخدم » (مزاهرى) ٠ ويحلق شعر الرأس تماما عدا خصلة واحد (شوشة) بيد ان رجال الدين والعلم كانوا ينظرون الى تلك العادة بازدراء ٠ وكان لكل رجل ذو مكانة ختم يحمل اسمه ولقب عائلته وعلامة صانع الختم وتاريخ صناعته ٠ وكان على صانعى الأختام الاحتفاظ بسجلات تحفظ طبعات من الأختام التى يصنعونها ٠ وكانت تصنع من البرنز أو الفضة أو اليشب أو الذهب ٠ اما اختام الحكام فمن العقيق تتخذ أو الزمرد أو الماس ٠ وتلك الأختام تقوم مقام التوقيع ٠ وأحيانا تكون تلك الأختام على خواتم تلبس فى خنصر اليد اليمنى وكان المرء يعنى بحمل الشبك (غليون ذو بلسـم شديد الطول) معه فى كل مكان ولذا كان الثراه يكلفون أحد الخدم بحمله والسير به خلف سيده ٠ **« وكان معظم الرجال يحملون مسابح تتخذ من خشب البقس او الليمون او الأبانوس أو خشب الورد أو العنبر او حجر اليشب او الصدف ٠ ويستخدمها أهل الورع فى التسبيح بينما يستعملها الأميون كعدادات ٠**

ويعمد بعض المترذون الى اسقاط حباتها حبه بعد الأخرى بحركات رشيقة تظهر جمال أيديهم » (مزاهرى) ٠

❋

كان الدين يلعب دورا هاما فى حياة القاهرة ٠ فمن على قمم المآذن ينادى المؤذنون على الصلوات الخمس التى شرعها الاسلام ٠ ويختار لاداء تلك المهمة فى الغالب المكفوفين حتى لا يجرحوا حرمات أسطح المنازل المجاورة ٠ وعند آذان العشاء يضىء المؤذن مصباحا فى أعلى سارية من الخشب حتى ينبه قاطنى الدور البعيدة الذين لا يصل اليهم صوته ٠ ويساعده رجال درسوا علم الفلك كى يتمكنوا من تحديد مواقيت الصلاة فاذا ما عاقتهم لسحب عن رؤية السماء ٠ لجأوا الى ساعة مائية محفوظة فى المسجد ٠ وهى تعلن عن الساعات وانصافها وأحيانا أرباعها بأصوات موسيقية ميكانيكية فى النهار ٠ أما فى الليل فتستخدم مصابيح مختلفة الألوان ٠

❋

ولتزويد المدينة والمارة بالماء شيدت العديد من الاسبلة ٠ وقد بناها الأثرياء ليكفروا عن أثامهم فى الماضى ٠ وبالسبيل خزان أسفل مستوى الطريق يملأه لسقاؤن بقربهم ٠ وعلى واجهة السبيل أحواض تظللها سقيفة ويأتى اليها الماء من أنابيب رصاصية ويشرب الناس منها مباشرة أو يستخدمون أكوابا توضع على حواف نوافذ السبيل ٠ وعلى نواص الطرقات توضع ازيار فخارية يشرب منها الناس ٠ كان بالمساجد نفورات للوضوء يمكن أن تستخدم لجلب الماء للشرب ٠

❋

ويحدثنا الرحالة عن أفران التفريخ المشهورة بالمدينة ، التى كانت تستخدم لتفريخ البيض بتعريضه للحرارة ، فيمكن للواحد منها ان ينتج من خمسة آلاف الى ستة آلاف بيضة فى ستة أيام حسبما ذكروا ٠

يقال ان أهل المدينة لا يؤذون ابن عرس الذى يكثر فى كل مكان لأنه يقتل الثعابين ٠

وكلاب المدينة تتمتع بدرجة كبيرة من الوطنية فلكل مجموعة منها منطقة معينة ٠ والويل كل الويل لمن يجرؤ منها على الدخول فى منطقة الآخر ٠

ومن متع القاهرة حينذاك كثرة طيورها التى تضفى على الحياة

مظهراً حلوا بأصواتها والعابها • فتوصف في رسالة الى زكى الدين الحسينى **« وقد امتلأت بهن الآفاق ، وتكللت بنجومهن الأمـــلاق ، وشربن من جريالها فأسكرهن الاصطباح والاغتباق : فكم من مسود كخـال بخـد ، وأزرق كاللا زورد ، وأشقر كزهر ورد ، أحمر ناصع ، وأصفر فاقع ، وأبيض ذو خضاب عندمى ، بلطيف منقار بقمى ، ومبرقش ومبقع ، ومعمم ومقنع ، واشقر منقش ، وارقش مرشش وعودى وهنـــدى ، وصينى مسنى ، وعينين كياقوتتين قد رصعتا فى اجين ، وكم من طائر ابهى من قمر سائر ، بفرق مثل صبح مسافر • وكم من اطيار طراف ملاح لطاف ، ذوات الحان ونضرة وألوان ، وخلق وأخلاق ، ونطق وأطواق ، وايناس مع شماس •• قد ازدانت الأرض بأصواتها » •**

وقد لاحظ الرحالة جونا Jauna فى عام ١٥٥٤ م كثرة النعام فى أطراف القاهرة وكان قنصـل فرنسا يحتفــظ فى بيته بواحــدة مستأنسة قال عنها الرحـــالة : « **انها لا تنفك تأكـل طيلـة النـهار** » أما فرسكو بالدى فقد لاحظ كثرة الحمائم حتى انها اتخذت لها ثلاثة أعشاش فى حجرته ووصف رحالة آخرون حيوان غريبا شاهـدوه فى النيل (يبدو انه التمساح) قائلين : « **انه أشبه بثعبان ضخم يدعونه** calcatrix رأســه ضخمة كرأس الجواد وجســده أشبه بالوحش **الذى قتله القديس جورج** » •

*

وخير ما يمكن أن يصور لنا الحياة فى قاهرة العصــور الوسـطى أشعار شعرائها وقصص ألف ليلة وليلة التى كتبت فى هذا العهد وتدور حوادثها فيها • وخلف لنا البهاء زهير (توفى عام ١٢٥٨) ، سكرتير الصالح أيوب أشعارا ، تحمل نبرة حسية تدور حول الحب فيقول عن معشوقته :

فمها مثل خط الجمال •• قامتها كالرمح

وبالرغم من رقابة الأهل والحراس نقرأ عن الفتيات اللاتى يلاقين احبائهن • وبالرغم من وصايا الرسول فقد لعبت الخمر دورا هاما فى حياة القاهرة • ويقول عن هذا الزهير :

لنشرب ونلهو يا رفاقى وليذهب الرقيب الى الجحيم

كان الكثير من سلاطين المماليك مولعين بالخمــر حتى ان بيبرس العظيم كان أحيانا ينصرف عن تصريف شؤون الدولة لسكره •

ولم يكن المرء يشرب وحده بل يفضل المجالس التى تسود فيها روح المرح وتتناثر فى أرجائها الأزهار . ويضمخ الواحد لحيته وثوبه بماء الورد ويحرق البخور والعنبر الرمادى فى مباخر . وكان الرقص والغناء رفيقين لا غنى عنهما لمثل تلك المجالس .

ويقوم بالغناء فتيات مرحات رشيقات كالصفاف وجههن حسنة كالأقمار ويرددن أشعار الحب العربية على موسيقى العود ، بينما تتمايل الراقصات بحركات شهوانية على صوت الرباب والدف .

وينتقد ابن سعيد بشدة بعض أوجه الحياة فى القاهرة :

لا تركبن فى خـــليج مصر	**الا اذا اسـدل الظــلال**
فقـــد علمت الذى عليـه	**من عـالم كلهــم طغـام**
صـفان للحرب قد اظـلا	**سـلاح ما بينهـم كلام**
يا سـيدى لا تسر اليـه	**الا اذا هــوم النيـــام**
والليل ستر على التصابى	**عليـه من فضـله لثـام**

وينتهى من شعره قائلا :

لله كم دوحــة جنينـا	**هنـاك أثمـارها الآثـام**

*

وعند الاحتفال بالأعياد الكبرى والأحداث الهامة ، تطوق بالمدينة مواكب احتفالية وتنتظم تلك المواكب على نحو دقيق . فعلى سبيل المثال خرج السلطان بيبرس يستعرض جيشه فكان يسير فى القلب ، ممتطيا جواد ، مرتديا جبة من حرير أسود . ذات اكمام واسعة غير موشاة . وكان يرتدى عمامة من حرير فاخر يتدلى طرفها بين كتفيه . وعلى جانبه يتدلى سيف بدوى فى غمده تخفيه الثياب . ويسير أمامه الأمراء حاملين رموز السلطنة . وكانت غاشـية الجواد (غطاء الخيل) مغشاة بالذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة . ويحمل أحد الأمراء أو قائد الجيش مظلة فوق رأس السلطان وهى مصنوعة من الحرير الأصفر ومتوجة بصورة طائر جائم على قبة من ذهب .

ويكسى جواد السلطان بغطاء من جزئين من الستان الأحمر ويغطى مؤخرة الحصان من الحرير الأصفر المطرز بالذهب ويغطى عنقه . وعلى مقربة منه تحمل الراية السلطانية وتحمل فرق الجيش رايات من الحرير الأصفر تحمل شعارات قوادها . ويسـبق السلطان بخطوات غلامين على فرسين أبيضين بسرج مطعمة ، ويرتديا ثيابا من حرير أصفر مقصبة

بالذهب وكوفيات من نفس النسيج • وعليهما ان يفسحا الطريق للسلطان • وفى المقدمة يسير لاعب مزمار بصحبة أحد المغنين الذى يحمل دفا وينشد عن أعمال البطولة للملوك الأقدمين • ويصحب الموكب شعراء ينشدون القصائد وامام وخلف السلطان يسير الحرس شاهرين المطاريد (حربة مزودة بفأس ومفردها مطرد) والى يسار السلطان يسير الجوكندار (حامل مضرب السلطان فى لعبة البولو) وهو يحمل « خناجر الدولة » فى أغمادها • أما الى يمين السلطان فيحمل درع وخنجر آخر • وبالقرب منه يأتى الجمكدار (حامل الصولجان) وهو رجل وسيم طويل القامة يحمل الصولجان ذو الرأس الذهبية وهو لا يرفع عينه أبدا عن وجه سيده • ثم يتوالى مسير كبار الضباط والقادة محفوفين بقدر أقل من الاتباع •

*

وأحيانا يذهب السلطان الى الصيد • ويصحبه فى رحلته خمسة أو ستة آلاف فارس معهم الصقور والفهود • وأحيانا أخرى كان يمارس ألعابا رياضية كلعبة البولو • وتلعب تلك اللعبة فى ميدان واسع محدد بخطين على كل جانب وتوضع فى وسطه كره بحجم رأس الانسان منفوخة بالهواء ثم يأتى ألف مملوك على جيادهم وينقسموا الى فريقين يواجه الواحد منهم الآخر • ويحاول كل واحد منهما أن يقذف الكرة بمضرب خلف خط الآخر • وعنف تلك اللعبة قد يؤدى الى اصابة أحد اللاعبين بكسر فى ذراعه أو قدمه • واذا ما سقط من السلطان مضربه عفوا ، تسارع المماليك الى التقاطه فمن ينجح فى ذلك يأخذ جواد السلطان وكل ثيابه التى يرتديها فى هذا اليوم •

*

ويصف لنا ابن دقماق الذى عاش فى نهاية القرن الرابع عشر عيد وفاء النيل • فعندما يصل ارتفاع ماء النهر الى ستة عشر ذراعا يعلق حاكم الفسطاط فى نافذة المقياس التى تواجه الفسطاط راية • (ويطوف بالمدينة فى الأيام التى تسبق هذا الحدث فتية يرتدى الواحد منهم غطاء الرأس أصفر اللون ويخبروا أهلها بارتفاع النيل) • واذا كانت الأنباء سارة يقدم لهم الناس بعض الهدايا •

وفى الليلة التالية تضاء جزيرة الروضة بأسرها وتكثر فيها القوارب وتزين بسخاء ويقاد فيها النفط الموضع فى أوان خاصة • وتحمل تلك القوارب التى تنزلق على صفحة النيل الموسيقيين •

ويذهب السلطان الى المقياس أو يوفد نائبه · ويقرأ القرآن حتى الصباح وينشد المنشدون مدائحهم · ثم يتخذ السلطان أو من ينوب عنه ، ان كان غائبا ، مكانه على المائدة · وتعطى الاشارة فيسارع الناس الى التهام الطعام المعد فى الليل والذى نضد فى صفوف متوالية · وعندئذ يدخل السلطان أو أحد الأمراء المقياس · ويهبط « ابن أبى الرداد » الى القاع ويملأ كوبا به بعض الزعفران بالماء ، ويرشه على بدون العمود الذى قسم الى درجات توضح ارتفاع الماء ·

وبعد تفريق الخلع على حاكم الفسطاط وشيوخ بحارة المراكب السلطانية والأمراء والعظماء يذهب السلطان بسفينته الى السد الذى يسد الخليج ليكسره · وهناك يجتمع معظم الأمراء وكبار الموظفين على قنطرة · وعندما يصل الرجل الذى كان قد نثر الماء على عمود المقياس يتناول معولا ويضرب به السد · ويقلده الآخرون فما يلبث الماء أن يجرى فى الخليج ·

وفى هذا اليوم يعمد الناس الى التنزه فى القوارب المزينة ويحملون معهم الطعام ويستمر الاحتفال أسبوعا قد ينفق فيها تاجرا كل ما ربحه أثناء عامه المنصرم ·

❋

كان الكثير من سلاطين المماليك رجالا عظماء مولعين بالأبنية الجليلة · فها هو بيبرس (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧) مثالا جيدا لهم · كان من أصل تركى أزرق العينين · وقد اشترى بثمن بخس فى طفولته بسبب اصابته بالمياه البيضاء Cataracte وكان ضخم البنية ذو قوة هائلة وجرأة وحيوية فائقة شابت نفسه القسوة والتعطش والانتقام وكان دائم التجول فى أنحاء الدولة حتى ليبدو فى أكثر من مكان فى وقت واحد · وقد راعى فى صرامة تعاليم الاسلام فلم يتخذ سوى أربع زوجات كما حدد الشرع وعاقب بصرامة شاربى الخمر · وبالرغم من أنه كان مكروها من الأمراء المحيطين به الا أنه صار فى وجدان الشعب المصرى لفترة طويلة بطلا للعديد من القصص التى كان الرواة يقصونها على الناس فى الأماكن العامة · ومات بيبرس من كأس مسمومة أعدها لخصم له وشربها خطأ ·

وتدين له القاهرة بمدرسة شيدت فى عام ١٢٦٢ م وبالجامع الذى يحمل اسمه ، والذى بنى فى عام ١٢٦٩ م خارج سور المدينة ·

ويقع حاليا فى الحى المعروف باسم « الظاهر » وقد بنى برخام وخشب جلبا من قلعة يافا فى فلسطين · وحوله الفرنسيون أثناء حملة

نابليون بعد خمس قرون من هذا التاريخ الى القلعة ٠ وفى عصر محمد على صار مذبحا ، ثم استخدمته قوات الاحتلال البريطانى مجزرا ٠ أما الآن فقد تحول صحنه الذى يذكرنا بجامع ابن طولون أو الحاكم الى حديقة عامة تتجاوب فيها أصداء ضحكات الأطفال طيلة اليوم ٠

واحتاج السلطان فى عام ١٢٧٥ م الى أعمدة لتزيين احدى منشآته فى القاهرة فأمر بهدم باب البحر حتى يستفاد من أحجاره الضخمة فى هذا الغرض ٠ وأثناء الهـدم وقع حادث أثار الاهتمام ٠ فقـد عثر على صندوق بين جدران الحائط ٠ وجد فيه عندما فتح تمثال صـــغير من النحاس الأصفر ٠ مقعى على قاعدته ٠ وكان يحمل لوحا به نقش يمثل رأسا بلا جسد وكتابات قبطية وصـــورا أخرى وكان بالصندوق لوح يشبه تلك الألواح ، التى يستخدمهـا الصبية فى الكتاتيب ، وكان به ثلاثة عشر سطرا الأول منها : « الاسكندر (الأكبر) ، والثانى الأرض وهبها له » ٠٠ والسطر الأخير « بيبرس ملك الزمان والحكمة كلمة الله عز وجل » « وقد استدعى أناسا يعرفون القبطية ٠ فقالوا ان اللوحة طلسم صنعة ابن الخليفة الحاكم حتى يحمى مصرا من أعدائها وضد أى خطر ٠ ويبدو أن المقريزى الذى روى لنا تلك القصة لم يفطن الى الملق الصريح الذى اصطنعه مترجم اللوحة الدعى ٠

اشتهر الســلطان قلاوون الذى خلف بيبرس بمدرســته ومقبرته ومارستانه الذى بناه وفاء لنذر نذره أثنـــاء اصابته بمرض فى عــام ١٢٨٤ م ٠ ولم يبق شىء يذكر من مارستانه الا أن مقبرته ٠ وقد أصلحت بمهارة ، تباهى بجرأة وتناسق خطوطها ٠ وقد أعيد بناء قبتها المنهارة على نسق قبة مقبرة فاطمة خاتون التى شـيدت أيضـا فى عام ١٢٨٤ م وخصصت لتضم رفات بعض أعضاء العائلة السلطانية ٠

وتعد الفسيفساء التى تكسو الجدران والدعائم المستطيلة من خير أمثلة هذا الفن فى القاهرة ٠

ومن منشآت هذا العصر تربة الأشرف خليل (١٢٨٨) الابن الأكبر لقلاوون وخليفته ٠ « وتربة الشيخ أحمد بن سليمان الرفاعى » (١٢٩١) وتربة « سنجر الجاولى » (١٣٠٤) التى تضم مقبرته ومقبرة صديقه سلار وكلا منهما تحت قبـة مميزة ٠ وأخيرا مسـجد وتربة « محمد بن قلاوون » (١٣٠٤) وبوابتها كانت قد انتزعت من كنيسة القديس يوحنا بعكا على يد السلطان خليل بن قلاوون ٠

ويعد عصر الناصر محمد بن قلاوون العصر الذهبى للعمــارة فى

القاهرة . وكان الناصر قليل الحجم ، به عرج ، ومصاب بالمياه البيضاء في عينيه (١) ، وكان قويم الأخلاق ، ذو ذكاء وافر حيوية كبيرة وارادة من حديد وان كان مخادعا كثير الحيل وشديد الانتقام . وتمتع بذوق كبير ورقى عقلى فكان يرعى العلماء وكان صديقا لأبو الفدا المؤرخ .

وهو الذى بنى جامع القلعة الذى ذكرناه آنفا بمعرض حديثنا منها وطبقا للمؤرخ لين بول Lane Poole فهو الذى بنى قناطر مجرى العيون التى كانت تغـذى القلعة بالماء الحلو والتى تنسب خطـأ لصلاح الدين .

وقد بنى مسجد آخر قرب « تربة السيدة نفيسة » و « قبة النصر » بالقرب من الجبل الأحمر ومنشآت أخرى أقل أهمية .

وفى سفح المقطم تقع « مدرسة السلطان حسن » (١٣٦٢) احدى روائع العمارة الاسلامية وقد استخدمت مرارا كحصن لمهاجمة القلعة . وتروى أسطورة ان السلطان قد أمر بقطع يد مهندسه عند فراغه من البناء حتى لا يبنى مثله وكما يقول المقريزى « لا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحاكى هذا الجامع » . ويقول عنه جايه Gayet « انه حقا من ابداع عمائر الفن العربى بضخامة نسبه ودقة نقشه وبهاء رخامه ولين ورقة زخارفه ونعومة رسـومه ونقـاء فسيفساءه وروعة نقوشـه » .

ولا يجب أن ننسى مدرسـة السـلطان المؤيد (١٤١٥) بحديقتها الرائعـة التى تتوسطها فوارة بديعة تكاد تتوارى بين أشجارها وخمائلها وأحواض زهورها . وقد حلت محل سجن عرف بخزانة شمائل سجن فيه الأمير منطاش المماليك الذين قمع ثورتهم ومن بينهم مملوك نزر الى الله ان نجى من تلك المحنة ليشيدن مسجدا على تلك البقعة التى قاسى فيها الآلام . وما لبث أن صار سلطانا فلقب بالمؤيد . وقد أوفى نذره وتنهض مئذنتا المدرسـة شامختين على برجى باب زويلة وتزين بوابة المدرسة مقرنصات أنيقة على بساطتها .

وعلى نسق السلاطين أراد كل أمير أن يقيم مدرسة أو جامعا أو تربة أو حتى فوارة .

---

(١) يذكر المقريزى أنه كان مصابا بالحول . ويقول انه كان مهابا عند أهل مملكته بحيث أن الأمراء اذا كانوا يخدمونه لا يجسر الواحد منهم على أن يكلم آخر كلمة واحـد ولا يلتفت بعضهم الى بعض خوفا منه .

وقد أدهش حماس مسلمى مصر الرحـــالة ابن بطوطة الذى زار القاهرة فى عام ١٣٢٦ م • فبين عامى ١٣٢٠ ، ١٣٦٠ بنى أكثر من أربعين مسجدا فى القاهرة منها ما يعد من ابدع المساجد التى نعرفهـا ، ونذكر منها « الأمير الماس » (١٣٣٠) الذين تزين بوائكه الزنابق وجامع « المردانى » (١٣٤٠) الذى تفصل صحنه عن بيت صلاته أحجبة خشبية بديعة ومسجد « اقسنقر » أو « ابراهيم أغا » (١٣٤٧) المعروف حاليا باسم « الجامع الأزرق » وتزين حائط قبلته بلاطات من القيشانى الفارسى مزينة بزهور خضراء أو زرقاء اللون على أرضية بيضاء وتضفى الشجرة المزروعة فى قلب الصحن روعة على الجامع الذى يشع ســحرا بتناسق تسبه مع جوه الحنون الصديق •

ولا يفوتنا ذكر « مدرسة وخنقاه شيخو » (١٣٤٩ ــ ١٣٥٥) وقد بنيتا متواجهتين على جانبى طــريق • وواجهاتهما متطابقتين وكــذا مئذنتيهما • وأيضا « مدرسة صرغتمش » (١٣٥٦) الذى جلد برخـام بديع يحمل رنك (شعار) مؤسسه •

❋

ولن نمضى فى تعداد عناصر ذلك العصر أكثر من هذا لكن لابد من الاشارة ولو ببضع كلمات الى المقابر المشيدة فى البقعة المعروفة اليوم خطأ « بمقابر الخلفاء » فليس هناك مكان فى القاهرة أكثر منها يوحى للمرء أنه قد عاد فى الزمان الى العصور الوسطى أيام المماليك • فلا شىء هناك يذكره بالقرن العشرين نمضى الى تربة وخنقاه فرج بن برقوق (١٤١٠) بقبتيها الحجريتين وهما أول القباب الحجرية فى مصر فيما يغلب وتنسجما فى اتساق غريب مع الصحن الرائع الذى كان يخطو فيه المقريزى (١) يوما • الى الشمال يقــع مسجد وتربة وخنقاه (٢) اينال (١٤٥٦) • وخرائبها تعطى انطباعا بعظمة واتساع المنشآة التى لم يصل الينا منها سوى مئذنة بديعة • والى الجنوب تنهض تربة قايتباى (١٤٧٤) احدى روائع الفن الاسلامى فى القرن الخامس عشر •

---

(١) احمد بن على المقريزى (١٣٦٤ ــ ١٤٤٢) مؤرخ قاهرى مشهور اسرته من أصل شامى الا أنه عاش حتى وفاته فى مدينة القاهرة وخلف لنا كتابا عظيمـا عن جغرافيـة المدينة واهم عمائرها وعادات أهلها وتاريخها اسمه (المواعظ والاعتبـار بذكر الخطط والآثار) •

(٢) كلمة فارسية وتعنى بيت وتخصص لسكنى الصوفية المنصرفين الى العبادة ويتكفل بأمر معاشهم الأوقاف التى يهبها للخنقاه المؤسس وهو أشبه بالدير عند المسيحيين •

فالمرء لا يملك الا أن يعجب بروعة نسبها اذا ما شاهدها من بعيد فالممر الذى يؤدى الى بيت الصلاة والمقبرة مقبى يذكرنا بالعمارة القوطية . وتتسامى المئذنة الرائعة الى السماء فيتحول بدنها من مكعب الى مثمن فاسطوانة بصورة تبهج العين بتباين تلك الصور . وحلياتها المعمارية تؤلف وحدة متناسقة لطيفة فيرى المرء فى الدورة الأولى كوات مزينة بأعمدة صغيرة ، وشرفتها قائمة على مقرنصات ، بينما سورها مؤلف من أشكال نجمية متشابكة وترفع الشرفة التالية مقرنصات مخلقة فى البدن . وتنتهى المئذنة بقمة بصلية .

وقد آلت تلك الآثار الى حالة سيئة فتآكلت جدرانها فى كل مكان وتشرخت قبابها الضخمة وتصدعت بوائكها فانكشفت أعمدتها الى السماء . وفى ليلة مقمرة يشعر السائر بينها أن جدرانها قد استحالت الى حجب فضية قد تشف فينفذ البصر الى تلك المقابر الشامخة حتى يتملى من عظمتها . ويميز المرء بوضـــوح الزخارف العربية التى تتشابك على أسطح قبابها فوحداتها النباتية الرقيقة تتوج قمم الجدران وانعكاسات الضياء التى تتناثر هنا وهناك فى صمت الجبانة تخلع عليها مظهـرا خرافيا يفصلها عن أرض الواقع حتى ليخال للمرء انهـا عادت لساعات محدودة الى سابق مجدها .

*

وصلت القاهرة الى ذروة مجدهـا فى النصف الأول للقـرن الرابع عشر تحت الادارة الحازمة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون . ومع الأمن الذى نعمت به البـلاد ، أتى الرخـاء وتواكب نجـاح سياسة السلطـان الخارجية مع الداخليـة فنعم الفـلاح بالأمن من طغيـان الأمـراء بفضـل الاجراءات الصارمة التى اتخذها السلطان . وأثار ثراء القاهرة الحمية فى مختلف ميادين النشاط مما دفع بها الى الأمام . وأدى ثراء السلاطين والكبراء الى اغراق المتاجر بالسلع المختلفة مما عاد بالربح على التجارة وارتفاع حصيلة الضرائب وأضفت الاحتفالات العديدة بالأعياد قدرا من البهجة على حياة البسطاء .

ثم على نحو مفاجىء تتوقف القاهرة عن مسيرتها وكأنما قد أنهكها الاعياء . وتبدأ سلسلة الصعاب بالوباء الرهيب الذى أصابها فى عام ١٣٤٨ . وتتزايد الفوضى ويعم الظلم فى الريف . وتتصاعد حدة الصراع بين الأمراء وترتفع معها الضرائب وتدهور قيمة النقد . ويعانى الناس من القحط وتقفر احياء فى القاهرة . وأخيرا تصـاب الأنشـطة التجارية

والصناعية بضربة هائلة بتدخل السلطان وذوى النفوذ بأشكال عدة من مصادرات الى بيع السلع الاجبارى بأغلى الأسعار ٠

ويتهم العثمانيون بأنهم هم الذين قضوا على حضارة العصر المملوكى الزاهرة ٠ لكن حقيقة الأمر أن الاضمحلال كان قد بدأ يدب منذ وقت طويل ، فقد كتب دومينكو ترفيسانو Domenico Trevisano فى عام ١٥١١ عن القاهرة قائلا : **أنها لا تستحق بأى شكل السمعة التى تشاع عنها** » ٠ والحق ان ظلام الحكم العثمانى قد ساعد على سرعة أفول نجم القاهرة الذى كان قد بدأ فى غسق عصر المماليك ٠

السيادة العثمانية

ارتقى سليم الأول عرش الامبراطورية العثمانية فى عام ١٥١٢ . ودفعه طموحه الى ضم ديار بكر فى شمال العراق ثم الموصل وسوريا ، ثم أرسل الى السلطان المملوكى فى مصر طومان باى (١) يأمره بالاستسلام له . ورفض طومان باى الاذعان له فنشبت الحرب ، وهزم المماليك فى الريدانية فى ٢٢ يناير ١٥١٧ لكن سيادة العثمانيين على مصر كلهـــا احتاجت بعض الوقت . فقد استمر طومان باى فى الكفاح وأحرز بعض النصر لكنه هزم ثانية . وخانه أحد شيوخ البدو . فأسلمه الى عدوه وقد عامله سليم الأول فى بداية الأمر ببعض الرفق . وأخذ يسأله عن الادارة وعن موارد البلاد . فلما أخذ ما أراد ، أمر بشنقه على باب زويلة حيث علقت جثته أياما . ومع سقوط حكم المماليك الذى بدأ عام ١٢٥٠ م انتهى استقلال مصر . وانتقلت السيادة الفعلية الى القسطنطينية وأن استمر المماليك يحكمون البلاد رعايا للسلطان العثمانى . ولم تعد القاهرة عاصمة لامبراطورية اسلامية . فكما خلفت القاهرة بغداد كمقر للخلافة العباسية التى عليها الدور لتتنازل عنها الى القسطنطينية .

(١) هكذا فى النص ولعل صحتها الغورى الذى قتل فى معركة مرج دابق فى سوريا ثم خلفه طومان باى .

مكث السلطان سليم فى مصر حتى سبتمبر من عام ١٥١٧ وكان مقيما فى قصره بناه بجزيرة الروضة · وقد نظم الحكومة الجديدة فى البلاد تاركا لمن خضع لسلطانه من المماليك بعض امتيازاتهم القديمة · ثم غادر مصر وبصحبته الخليفة « العباسى الأخير وعدد من الصناع سخرهم فى تجميل القسطنطينية وألف جمل محملين بالذهب والفضة وغير ذلك من مواد ثمينة ·

*

وقد تقارب النظام الذى وضعه العثمانيون لحكم البلاد مع النظام السابق فى كثير من النقاط · فبعد أن كانت القلعة مقر سلطان ينتخبه المماليك ، صارت مقر باشا يعينه السلطان العثمانى · وتألفت الحامية العثمانية من خمسة عشرة ألفا الى ثلاثين ألف رجل من انكشارية وعزب (مشاة) وسباهية (خيالة) ولكن ظلت الارستقراطية المملوكية هى القوى المسيطرة على القاهرة · كان عددهم حوالى عشرة آلاف رجل وتلقب أمراؤهم بلقب بك « وقد ألفوا ديوانا» قويا فرض سيطرته على الباشا وأحيانا استطاع عزله وأحيانا أخرى كانت الفتن العسكرية تتكفل بهذا الأمر ، وحرص العثمانيون على استمرار تلك الفوضى الادارية حتى لا يستقل الولاة بمقاطعاتهم ·

ولم ينحدر هؤلاء المماليك الجدد من المماليك القدماء وان كانوا من نفس الجنس فلقد عمد السلطان سليم الى التخلص من كل من وقع فى يده منهم · لكن هؤلاء الجدد واصلوا سيرة قدمائهم · وعلى اختلاف أجناسهم من أتراك وشركس وجورجيين فقد كانوا يمتلكون كثيرا من الضياع الحسنة فى الريف ودورا جميلة حول بركتى الفيل والأزبكية وشارع « سوق السلاح » وكان فى خدمتهم جند من المرتزقة وشهدت شوارع القاهرة معاركهم كما كان الأمر فى الماضى وقد انقسم المماليك الى فرقتين متنافرتين :

« القاسمية » أو « الحمر » و « الفقارية » أو « البيض » وصار كل حى « حارة » عبارة عن قلعة مسلحة قائمة بذاتها · وبالطبع كانت أكثر المناطق تعرضا لتلك الفتن هى المناطق المجاورة للقلعة ، مقر السلطة التى كثيرا ما تعرضت للحصار من الطامعين فيها · ومن قمة المقطم كان البكوات المماليك يقصفون بمدافعهم قصر الباشا أو مآذن الجوامع التى يستخدمها منافسوهم كأبراج حربية · وبالرغم من ضراوة تلك المعارك وتعاقبها الا أنها لم ترق الكثير من الدماء · وكثيرا ما كان الجنود ، وقد

ضاقوا بضآلة رواتبهم وقلة مؤنتهم ، يغيرون ولاءهم لمن يعرض عليهم أكثر • ويعمدون الى نهب الأسواق والاتيان بالفظائع من كل نوع وكانوا يمارسون التجارة • فيفرضون أنفسهم على تجمعات التجار ويجبرونهم مع الصناع على استئجار أبناء الجند كشركاء أو كعمال معهم •

وأدى افتقار البلاد الى حاكم قوى وتجزء السلطة واطلاق العنان للغرائز الى الفوضى الشاملة • ومن ثم شهدت العاصمة انتفاضات شعبية ففى عام ١٦٩٥ أخذت جماعات من الشحاذين فى قذف الأحجار ثم سرقوا كميات من الحبوب وفى عام ١٧٦٨ • أدت مشاجرة بين تاجر من خان الخليلى وأحد المارة اضطراب دام ثمانى أيام تحول خلالها خان الخليلى الى معسكر محصن • ومن جانب آخر دعى الكثير من المتعصبين الناس الى الثورة والتنفيس عن آلامهم بمهاجمة المسيحيين والتجار الأجانب • وقد تجرأ البدو أحيانا على مهاجمة العاصمة للنهب والسلب • ففى عام ١٥٥٦ سدت جميع منافذ المدينة حتى اضطر الناس الى بناء حائط ليقيهم شرهم • وكما كان الأمر فى الماضى تعرضت البلاد الى فيضانات مدمرة أو الى الجفاف والوباء مما كان يدفع بالكثير من البائسين الى الزحف على العاصمة • ولم يبال أحد من الحكام سواء الباشا أو المماليك بما يعانيه أهل البلاد • بل أن بعضهم كان يتعمد احداث المجاعات حتى يرفع من سعر السلع الغذائية فيبيع ما اختزنه منها بربح فاحش •

وأدى كل هذا الى ارتفاع أعباء المعيشة والأزمات النقدية وتوقف الأعمال واهمال صيانة القنوات والمجارى المائية • وتدهورت التجارة مع الخارج تدهورا كبيرا فى القاهرة بعد أن كانت تلك التجارة مصدرا لثراء المدينة • فتتقوقع على نفسها ويأفل نجمها • وبينما كان ايرادها من الرسوم التى تفرضها على التجارة يتضاءل كانت الخرائب فى أنحائها تتزايد • كان كل الخلاف بين النظامين الجديد والقديم للقاهرة هو غياب فترات السلام الذى يفرضه وصول سلطان قوى الى العرش ، وهو ما كان بمنأى عن مقدرة أى باشا ممن عينتهم القسطنطينية لقصر مدة ولايتهم ، ولخوفهم المستمر من مرؤسيهم •

*

كانت أقوى شخصيتين فى تلك الفترة هما رئيس المماليك أو محافظ القاهرة أو كما كان يدعى « شيخ البلد » (الذى تلقب فى القرن الثامن عشر بلقب باشا) ، ثم أمير الحج وكان كلاهما من المماليك ، والى جانبهما صار قائد الحامية العثمانية فى القلعة شخصية شديدة الأهمية •

أما الباشا فكان عليه فقط تنفيذ أوامر السلطان ، فيختار البكوات وحكام الأقاليم وينظم قافلة الحج الى مكة وامداد المدن المقدسة الاسلامية بالمؤن . وكان مقيما فى القلعة ويرأس الاحتفالات الهامة فى العاصمة مثـل العيد الكبير وقطع الخليج لكن مهمته الرئيسية كانت ارســال الجزية الى استانبول (اسلامبول) أما همه الشخصى فكان تنمية ثروته .

والى جانب الباشا ، كان هنــاك ديوان يتألف من ست قادة من الفرق العسكرية لجيش الاحتلال واثنى عشر من بكوات المماليك .

وقد حاول بعض الباشوات انجاز بعض المشروعات المفيدة لكن قصر مدة ولايتهم أعجزتهم عن تنفيذ المشاريع التى تحتاج الى وقت طويل . ومنهم سنان باشا أول حاكم تركى عينه سليم فقد شيد جامعا فى بولاق وســوقا وخانات ومستودعات عدة للبضائع ومنهم من افتقر الى قوة الشخصية كعويس باشا ، الذى عجز عن فرض ارادته ، فعندما حاول فى عام ١٥٨٨ أن يضبط النظام فى الفرق المحلية ، تمردت عليه وهاجم المتمردون الديوان ودخلوا الى حريم الباشا ونهبوا كل ماله قيمة ومن بين ذلك ساعة تبين الأيام ، ففر عويس باشا بينما هجم الجند على بيت قاضى العسكر وقتلوا قائد الجاويشية . وحملوا اثنين من القضــاة وقطعوا رأسيهما . ثم نهبوا المخازن وبيوت الأمراء الفارين . وأخيرا حملوا أطفال الباشا رهائن ومنذ ذلك الوقت اضطر الحاكم الى الاستجابة الى أى مطلب للجند . واستمر هذا التمرد حتى أتى باشا آخر أخمده .

ومن بين هؤلاء الباشوات من اتسم بالوحشية والسادية ومنهم مسيح باشا وقد عينه السلطان مراد قرب نهاية القرن السادس عشر فقتل عشرة آلاف انسان نعتهم المؤرخ بأنهم من المجرمين الذين كان عددهم قد زاد زيادة كبيرة فى عصر الباشوات السابقين .

وكان على باشـا (١٦٠٠) يستمتع فى كل مرة يخرج فيهـا الى شوارع القاهرة بتهشيم رؤوس عدد من الأشخاص حتى أن جواده كان يعود فى كل مرة الى القلعة ملطخا بالدم .

وكان مصطفى باشا (١٦٢٤) يفحص بانتظام تركات الأثرياء ، فيصادر ما يريد منها قبل أن يرد الباقى الى الوارثين الشرعيين بيد أن حسن باشـا (١٦٣٠) ذهب الى حـد أبعد فقد كان يستولى على التركة بأكملها فلا يبق شيئا للوارثين وعندما كان يرى تجمعا فى أحد الطرق ، ينقض بجواده ، ويستل سيفه فيطعن به من يطوله بقصد التفكه . وقد أحصى من مات على يديه بتلك الطريقة فكانوا اثنى عشر ألفا .

ولكن لم يكن كل الباشــوات على شــاكلة هؤلاء الوحوش • فهناك اسماعيل باشا والى مصر عام ١٦٩٦ لقــد أراد أن يحتفل بختان ابنــه ابراهيم الذى بلغ الخامسة عشرة • فدعى الى هذا الحفــل كل وجهــاء العاصــمة والأقاليم ممن يمكنهم التغيب عن أعمالهم بضعة أيام • وأعلن فى الناس أنه سيكسو كل من يرغب فى أن يختتن مع ابنه كل حسب قـــدره •

واستمر الاحتفال عشرة أيام ، قدمت بعروض سليمة فبينما كانت الاستعدادات قائمة للاحتفال كان بمقدور المرء من سكان القاهرة أن يتسلى بمشاهدة عروض مصارعة بين الحيوانات أو سباق للخيل أو ألعاب تؤدى بالرماح والبنادق أو يشاهد عروض المهرجين والبهلوانات • وقد مــد أحدهم حبلا طوله أربعمائة قامة (حوالى ٨٠٠ متر) من أحد المآذن الى سور القلعة وأدهش المشاهدين بحركاته البهلوانية التى أداها وهو على ارتفاع كبير •

وفى اليوم التالى أعلن عن بدء الاحتفالات بضرب المدافع والطبول ، فتوجه الوجهاء الى قصر الباشا •

ولم يكن فناء القلعة يتسع لأكثر من ألفى جواد ، لذا اضطر معظم المدعــوون الى ترك خيولهــم فى الأفنية الســفلية لضيق المكان وكثرة عددهم• وكانت سروج الخيل مرصعة بالأحجار الكريمة ومكسوة بالقماش المطرز الذى ينسدل حتى الأرض •

وفى وســط الفناء نصبت خيمتين وســط جموع الخيل احداهما خصصت للراقصات وعازفى الآلات الوترية ، والثانية خصصت لضاربى الدفوف والطبول وعازفى آلات النفخ وعند قدوم أحد البكوات أو عند ختان أحد الأطفال تدق الموسيقى لتنبه المدعوين الى هذا الحدث الهام •

وتسلم كل واحد من أهل بيت الباشا البالغ سبعمائة أو ثمانمائة فرد ثوبين من الستان الانجليزى من ألوان مختلفة ، وثوب من قماش انجليزى ومعه سروال وآخر من فروة الثعلب المسكوفى • وكان أقل عبد يرتدى ثيابا حسنة وعمامة من الموسلين طرز طرفها بالذهب مسافة أربع أصابع ولفت حوله طاقية من المخمل أو من قماش انجليزى • أما ابراهيم بك ابن الباشا فقد استبدل ملابسه الفاخرة ثلاث مرات أو أربع •

وفى الليل أنار المدينة مائة ألف مصباح ، كانوا يؤلفون أشكالا متنوعة كل يوم ، منها كتابة علقت على نخــلة تقول « أننى لا أنمو الا بالختان » وهو اشارة الى عملية التقليم السنوية لهذه الشجرة •

وقد أعد لطعام البكوات ثلاثمائة طبق فى كل يوم وللباشا ومدعويه سبعمائة طبق وللخدم ثلاثة آلاف • وكان ما يفيض من طعام يفرق على الناس ، فبعد أن تناول أربعة آلاف شخص طعامهم فى القصر أطعم عشرة آلاف فقير فى مختلف الأحياء •

وقد ختن فى الصباح خمسمائة صبى تسلم كل منهم حسبما كان قد أعلن ثوبا وسكان بندقى Neguin وقد طهر ابراهيم بعدهم جميعا • ثم خرج فى موكب من القلعة حتى جامع قديم بين مصر عتيقة والقاهرة هو جامع ابن طولون وكان يتقدمه اثنا عشر تابعا يلبسون ثيابا مطرزة بالذهب ويركبون خيولا بيضاء • وكان الذهب يبدر بين الجموع ، وفرش الطريق بالأزهار وكان سرور الناس فى ذلك اليوم فائقا حتى لم تبق امرأة فى بيتها • ويعقب على ذلك المؤرخ (الجبرتى) الذى يروى لنا تلك الحادثة بأن الكثيرات منهن انتهزن الفرصة ليخترن بيوتا أفضل •

وابتهاجا بهذه المناسبة صدر عفو عن المسجونين ، ودفع الباشا ديون المعسرين بيد أن أهل القاهرة قد دهشوا لرفض الباشا قبول الهدايا المعتاد تقديمها والتى بلغت قيمتها ثلاثمائة كيس (الكيس خمسمائة قرش عثمانى) ولم يقبل سوى هدية قنصل فرنسا وهى مرآة مثمنة مغشاة بالذهب والأحجار الكريمة •

*

كانت الغالبية الساحقة من البكوات المماليك أخلاطا من المغامرين ومن اناس انصرفوا الى ملذاتهم • وبالرغم من هذا سنشير الى بعض من رجالاتهم المشهورين • ومنهم عثمان بك ذو الفقار الذى تقلد امارة الحج عام ١٧٢٩ وكان أول من دعى باشا الى حفل فى بيته ، ويقول عنه لين بول انه كان يرأس محكمة فى بيته تنظر فى الشكاوى المقدمة اليه • ولما كان رجلا نزيها فقد عاقب بشدة كل من نسبت اليهم أعمال السلب أو الاضطهاد كما أشرف بعناية على مراقبى الأسواق (المحتسبين) • وبالرغم من نزاهته وعدالته الا انه اتسم بالغرور • وقد خلف انطباعا عميقا لدى معاصريه حتى انهم ، بعد أن اضطرته مؤامرات أعدائه الى مغادرة البلاد ، كانوا يؤرخون الأحداث لعهده فيقولوا مثلا :

حدثت الحادثة الفلانية بعد كذا من السنين من مغادرة عثمان بك أو كان عمرى كذا عند رحيل عثمان بك •

كان الكتخدا (١) (يقابل وزير الداخلية الحالى) رضوان الجلفى. أحد رجالات القرن الثامن عشر المرموقين • فتحت حكمة تمتعت القاهرة باستقرار كامل ، اذ انخفضت أسعار المأكولات وعم الرخاء • وقد شيد مترلا عند الأزبكية وصفها الجبرتى قائلا : « وهى التى على بابها العامودان الملتفان المعروفة عند أولاد البلد بثلاثة وليه وعقد على مجالسها العالية قبابا عجيبة الصنعة منقوشة بالذهب المحلول واللازورد والزجاج الملون والألوان المفرحة والصنائع الدقيقة • ووسع قطعة الخليج بظاهرة قناطر الدكة بحيث جعلها بركة عظيمة وبنى عليها قصرا مطلا عليها وعلى الخليج الناصرى من الجهة الأخرى • وكذلك أنشأ فى صدر البركة مجلسا خارجا بعضه على عدة قناطر لطيفة وبعضه داخل الغيط المعروف باسم غيط المعدية • وبواسطة بحيرة تمتلىء بالماء من أعلى وينصب منها الى حوض من أسفل ويجرى الى البستان لسقى الأشجار ، وبنى قصرا آخر بداخل البستان مطلا على الخليج وعلى الأملاق (٢) من ظاهره فكان ينتقل فى تلك القصور وخصوصا فى أيام النيل، ويتجاهر بالمعاصى والراح والوجوه وتبرج النساء ومخاليع أولاد البلد وخرجوا عن الحد فى تلك الأيام ومنع أصحاب الشرطة من التعرض للناس فى أفاعيلهم فكانت مصر فى تلك الأيام مرافع غزلان ومواطن حور ولدان كانما أهلها خلصوا من الحساب ورفع عنهم التكليف والخطاب ، وهو الذى عمر باب القلعة الذى بالرميلة المعروف بباب العزب وعمل حوله هاتين البدنتين (برجين) العظيمتين والزلاقة (الحدور) على هذه الصورة الموجودة الآن •

وقد نظم فى مدحه الشاعر قاسم قصيدة يقول فيها متحدثا عن الخمر :

أكرم ببنت الكرم والدوالى ••	من الهموم غرسها دوالى
لله ما أبهى وما أسناها ••	فى كأسها كالشمس فى مرآها
يسعى بها البدر وقد أدناها ••	من شفتيه اللعس ما أحلاها

اذا ما مزجت من ريقه بالشهد

كانت نهاية رضوان بك مأساوية ، فقد أحاط بمنزله المتآمرون وقصفوه بالمدافع بينما كان المزين يحلق له شعره • فأخذ يقاتل قدر استطاعته حتى كسرت ساقه فتحامل حتى امتطى جواده ، وانطلق به هاربا الى الصعيد حيث مات •

---

(١) نائب الباشا •
(٢) للزارع •

ويحدثنا الجبرتى عن أحد بيوتات القاهرة في هذا العهد وهو بيت أحمد الشرايبي فيقول :

« كان من أعيان التجار وبيتهم المشهور بالأزبكية بيت المجد والفخار والعز . ومماليكهم وأولاد مماليكهم من أعيـان مصر جربجية (١) وامراء ومنهم يوسف بك الشرايبى وكانوا فى غاية من الغنى والرفاهية والنظام ومكارم الأخـلاق والاحسان للخـاص وللعام ويتردد الى منزلهم العلماء والفضلاء ومجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة والتغيير وانتفاع الطلبة ولا يكتبون عليها وقفية ولا يدخلونها فى مواريثهم . ويرغبـون فيها ويشترونها بأغلى ثمن. ويضعونها على الرفوف والخزائن والخورنقات وفى مجالسهم جميعا فكل من دخل بيتهم من أهـل العلم الى أى مكان بقصد الاعارة أو المراجعة . وجد بغيته ومطلوبه فى أى علم كان من العلوم ولو لم يكن الطالب معروفا ولا يمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه فان رده فى مكانه رده وان لم يرده واختص به أو باعه لا يسئل عنه وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مرارا يعتذرون عن الجانى بضرورة الاحتياج » .

وقد التزم أفراد تلك العائلة فى مشاعرهم العاطفية وطموحاتهم المادية والعادات التى تحكم حياتهم العائلية بقواعد سلوكية أملتها عليهم أخلاقياتهم مما زادت فى مكانتهم فى المجتمع وشابهت بينهم وبين بعض العائلات الأوروبية العريقة . ولم يكن المصرى يسأل كثيرا بأصل عروسه على عكس أفراد تلك العائلة الذين كانوا لا يتزوجون الا فيما بينهم .

وكانت لهم طريقة خاصة فى ادارة ثرواتهم . فيقوم واحـد منهم بادارة جميع ممتلكاتهم فكان يجمع الايرادات والأرباح ثم يوزع على كل فرد نصيبه منها .

ويلقى الاهتمام الكبير لهذه العائلة بالكتب ضوءا على مسـتوى الحيـاة العقليـة لتلك الفترة . ففى بداية العصر المملوكى تكونت فى القاهرة مكتبات أتى بعضها من الكتب التى نهبت من مساجد سوريا . ولقد كان هناك اقبال على الأنشطة الثقافية وان لم تكن تلك على مستوى رفيع . ويروى لنا الجبرتى محادثة فى عام ١٧٥٠ وقعت بين باشـا القاهرة المولع بالرياضيات والشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر . ولقد قال له الباشا انه طالما سمع ان القاهرة هى وطن المعرفة وطلب أن يرى شيء من هذا .

---

(١) رتبة عسكرية فى الجيش العثمانى .

وقد اعترف الشيخ بأن الرياضيات لا تدرس فى الأزهر الا مايتعلق منها بحساب المواريث . ثم سأل الباشا عن الفلك قائلا : « وماذا عن علم الفلك انه يلزم لساعات الصلاة والصوم وأشياء أخرى كثيرة » فصارحه الشيخ بأن قليل من الناس من يهتم بدراسته لأنه يتطلب قابليات خاصة وآلات وحالات نفسية خاصة ومزاج رقيق وهادىء . ثم أخبره أن بوسعه أن يجد مثل هذا الرجل ، ولكن ليس بالأزهر . وعندما ظهر هذا سر الباشا بعلمه فأهداه ثوبا باعه بثمانمائة دينار . وعمل مزاول من الرخام تبين مواقيت الصلاة ووضع اثنان منها على سطح الأزهر وجامع الامام الشافعى .

« ويبدو ان تلك العلوم لم تكن تتعدى السطحيات » (لين . بول)

ولقد لعب الدين فى هذا العصر دورا هاما في حياة القاهرة فقد شهدت المدينة ثورة عارمة عقب موعظة ألقاها فقيه تركى هاجم فيها التوسل بالأولياء وهى عادة درج عليها الناس وان لم تكن من الاسلام فى شىء . ولم تكن تهدئه الناس بالأمر السهل .

وكان لشيخ الأزهر مرتبة كبيرة وقد منع الناس من التدخين علنا ذات مرة فكان رجال الشرطة يعاقبون من يضبطونه مخالفا .

وتدل كثرة الجوامع التى شيدت فى هذا العصر مثل السيدة صفية (١٦٠٤) ومحمد أبو الدهب (١٧٧٤) والبردين (١٧٩٠) على العاطفة الدينية المتأججة وقد أخذ الطراز المعمارى يتباعد تدريجيا عن طراز المدرسة ليرجع الى طراز الجامع الذى كان سائدا فى القاهرة قبل عصر صلاح الدين ولم يعن هذا ان الفنان قد حاكى القدماء محاكات تامة ، فلقد تأثر بالمعمار التركى الذى كانت جوامعه الأولى كنائس ولذا تحل القباب محل السقوف المسطحة ويستخدم القيشانى فى الزخرفة مثلما نرى فى جامع اق سنقر ، الذى جدد فى عام ١٦٥٢ وغطى حائط القبلى بأكمله بالقيشانى الأزرق .

وكان أهم المولعين بالعمارة فى هذا العصر هو عبد الرحمن كتخدا الذى عاش فى منتصف القرن الثامن عشر . وقد بنى أبوه عثمان كتخدا جامعا ومدرسة وسبيل بالقرب من بركة الأزبكية ، ومدرسة للعميان فى الأزهر ومؤسسات خيرية أخرى غير ان الابن فاق أباه ففى طرف بين القصرين بنى سبيلا وخارج « باب الفتوح » شيد جامعا وآخر عند باب

الغريب (١) ملحق به حوض وسبيل ومدرسة • وبالقرب من جبانة الأزبكية شيد مدرسة وسبيل لتزويد السقائين بالماء • وأعاد بناء مشهدى السيدة زينب والسيدة سكينة وشيد جوامع أخرى بالقرب من باب القرافة وفى « الموسكى » وحى « الحسين » وشارع « عابدين » • لكن أهم منشآته كانت فى جامع الأزهر • فقد أقام بيتا للصلاة يرتكز على خمسين عمودا وبه محراب جديد وبنى مئذنة ، ووسع المدرسة الطيبرسية ووزع على طلاب الأزهر كميات كبيرة من الزيت والأرز والزبد فى شهر رمضان (لين – بول) •

ويبدو ان عبدالرحمن كتخدا كان قد جمع ثروته بطرق غير محمودة ، مما دعاه الى صرفها فى أوجه البر حتى يريح ضميره ، فنراه يقدم للشحاذين العميان وللمؤذنين أردية صوفية تقيهم برد الشتاء •

ومن بين ما رمم عبد الرحمن كتخدا جامع الامام الشافعى وضريح « السيدة نفيسة » « ومارستان قلاوون » ويحصى « لين بول » ما شيده أو رممه من جوامع فيجدهم ثمانى عشر غير عدد كبير من المنشآت الأقل أهمية • لقد كان يعمل بصدق من أجل رفاهية الأجيال القادمة • لكنه مات فى الجزيرة العربية سنة ١٧٧٦ بعد أن نفاه على بك ودفن جثمانه فى جامع الأزهر بالقرب من بوابته الجنوبية •

ويعتبر جامع محمد بك أبو الذهب (١٧٧٤) آخر الجوامع الهامة التى بنيت فى تلك الفترة • وقد سمى محمد بك بهذا الاسم لعادته بذر الذهب فى الجموع أثناء سيره وقد تمتع بشعبية كبيرة بسبب بشاشته وكرمه وتمتع بمهابة كبيرة فى مصر • وقد عينه السلطان واليا لمصر مدى الحياة تاركا فى يده كل السلطة الحقيقية فى البلاد • وفى عام ١٧٧٤ أقام مدرسته فى مواجهة الجامع الأزهر ، وفيها دفن مع ابنته •

❋

وان لم يبن فى العصر العثمانى مساجد كثيرة فى مصر الا أن ولاة الأمور لم يقصروا فى رعاية القائم منها • وان لم تكن مرمتها دائما على النحو الأمثل ، بل للاضمحلال فى عصر محمد على الذى انتزع جانبا من أوقافها التى خصصت للانفاق عليها • وانتزع من أيدى العلماء (رجال الدين) حق ادارة تلك المنشآت على الرغم من لعناتهم التى انصبت عليه • وقد دمرت كثير من الحجج التى تذكر أوقاف تلك المنشآت مما

---

(١) باب من أبواب الأزهر •

يسر نزعها وبالتالى اهمال الجوامع نظرا لقلة المال فتعرض الكثير منهــا للخراب ٠

وبالمثل حاول محمد على أن يضفى على قاهرته مسحة أوروبية ٠ فشق طرقا واسعة وأقام منشآت على حساب الكثير من الآثار الاسلامية الهامة ٠

*

زار مصر العثمانية الكثير من الرحـالة الأوربيون وعقولهم مشحونة بصور الحياة المستمدة من قصص ألف ليلة وليلة بيد أن قاهــرة ذلك العصر خيبت ظنونهم ٠ فحقا أطربهم جو الحيـــاة لكنه لم يعد يأخـــذ بألبابهم ٠ فهم لا يظهرون اعجابا بالمدينة وان اجتذبهم ســحر الحيـاة الشرقيــة فقد انقشع عن المدينــة البهاء والجلال اللذان طالما طالعـا عين الأوروبى فلم تعد تثير فى نفسه الاعجاب بصورة جديدة للحياة الطريفة

وحتى يعطوا فكرة عن مساحة المدينة ، كانـوا يقارنونهـا بمــدن أوروبيـــة لكن معظم تقديراتهم لا تتطـــابق فيصفها جرفن افاجـــار Grevin Affagart فى القــرن ١٦ بأنهـــا تماثل مساحة باريس ثلاث مرات ٠ وفى القرن السابع عشر يقول ديلا فله Della Valle انهـا تفوق القسطنطينية وروما ٠ وأعتقد كوبن Coppin انها أصغر من باريس وأقل سكانا لكن تفنو Thévenot رأى العكس أما فى القرن الثامن عشر فاعتقد كل من جرانجه Granger وماسكريه Mascrier انها تماثل باريس فى مساحتها ٠

وقدر فوستير Foster محيط القاهرة فى القرن السادس عشر بثلاثة وثلاثين كيلو متر ٠ زادها بوفو Beavau فى القرن التالى الى ستة وخمسين كيلو متر ٠ أما فرمنل Fermanel فيرى انها ستة وثلاثون كيلو متر ٠ وقد قدر جرانجه بوكوك Pococke فى القرن الثامن عشر محيط قلب المدينة بأربعة عشر كيلو متر ٠ وقال لوبرين Le Bruyn وبريس Bruce ان المرء يحتاج الى ثلاث ساعات ليطوف بالقاهرة ٠

ومما سبق يتضح لنــا صعوبة استنتاج ابعــاد دقيقة للمدينة فى هذا العصر ٠ فقد جعل ضيق شوارعها المنازل تبدو على وأدى افتقار المدينة للطرق الواسعة الرئيسية الى اضفاء طابع الازدحام على الطرقات الضيقة فى المناطق المزدحمـــة ٠ وقد تناثرت فى أرجـاء المدينة حدائق

وخرائب جعلت القاهرة تبـدو أكبر مما هى عليـه فى الحقيقة ٠ وكان يوجد فى قلب المدينة نفسها جبانات أهمها جبانة الأزبكية التى استمرت حتى القرن التاسع عشر وكانت تشغل أرضا واسعة ٠ وأدى اهمـال البرك الى اتساع مسطحاتها مع قلة عمقها ٠ وبذا عادت القاهرة الى نظام التبعثر السكانى الذى كان عليه سـكانها الأوائل من العـرب ٠ فبين الحدائق أو الخرائب أو اجمات التخيل كان المـرء يرى مجموعـات من « الأحواش » وهى عبارة عن أفنية مسورة تنهض على خرائب أبنية عتيقة أو شارع قديم ويتجمع فيها الناس مع حيواناتهم وينام فيها الفقراء فى أكواخ حقيرة تجاور ورش تقوم صناعتها على المواد الحيوانية كالجلود ويتناثر فى أرجائها الروث الذى يجف تحت حرارة الشمس ٠ وتدريجيا أخذت نسبة السكان للارض تتضائل ويقدر علماء الحملة الفرنسية مساحة الأرض المسكونة فى القاهرة فعليا بالاضافة الى مصر القديمة وبولاق بما لا يزيد عن ثمانى هكتارات أو ربع مساحة باريس فى ذلك الوقت ٠

وكان هذا العصر نهـاية الازدهار المعمارى الذى شـهدته العصور السابقة فلم تكن الأبنية الجميلة مثـل « سبيل خسرو باشا » و « منزل جمال الدين » وبعض من المساجد الا استثناءات قليلة أما أكثرية منشآت هذا العصر فقد افتقدت الى سلامة الذوق والأناقة ٠

*

ظلت بولاق ميناءا عامرا للقاهرة يقصده المسافرون وكان يضم فى نهاية لقرن الثامن عشر من ثلاثة الى أربع آلاف منزل وعشرين ألف من السكان وتزاحمت فيه الوكالات والشون والمطاعم والحمامات والأسواق والفيلات فضلا عن الجبانات ٠ وأدى تكوين جزيرة الزمالك الى سـهولة عبور النيل فى تلك البقعة عنه فى الروضة وصار بامكان فلاحى امبابة الوصول بسهولة الى قلب المدينة ٠

وترامت حول بولاق حقول كانت مياه الفيضان تغمرها كل عام ٠ وكان يربطها بالعاصمة طريقان أحدهما يؤدى الى باب الحديد والآخـر الى الأزبكيـة يبلغ طولهما حوالى كيلو متر ونصف وتحف بهما حوانيت ومنازل ٠

فاذا ما سار امرؤ فى أحدهما ألقى نفسه فى أحد ضواحى المدينة بعد أن يعبر القناة الغربية فاذا ما مر من أحد الأبواب وجد نفسه فى الحى الأفرنجى الواقع بين الخليج والأزبكية ٠ وقد تجمع الاوروبيون حول منزل قنصل فرنسا خوفا مما قد ينشب من اضطرابات ٠ الموسكى هو

الشارع الرئيسى . وقد سمى على اسم أحد أقرباء صلاح الدين « عزيز الدين موسك » ويقطن الفرنسيون مجموعة منـازل متجاورة على الخليج تؤلف حيا يعرف باسم حى (الأمة الفرنسية) . وكان من أجمل أحيـاء القاهرة موقعا وأسوأها فى نفس الوقت بسبب الرائحـة الفظيعة التى تنبعث من قناة الخليج التى تنضب فى الشتاء .

فى عام ١٦٣٨ كتب كوبن Coppin ان منازل الشارع جميلة وأجملها على الاطلاق هو منزل قنصل فرنسا ، فمدخله مثـل مداخـل الفنادق ، ويوجد عند البوابة الأمامية مكان معد لجلوس الانكشـارية الستة الموجودون دائما فى هذا المكان والذى يدفع لهم سـتة قروش فى الشهر (١) وهو (القنصل) يستخدم اثنـان أو ثلاث من الانكشـارية لحراسته » .

ووصف لنـا ليرونكور Livoncouht بيت القنصـل فى عـام ١٧٤٨ قائلا :

« يفتقر المسكن الذى أقطنه الى الراحة فضلا عن سوء موقعه لـكن أسوأ المنغصات يتمثل فى رائحة القناة (الخليج) التى تخترق القاهرة التى لا تمتلىء بالماء الا أثناء ارتفاع ميـاه النيـل من ١٥ أغسطس حتى نهاية أكتوبر . أما باقى العام فهى مستنقع يسمم ما حوله ولا أفهـم لما اختار الفرنسيون حينما استقروا هنا منطقة بمثل هذا السوء . وتطفى رائحة ذلك المستنقع بريق الزخارف المذهبـة تماما وبدون رجـاء فى اصلاحها . وأكثر المنازل تأثرا بتلك الاضرار هو منزل القنصل المشيد على حافة المجرى والذى تطلل الكثير من نوافذه عليه » .

ولم تتعد فائدة تلك القنـاة (الخليج) شـبه الجافة بيع طميهـا كسماد للحدائق .

*

كانت هيئة بركة الأزبكية تتغير على مدار السنة مثل معظم البرك ، ففى الشتاء تتحول الى مرعى أخضر عامر بالأعشاب ثم الى حقـل أجدب مترب فى الربيع فما أن يأتى الفيضان حتى تمتلىء بالماء وتعود بركة كبيرة تحف بها قصور المماليك البديعة وتنزلق على سطحها القوارب من كل لون عند الأعيـاد .

---

(١) قرش عثمان وهو يساوى خمسين نصف فضة وكان رطل اللحم البقرى المخلى من العظام يساوى نصفى فضة أو ثلاث فى هذا الوقت وقنطار السـكر بألف نصف وقس على ذلك .

وفى قلب المدينة توجد حارة اليهود بطرقاتها الضيقة القذرة ومبانيها العالية وكانت تضم عدد من المعابد (سيناجوج) وبيت الحاخام الأكبر ٠

وكثيرا ما تعرض الحى الواقع حول باب الفتوح وباب النصر وجامع الحاكم الى مياه السيول المنحدرة من جبل المقطم ٠

واحتفظت منطقة بين القصرين بأهميتها كمركز للمعاملات التجارية حيث تجمعت فيها الأسواق الرئيسية التى أخذت فى التدهور وقد ألف التجار فى النهاية أمر المعارك التى تشب بين المماليك من آن لآخر وعمليات النهب التى كانت حوانيتهم تتعرض لها ٠ وكثيرا ما عمد هؤلاء التجار فى أوقات الاضطرابات الى أن ينـاموا فى حوانيتهم بدلا من أن يعودوا الى منازلهم ٠

أما الحى الواقع خارج باب زويلة بين باب اللوق والقلعة فكان مسرحا للاضطرابات فهجره التجار تقريبا وتبعثرت فى أرجائه أطلال المنازل المهجورة وضاعف حريق شب فى عام ١٦٥٤ فى زيادة خرابه ٠

بيد أن حى باب اللوق كان أحد المناطق النادرة التى انتعشت تحت الحكم العثمانى كانت تحده فى الشمال عدد من البرك وفى الجنوب جبانة وينتهى فى الشرق بحدائق واتخذ فيه أرباب اللهو منازلهم ومشاربهم سيئة السمعة حول قصر الأمير يشبك ٠ وهناك تعود الناس أن يتجمعوا فى ميدان فسيح لرؤية الحواة ومدربى الحيوانات ٠

والى الجنوب امتد حى السيدة زينب من الخليج حتى بركة الفيل فى الشرق وقد صار هذا الحى أحد أكثر أحياء القاهرة ازدحاما فى المنطقة الواقعة بين القلعة وبركة الفيل تقام حى ابن طولون الذى امتدت مساكنه حول الجامع الشهير القائم على ربوة يشكر ٠

وعلى منحدرات تلك الربوة بنى السكان بيوتهم ٠ وعانوا ممن انحدروا من أصل تركى أو من المماليك القدماء وغلب عليهم الفقر وروح التمرد كما اتسموا بالتعصب الدينى ٠ وقد زحف العامة على كل تلك المنطقة وبالمثل على المنطقة المجاورة للقلعة ٠

أما القلعة فقبعت على شرفها الصخرى مباهية بعزلتها وقد سكنها الباشا مع جند الانكشارية « العزب » ولما كانت اقامة هؤلاء فى مصر قصيرة فقد أهملت وتداعى الكثير من منشآتها ٠ لكنها لم تفقد آثار عزها

السابق . تماما ويصفها لنا بيربلون دى من Pierre Belon du Mans يكسو الرخام جدرانها بارتفاع قامة رجل حول بواباتها ونوافذها .

وأصاب الاضمحلال « القرافة » مدينة الموتى لقلة النشاط بها « اذا جاز لنا استخدام هذا التعبير » . فعلى سبيل المثال صارت المنطقة الملاصقة لجامع قايتباى قرية بائسة تتألف من أضرحة خربة وبيوت مهجورة .

وتقلص حى مصر القديمة . وتركزت الحياة فيه حول نواته القديمة جامع عمرو وقصر الشمع . وكان الأخير اثنى عشر كنيسة وديرا أقام حولها مائتى أو ثلاثمائة مسيحى بيوتهم .

وكان لجامع عمرو شهرة بسبب قدمه فأقيمت حوله الحمامات ومنازل لسكنى الحجاج واصطبلات أما الجزء الملاصق للنيل من هذا الحى فقامت به قصور وفيلات للمتعة . وقد آلت باقى أجزاء هذا الحى الى خراب تام . وعلى الضفة المقابلة للنهر تابعت الجيزة وجودها الهادىء دون تغير هام .

*

يمكن أن نتلمس صورة للحياة فى القاهرة العثمانية من روايات الرحالة العديدة ، فلقد وصف بلون دى مان Belon du mans منازلها فى عام ١٥٤٧ بأنها ذات أسطح مستوية تتألف من طابقين وأبوابها منخفضة حتى لا يمكن لحصان أن يجوزها . وهى حيلة اتخذها المصريون كى يتجنبوا استضافة الخيالة الأتراك . ووصف لنا أقفال أبوابها الخشبية كما شكى من مضايقات ذباب صغير يعرض فى فرنسا بـ Cousins تشتد مضايقاته فى الليل على الأخص .

ويقول بريان Bruyn فى عام ١٦٨١ ان المرء لا يكاد يجد شارعا جيدا ومعظم شوارع المدينة ليست الا طرقات ضيقة شديدة الالتواء . ثم ينتقل الى وصف بعض المنازل والطرق المستخدمة فى التغلب على حرارة الجو فيقول : « ان وجهاء القوم يستخدمون طريقة لتلطيف حرارة الجو فهم يشيدون على أسطح منازلهم قبابا تغطى قاعات ويفتح فى القبة بدائرها نوافذ . ويلطف الهواء المار من تلك النوافذ تلك القاعات فيمكن للمرء أن يجلس فيها عند اشتداد الحرارة ودونما أن يشعر بادنى ضيق . وكانت هناك طريقة أخرى تتمثل فى اقامة مسقط صناعى للماء فى داخل المنزل .. ويسقط الماء على لوح رخامى كبير فيغطى سطحه ثم يوضع سرير فى وسطه .

وقد أدهش الرحالة جونا Jauna (١٧٨٥) عمق الهوة التى تفصل بين الأغنياء والفقراء · فلم تكن هناك طبقة وسطى · « **اما ان يكون المرء كبيرا أو صغيرا ، غنيا أو فقيرا ، عظميا أو حقيرا** » · لكنه لم يلحظ أى علامة من علامات التذمر بين المصريين فهم متفقون ان حظهم من الدنيا مقدر · فمن الحمق الشكوى من الحاضر أو الخوف مما يخبــأه المستقبل الذى لايمــكن تجنبه ســـواء مر كان أم حلو · ويسخر منهم قائلا : « **انهم لا يرهقون أنفســـهم بالتفكير** » · وقد أشـــار بلون الى خفة روح القاهريين فهم على حد قوله أكثر من عرفهم من النـاس حبـا للمرح وهم على استعداد دائما للرقص والاتيان بحركات عابثة ·

واذا كان معظم أهل القاهرة يتمتعون بالصحة الا أن عدد المرضى مع ذلك كان كبيرا · فقد عدد أمراضها بير دافيتى Pierre Davity مؤلف كتــاب « وصف عام لأفريقيا » والذى زارها فى عام ١٦٦٠ وقد قال ، « ان القاهريون كانوا يتعرضون للاصــابة بالنزلات الشـــعبية والفتاق والحمى فى شهرى ابريل ومايو لأن فى هذين الشــهرين تهب رياح تجلب معها الحميات الوبائية ٠٠ والوباء الذى كما ذكر دافيتى ، يعود كل سبع سنوات ويقتل أحيانا عشرين ألف نسمة فى أربع وعشرين ساعة » · ويذكر أيضا مرض العيون الذى عانى منه ثلث عدد السكان وقد أرجعه الى التهامهم للفــاكهة وشربهم الماء (!) والى التراب وارتداء العمائم (!) · وطبقا لذلك كانت تلك العمائم الثقيلة تسبب العرق الذى يؤلم ويهيج العين ·

ويقـــول جـــوانا Jauna **ان المصرى فى العـــادة يتزوج من بنى جنسه ، أمــا الآتراك فيفضلون نســاء الشــمال من الموسكوفيــات والالمانيات والجورجيات · اللاتى يتمتعن بأجمل دم فى العالم** »

وأحيــانا يفضــلون الحبشيات · فصــحيح ان بشرتهم داكنة الى حد ما ، لكن ملامحهم تتسم بالجمــال وكذلك أجســـامهن ومما يميز الحبشيات عن غيرهن من النساء « ان أجسامهم رطبة حتى فى أكثر أوقات السنة حرارة » ·

وتدخن كل النساء الغليــون وكمــا يؤكد البعض فانهن يكن أكثر سحرا اذا دخن ويراهن المرء أحيانا يدخن الغليون فى النوافذ ولا يسمح الا للامهات بممارسة تلك العادة ·

وينسب جـوانا الى ماء النيــل خصــوبة نساء مصر اذا شربن أو

يستحممن فيه وقت الفيضان وطبقا له فان هذا يفسر لماذا يحملن فى شهرى يوليو واغسطس ويلدن فى شهرى ابريل ومايو .

ويبدو ان السهم كان يلعب دورا هاما فى حياة قاهرى هذا الزمان . ويروى لنا جوابا ان أحد الباشوات لم يذكر اسمه كان يحكم القاهرة فى عام ١٦٩٢ ، وأراد أن يتخلص من أحد البكوات فأمر باحضار فنجانا من القهوة وكان مسموما . وفى نفس الوقت قدم أحد الخدم شكاية للباشا ، وكان هذا مبيتا من قبل . وبحجة انهماكه فى فحص الشكاية وبالتالى عجزه عن شرب القهوة ، فقدمها للبك « وكان هذا يعد أكبر شرف يمكن أن يناله انسان فى تلك البلاد » ومات البك فى نفس ذلك اليوم .

*

كانت شوارع القاهرة تقدم الكثير من المشاهد الطريفة . مثل عروض الغورى . اللاتى كن يرقصن على ايقاع الصاجات ـ رقصات تعتمد على هز الجزع والصدر والأرداف . وكن يعرضن رقصاتهن فى الطرقات أو على أبواب البيوت . وكانت ملابسهن تشبه ملابس نساء الطبقة الوسطى وان كن فى الغالب يسرفن فى ارتداء الحلى . وتحدد عيونهن بالكحل وتلون كفوفهن وأقدامهن بالحناء . وكن يرقصن على أنغام ربك يدق أوتاره موسيقى فى صحبتهن . وأحيانا كن يؤدين عروض خاصة فى المنازل لكنهن لم يكن يستقبلن فى المنازل الفاخرة .

وكان الحواة كثرة فى القاهرة وكانوا يعرضون ألعابهم فى الميادين العامة برفقة غلامين وعدد من المساعدين ويتحلق حولهم المشاهدون . ويخرج الواحد منهم عددا من الثعابين من جراب جلدى يضع واحدا منها على الأرض ويجبره على أن يرفع رأسه وجزء من جسمه . ويلف الثانى حول رأس أحد الغلمان كعمامة . ويأخذ أحد الحواة ثعبانين ويضعهما حول عنقه ، مثل القلادة ، وقد يعمد الحاوى الى فتح قفل ثم يضعه فى فم أحد مساعديه ويغلقه فجأة ، فيعطى انطباعا أن قوسه المعدنى يخترق وجنه المساعد ثم يتظاهر بأنه يخرق عنق مساعده بسيخ حديدى . وفى الواقع ان قمة السيخ تنزلق فى تجويف داخل بدن السيخ . ثم يخرج من فمه مجموعة من المناديل الحريرية من مختلف الالوان ثم ينفث اللهب من فمه ويخرج من أذنيه قطعا نقدية ومن وقت لآخر ينفخ فى صدفة حتى يخرج صوتا يشبه صوت النفير كى يجذب اليه الجمهور . أو قد يقيد قدميه ويديه ثم يوضع فى جراب ويصرخ طالبا قرشا . فيجيبه أحد مساعديه بأنه لن يعطيه له الا اذا مد له يده . فيخرج من الجراب احدى يديه .

وكان المرء يرى أيضا فى الطرقات « الغجر » وكن يسرن سافرات الوجوه ويحملن الأدوات اللاتى يحتجنها لكشف الغيب . وكانت تتألف من مقطف مملوء بالأصداف وقطعة زجاج ملون وعملة معدنية وغير ذلك . وتفرش كل تلك الأشياء على الأرض . ويمكنها أن تقرأ طالع عميلها من موقع هذه الأشياء بالنسبة الى واحدة كبيرة تمثل العميل . وتحدثه بما ينتظره فى المستقبل من احداث حسنة أو غير حسنة . وتمارس الغجريات أيضا صناعة الوشم . فهى يزين جبهات أو ذقون النساء أو كفوفهن أو صدورهن برسوم مختلفة . تتم بثقب الجلد بحزمة من سبع ابر ثم تمسح الثقوب بخليط من السناج المذاب فى لبن امرأة . وبعد مرور أسبوع يدلك الوشم بعجينة من أوراق البنجر أو البرسيم . ثم يلون الرسم باللون الأخضر أو الأزرق .

*

عانت التجارة من تحكم الباشوات وتسلطهم الذى أثقل البلاد . فلم يعد الهنود الذين اعتادوا المجىء فى الماضى بمتاجرهم يشقون على أنفسهم بالمجىء خوفا من أن تصادر متاجرهم وأن يسمموا هم أنفسهم كما كان يحدث أحيانا عندما كان يريد الباشا أن يخفى معالم جريمته تماما .

كان بالقاهرة تسع مجازر عرفت باسم « مجازر السلطان » .

لأن رأس وجلد كل حيوان كان يذبح فيها عدا الماعز كان من حق السلطان ويعلق هنا Jauna قائلا : « ان وزرائه (السلطان) يعرفون كيف يصنعون منها مبالغ كبيرة من الفضة تذهب الى خزائنهم » .

ولم يكن التجار الأجانب رغم الامتيازات الأجنبية أسعد حالا من اخوانهم المصريين كان عليهم من حين لآخر أن يتحملوا غرامة وهو مبلغ من الفضة يحدده الباشا ويطلبه من التجار الاوروبيين منتحلا أعذارا كثيرة كثيرا ما تكون غير منطقية أو لا فائدة منها . فكانوا يلجأون الى الجدال فاذا لم يكن للباشا سند فى استنبول يلجأ القنصل الى تهديده بابلاغ شكواه الى السلطان بحجة انه يخرق معاهدة الامتيازات الأجنبية . فيتفاوض معه الباشا . وكثيرا ما كانت قيمة الغرامة تخفض . فاذا كان للباشا من يحميه فى استنبول فقد يتخذ الباشا من احتجاج القنصل ذريعة لفرض غرامة أخرى أعلى قيمة .

وكثيرا ما تأثرت أعمال التجار الأوروبيين بالمنازعات التى كانت تنشب فيما بينهم . فمثلا تنازع اثنان من القناصل فى عام ١٦٥٠ على

محسمية القاهرة فأخذ كل واحد منهما يستميل الباشا اليه بتقديم الهدايا حتى يطرد منافسه . وفى مرة أخرى عمد أحد القناصـل وقد أثقلتـه الديون . الى الفرار من القاهرة تاركا الى جاليته أمر دفع ديونه الى دائنيه وكانت تلك تقدر بعشرين ألف قرش . وبعد عشرين عاما ورث أحد أولاد عمه المنصب . وأعاد الكرة ، فاضطرت الجاليـة مرة أخرى الى سـداد ديونه .

وبالاختصار فقد فقدت القاهرة تحت نير العثمانيين ثلثى مساحتها الحقيقية ومثل هذا من سكانها . وصارت أشبه بعاصمة مقاطعة بسيطة عنها عاصمة دولة بعد أن تحولت عن طريق التجارة العالمى صارت مدينة قديمـة يسودها الخراب وتمزقهـا الفتن التى يشـعل نارها المـرتزقة الأجانب .

الحملة الفرنسية

غزا الفرنسيون فى مصر فى عام ١٧٩٨ تحت قيادة نابليون ٠ ومكثوا فيها ثلاثة أعوام أدت الى تغيير البنية السياسية للبلاد ٠ ولكنها لم تحدث سوى تغيرات طفيفة على العاصمة ٠

هزم نابليون قوات المماليك بقيادة مرادبك فى معركة الاهرام فى ٢١ يوليو وقتل من المماليك سبعة آلاف مقاتل ٠ وفى اليوم التالى دخل الجنرال القاهرة ٠ ومنذ البداية أوضح مبادىء سياسته نحو المصريين التى تمثلت فى القضاء على طغيان المماليك واحترام الدين الاسلامى واقامة النظام والعدالة ٠

*

وقد اتخذ بونابرت خطوات مبدئية لتحسين الأحوال الصحيو فى القاهرة ٠ كان من اللازم العناية بالجرحى من جنوده والعمل على تفادى اصابة جيشه بوباء ينتج عن اقامته فى مثل تلك البنية البدائية ٠ فامر الجنرال باعداد المستشفيات العسكرية فى القاهرة والجيزة وبولاق ومصر

القديمة وفى بيوت المماليك الذين فروا ومنهم منزل ريفى لمراد بك الذى فر الى الصعيد ومزرعه ابراهيم بك فى القصر العينى ٠

وللوقاية من الأوبئة فرض على السكان كنس ورش منازلهم مرتين كل يوم ٠ ونقلت الأزبال من الطرقات الى خارج المدينة ٠

ولم يكن المرض هو كل ما كان يهدد الجند بل كان الخوف أيضا من الوقوع فى أكمنة مما قد يشجع الأهالى على التمرد ، لذا أمر أهل القاهرة بان يعلق كل منهم فانوسا على باب بيته ونظمت دوريات تطوف بأنحاء المدينة وكان عليهم ان يسمروا باب كل من يهمل فى اضاءة فانوسه غير غرامة يدفعها ٠ وفيما بعد أقيمت مصابيح كبيرة ذات أربع أوجه فى الشوارع الرئيسية على نفقة الأثرياء يبعد كل منها عن الثانى ثلاثين خطوة ٠

وانتزع الفرنسيون أبواب الحارات التى كانت تغلق ليلا حتى اذا ما نشبت ثورة لا يلجأ الثوار الى اغلاقها والتحصن خلفها ٠

بيد ان هذا الاجراء الذى دعت اليه اجراءات الأمن أقلق أهل القاهرة ٠ فاشيع أن نية الفرنسيين أن يذبحوا المسلمين وقت صلاة الجمعة٠ وزاد الطين بلة ، الأمر الذى أصدره نابليون بتجريد المصريين من أسلحتهم ٠

وحتى يدبر نابليون حاجته من المال أمر اللجنة الادارية بتأجير حقوقها على يد الغزاة ٠ وتزايدت روح التضامن بين الشعب والسادة الى مداين (١) فكسب من وراء ذلك ثلاثين فى المائة من قيمتها ثم أمر باستخراج سبائك الذهب التى جلبها من فرنسا واستبدالها نقدا فى الاسكندرية ٠

لكن تلك الاجراءات كانت مصدر ضيق للمصريين وبالتالى كسبا فى صالح المماليك الطغاة القدماء ٠ لقد ظهروا بمظهر الضحية التى سلبت حقوقها على يد الغزاة ٠ وتزايدت روح التضامن بين الشعب والسادة القدماء عندما اجبرت الصعاب المالية نابليون الى فرض تبرعات ضخمة يدفعها الأثرياء ٠ فكان على تجار خان الخليلى ان يدفعوا عشرة آلاف تلارى فى ظرف عشر أيام ٠ ومثل هذا القدر على باعة السكر ٠ أما أصحاب المقاهى فأجبروا على دفع الفى تلارى ٠ ولم تفلح الأشكال القانونية التى استخدمها الفرنسيون فى ان تخفف من المرارة التى أحس بها القاهريون ٠ فما الفارق فى ان تكون الخسارة تبرعا يدفع قسرا للغزاة أو ما لا يسلبه

---

(١) أنواع من العملة (راجع ملحق المصطلحات فى آخر الكتاب) ٠ .

المماليك • وان كان أسلوب الفرنسيين أكثر تهذيبا الا ان ذلك لم يكن ليقلل من حزن من فقد ماله •

وأهم التغيرات التى طرأت على قاهرة الحملة الفرنسية كان تدمير عدد كبير من المنازل فى أثناء ثورتى أهل القاهرة فى حى الأزهر وبولاق والضفة الشرقية لبركه الأزبكية والمناطق الملاصقة لبركة الرطل • وقد هدمت الكثير من المبانى لتيسير حركة المرور أو تهوية المدينه ، وتحزب بعض منها عند استخدامها كملاجىء للجنود ومستودعات • أما أهم ما كسبته القاهرة من الحملة فكان الطريق الكبير الذى ربط بين بولاق وبينها وتجفيف جزء كبير من بركة الأزبكية وغرس عدد من الأشجار ونقل الجبانات من المدينة الى خارجها •

أنشأ المهندس الميكانيكى كونته Conti اثنى عشر مصنعا فى القاهرة لسد حاجة الحملة والأهالى ، وأقام لها ملحقات فى بولاق والجيزة وجزيرة الروضة ، لقد شيد مسبك ومصنع للكارتون والورق وورش ميكانيكية وأخرى للتجارة وغيرها • وأقام على الطرف الشمالى لجزيرة الروضة وعلى المرتفعات التى تحد القاهرة طواحين هوائية ، وما زالت باقية حتى يومنا هذا وتعرف بطواحين بونابرت •

❋

وما ان رحل الفرنسيون حتى سقطت البلاد نهبا للفوضى حاول الأتراك أن يشددوا من قبضتهم على البلاد وعينوا خسروا باشا واليا لمصر • وأراد المماليك استعادة سلطتهم وثرواتهم وادارة البلاد كما كان الأمر فى الماضى • فعادت الاضطرابات وأعمال النهب وقاسى المصريون من انعدام الأمن •

وهنا يظهر محمد على وكان قائدا لفرقة الألبانيين ونجح فى أن يفرض على جنده النظام • فى ١٨٠٥ انتزع من السلطان الاعتراف بولايته على مصر وفى عام ١٨١١ قضى على المماليك فى مذبحة لهم دبرها فى القلعة • وبذا زالت آخر العقبات التى كانت تحول بينه وبين السلطة المطلقة على البلاد ، ودخلت القاهرة الى عهد جديد •

وقبل أن نتحدث عن التغيرات المختلفة التى تعرضت لها القاهرة فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين نطالع فقرات ممتعة من مذكرات رحالة انجليزى زار القاهرة وقت الاختلال الفرنسى هو وليم ويتمن William Wittman

فقد لاحظ ان الطابق السفلى من المنـازل يكون من الحجر الجيرى المنتزع من الجبال المجاورة ، أما الطابق العلوى فيبنى من الخشب ، وان قيمة المنزل ترتفع اذا كانت به فوارة ، وان أرضيات الحجر كانت تكسى غالبا بالبلاط مما يمنح المرء احساسا بالانتعاش . وأن أثاث البيوت كان يشبه الأثاث التركى ويتألف عادة من طنافس وسجاجيد . وقد وصف « ويتمن » النباتات التى رآها فى حدائق القاهرة وضواحيها وقال « ان لأشجار التوت والسنا الضخمة Caniers ظلال كبيرة » .

وزار سوق العبيد السود ، وهو فناء يحف به من كل جانب طابقين من الحجرات ولم ير هناك سوى ثلاث زنجيات احداهن كانت تحمل بين زراعيها طفلا أبيض .. وطبقا لروايته فلقد كانت تلك التجارة راكدة لسنوات نظرا للصعوبات التى كانت تواجه قوافل العبيد ولكنها كانت فى طريقها للانتعاش مرة أخرى . وكان يتوقع وصول قافلة للعبيد فى خلال ذلك الأسبوع . وذهب « ويتمن » أيضا الى سوق الرقيق البيض . وكانت ابنيته أفضل وأكثر نظافة ولكنها خاوية تماما .

ووصف سور القاهرة وقال انه طوله كان ثلاث فراسخ (تسعة كيلو مترات) . أضاف ان الفرنسيين قد حولوا مجرى العيون (القناطر التى تجلب الماء للقلعة) الى حائط للدفاع يمتد من النيل حتى المدينة . وعلى قمم التلال التى كانت تحف بالقاهرة شيدوا طوابى . وأخيرا فقد حولوا منزل ابراهيم بك الى قلعـة على ضفة النيـل الشرقية ، وأحاطوا قرية الجيزة بسور .

وقد قدر أبعاد القاهرة على النحو التالى : أربع كيلو مترات ونصف طولا وثلاثة عرضا .

وعند دخوله من باب النصر شاهد شارعا طويلا تمتد على جانبيه الحوانيت . وكان به وبالشوارع « التى يقطنها الوجهاء » ثريات معلقة تضاء عند الاحتفال بعيد من الأعياد .

وكان لكل مقهى راوية للأشعار أو أكثر ، ومنهم من كان يمارس فنه فى الطرقات . ويلبس الواحد منهم قبعة من خوص . وقد يوقف أحد المارة وينشده أبياتا تمدحه مقابل قليل من النقود .

وطبقا « لويتمن » كانت القاهرة تفتقر الى الماء الطازج باستثناء آبار القلعة ولقد كان انطباعة سيئا عن السكان ، فقد لاحظ أن الشحوب يعلو بشرة النساء بينما يتهدل لحم الأطفال حديثى الولادة مما يبشر بسمنة مفرطة . وحتى أطفال الأسر الراقية والأجانب كانت عليهم مسحة مرضية .

كان الباعة الجائلون الذين يبيعون الخبز والخضروات وغيرهـا من الاطعمة يعلنون عن بضاعتهم بطريقة مميزة ، مثل بائع الحلاوة (**عجينه** من السكر والنقل) الذى يقول : « بمسمار يا حلاوة » • **وكان لهؤلاء** الباعة شهرة **فى الاتجار** بالبضائع المسروقة • فكانوا يقايضون بضاعتهم ببعض المسروقات التافهة التى يأخذها الأطفال أو الخدم • **وينادى بائع** الأزهار على بضاعته قائلا :

« **الورد كان شوك ، عرق النبى خلاه فتح** » • اشارة الى احدى معجزات الرسول (صلعم) • أما الأقمشة القطنية التى نسجت بآلة يديرها ثور فكان بائعها يقول « **شغل الثور يا بنت** » • وعن التمر حنة يقول البائع « **يه روايح الجنة يا تمرحنا** » •

وكان المرء يصادف فى الشوارع أحيانا حواة ينتمى معظمهم الى طائفة الرفاعية • وهم يدعون قدرتهم على التخلص من الثعابين **التى تعيش** فى المنازل • ولما كانت تلك الثعابين تتخذ جحورهـا فى الأماكن غير المطروقة من البيت مثل غرفة « الكرار » حيث يدخل اليها الرفاعى وحده ، فربما كان يحضر معه فى بعض الحالات ثعبانا ، ويتظاهر انه قام باخراجه • ولكن الكثير من الثقـاة أكدوا ان هؤلاء الرفاعيـة كثيرا ما قاموا بعملهم وسط ظروف واحتياطات تمنع أى شبهة غش • وعند القيام بعمله يتخذ وجهه تعبيرا غريبا ويطرق الحائط بعصاه ويصفر ثم يطرقع بلسانه ويبصق على الأرض ثم يتلو بعضا من التعاويذ التى يدعوها سحرية •

الفصــل الثامن

القاهرة الحديثة

تدخل القاهرة عصرا جديدا بتولى محمد على الحكم . ذلك البركان المتفجر الذى أخذ يهدم ويشيد ويغير ويبدل حتى كسى القاهــرة ثوبا جديدا غزلته يده .

فى البدء أقام نوعا من التنظيم البلدى ممثــلا فى « كخيــا » وهو يماثل وزير الداخلية فى العصر الحالى ، ثم موظفان برتبة « باش أغا » يرأسان قوة الشرطة الموكل اليها حفظ النظام وأخيرا « المحتسب » وهو يتفقد يوميا الأسواق ليمنع التجار من أى محاولة للغش وكان لكل حارة « شيخ » و « ثمن » ويقومان بواجبات قاضى الصلح فى أوروبا وعليهما الزام كل مواطن ان يحمل معه بطاقة تحمل اسمه مثل بطاقات الهــوية فى يومنا هذا .

وزاد الاهتمام بالاحوال الصحية للمدينة . فتحسنت أحوالها الى حد كبير بفضل الاجراءات الصارمة التى اتخذتها السلطة فى هذا السبيل . صارت الشوارع أنظف ، وقلت أخطار الأوبئة ، ونقلت الازبال الى خارج المدينة ، وأعيد تنظيم « المارســتان » وشــيدت الكثير من المستشفيات

الجديدة • وحاول محمد على ان يركز الانشطة الصناعية فى منطقة السبتية فى شمال شرق بولاق • وبضربة حجر واحد أصاب هدفين ، فقد استغل آكوام الأنقاض والازبال التى كانت تحف بالقاهرة الى الشمال والشرق — وكانت موطنا للعدوى — فى تسوية المنخفضات وردم برك القاهرة • فعلى سبيل المثال استغل التل الذى كان قد أقيم عليه حصن المعهد الفرنسى فى ملء بركة قاسم بك • وجففت تماما بركة الأزبكية التى كانت حتى هذا العهد ما تزال تمتلىء جزئيا بماء الفيضان • وكذلك الأمر بالنسبة لبركة الرطل حيث تحولت الى حديقة • ولم يتخلف من كل تلك البرك نقر هنا وهناك تسقى منها الماشية •

وتغيرت طبوغرافية منطقة بركة الأزبكية تماما • فاختفت القناة التى كانت تغذيها بالماء • واستغلت الأكوام المحيطة بها فى سدها • ثم اقيم عليها قصر الحلمية ودرب الجماميز •

وطرأت تحسينات على حركة المرور فى المدينة ، فقد هدمت المبانى التى كانت تعوق سير العربات وازيلت المصاطب التى كانت تقوم أمام المنازل • وكانت القاهرة قد اعتمدت لفترة طويلة على الجمال والحمير والخيل كوسيلة للنقل ، وكان ركوب الحصان مقصورا على الجند ، ومن بين الأجانب جميعا صرح للقناصل فقط باستخدامه • وكان نابليون أول من سار فى القاهرة بعربة يجرها ست خيول • وصرح محمد على باستخدام العربات التى أحدث ظهورها جوا من الاثارة فى القاهرة • وقد منح بعضا منها هدية لوزرائه فصار فى القاهرة منها حوالى ثلاثين •

وعندما تقرر مد شارع الموسكى بشارع السكة الجديدة ، حدثت سعة الشارع الجديد بحيث تسمح بسير جملين محملين بالبضائع يسيران جنبا الى جنب ، ولذا فنعتقد انه كان من النادر ان ترى عربة بأربع عجلات تسير فى هذا الطريق • واستمرت الحمير لمدة طويلة وسيلة للمواصلات الأكثر انتشارا • وقد قدر ناصرى خسرو عددها فى القرن الحادى عشر بخمسين ألفا فى القاهرة ، أما فى القرن التاسع عشر (١٨٤٦) فقد قدر Combes « كومب » عددها فى حى بولاق وحده باثنى عشر ألف حمارا • وقد حظيت تلك الدابة بعطف واعجاب راكبيها • ويقول عنها جوبينو Gobineau ان ملامحها ذكية وخبيثة ، فلقد لاحظ انها تميل الى السير بسرعة وسيرها أقرب الى العدو منه الى التخاتر ، فكأنها تترفع عن الخطو • وأحيانا ينجح الحمار فى ان يتخلص من راكبه ويتابع سيره سعيدا بمغامرته وفى عينه نظرة ساخرة واذناه قد تدليا ، ومن خلفه يأتى الحمار ضاحكا من أعماق قلبه •

شق طريق واسع مستقيم يخترق الخليط المتماسك من المنازل ، ليربط بين القلعة والأزبكية • وكان هناك طريق آخر تحفه أشجار السنط والخروب يربط بين بولاق والمدينــة • وربطت قنطرة معدنية الجيزة بجزيرة الروضة ومنها بمصر القديمة • وعنى بتطهير الخليج وبصيانة شاطىء النيل عند بولاق ومصر القديمة •

واتخذت المدينة ثوبا حديثا ؛ فقد أخذت البيوت الحديثة تحل محل القديمة • وفى القلعة هدم الكثير من منشآت المماليك وسويت الأنقاض ، وعليها شيد قصرا ومسجدا وثكنات للجيش ومعمل للبارود وترسانة ودار لسك العملة • وبذا عادت القلعة للحياة واستردت شيئا من سابق مجدها فى العصور الوسطى • وظهرت قرية فوق المنحدر الشمالى للشرق الصخرى • ولكن يبــدو ان الوساوس أخذت تنتاب محمد على فى القلعة التى كان قد دبر فيها مذبحة المماليك ، ولذا لم ينعم بالراحة هناك ولم يجد متعة فى الحياة وسط تلك السكنة الضخمة الخاصة بالجند التى تحف بها الصحراء التى تتلظى تحت الشمس • فأقام قصرا عند الأزبكية على نفس موقع القيادة الفرنسية السابق • وهى بقعة بديعة • وفى الجزء الجنوبى للميدان (الأزبكية) أقام قصورا جديدة اما فى الجانب الغربى فاقيم أول فندق كبير على الطراز الأوروبى • أوتيل دوريا Hôtel d'Orient وعندما رأى مرة أخــرى هنرى كاما Henri Commas تلك المنطقــة فى عام ١٨٦٢ شبهها بالشانزلزية والاوكاسين

لكن محمد على كان يفضل الحياة وسط الحقول الخضراء ، لذا رمم قصر مراد بك فى الجيزة وقصرا آخرا فى جزيرة الروضة اتخذه فيما بعد ابراهيم بك ابنه الأكبر سكنا •

لكن أهم منشآته كان قصر شــبرا ، الذى أقيم فى ســهل خصب محصور بين النيل وترعة المحمودية • وربط بينه وبين باب الحديد طريق مستقيم مرصوف تحفه الأشجار ، وتسير عليه المركبات الفاخرة ورجال البريد ممتطين جمالهم • وأقام على بقعة قريبة من النهر بين بولاق والقصر العينى مجموعة من القصور لأفراد عائلته • كانت محاطة بحدائق زرعت فيها أشجار النخيل والتوت وغيرها من أشجار الفاكهة التى تتشابك هنا وهناك • واقتداء بالباشا أخذ الارستقراطيون فى بناء القصور هناك •

ولم تتغير باقى الأحياء تغيرا ملموسا فى تلك الفترة عدا حى بولاق الذى أعيد بناء ما تخرب منه أثناء الاحتلال الفرنسى حيث كان نقطــة وصول البضائع المتجهة الى العاصمة ، بينما أخذ حى كمصر القديمــة

يتداعى لأنه لم يكن يستخدم الا كمنطقة تخزين للبضـــائع القادمة من الصعيد ٠

احتفظت القاهرة حتى عام ١٨٥٠ بحدودها السابقـة تقريبـا ٠ ولكن اختفت من حياتها الفوضى والمجاعات ، وأخذت الحركة الاقتصادية تنشط ؛ أراد محمد على بمساعدة الخبراء الأوروبيين أن يستأنف ما كان كونته Conté قد بدأه ، ففى عام ١٨١٢ استقدم خمسمائة عامل من استنبول ، تبعهم مائتى عامل أرمنى فى عام ١٨١٦ ٠ وأقام ورش لصناعة المطارق والسنديان والمناشير ، ثم أقيم معمـل للورق ومعصرة للزيت وورشة للحفر ٠ بيد ان محمد على كان يفتقر المنهج والنظام ، فضلا عن انه عجز عن ان يشرك الأثرياء من المصريين فى مشروعاته ومثل هذا الاسهام كان من الممكن أن يكون ناجحا ٠ لقد أثار المصريون بنشاطه المحموم ، ولكنه لم ينجح فى ان يقيم قاعدة صلبه لبناء حياة اقتصـــادية سليمة ولأقامة عاصمة لهم كبيرة تصـلح لأن تكون مركز للادارة والنشـــاط الصناعى والتجارى ٠

كانت نهضـــة القاهرة الصناعية الحقة فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر ، حيث أمكن للصناعة ان تنهض وتتطور عندما أقرت فى عام ١٨٧٤ تشريعات قانونية محددة حديثـة ، بالاضـافة الى استتباب الأمن فى ربوع البلاد والانتعاش الاقتصادى الذى أصـــاب مصر بعد عام ١٨٦٠ (١)٠ وازدهرت فى مصر صناعات عدة فيما بين ١٩١٤ـ١٩١٨ مثل الأسرة المعدنيـــة والملابس والصـــابون والمركبـات ودبغ الجلود والسيراميك والنجارة ٠ وفى عام ١٩٠٠ أقيمت مصـانع أسمنت طرة والمعصرة ٠ ومصنع للطوب فى العباسية فى عام ١٩١٠ وآخر للأسمنت فى حلوان عام ١٩٣٠ ٠ واليوم ارتفعت عشرات المصـــانع فى القـاهرة أو ضواحيها وأهمها مصنع الحديد والصلب فى حلوان ٠

*

وعلى نسق الشـــوارع الكبيرة التى شـقها البارون هاوســـمان Hausmann فى باريس بنى فى القاهرة الكثير وترسم لنا التواريخ التالية معالم التطور الكبير الذى بدأ يضرب اطنابه فى القاهرة ٠

١٨٥٤ ـ اقامة الخط الحديدى الذى ربط الاسكندرية بالقاهرة ٠

---

(١) أدى اندلاع الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة الأمريكية الى اختفاء القطن الأمريكى من الأسواق الأوربية وبالتالى ازدياد الطلب على القطن المصرى الذى ازدادت أسعاره تلقائيا ٠

١٨٥٦ ـ بناء خط حديدى بين السويس والقاهرة ٠

١٨٥٩ ـ ١٨٦٩ ـ حفر قناة السويس ٠

١٨٦٥ ـ اقامة شركة المياه

١٨٧٣ ـ تأسيس شركة الغاز ٠

جعلت اقامة الخط الحديدى بين الاسكندرية والقاهرة الطريق ميسورا لزيارة العاصمة التى كانت وقفا فى الماضى على المحظوظين من الأثرياء أو نفر من المولعين بالمغامرة المستعدين لمواجهة الأخطار وتحمل الصعاب الكبيرة ومن ذلك التاريخ صارت زيارة القاهرة فى متناول الجميع كغيرها من مناطق العالم المتحضر ٠ واجتذبت اليها المغامرين الذين كانوا يسعون خلف الثراء لا فى التنقيب عنه تحت التراب ، ولكن فى عقد الصفقات مستغلين الحصانة التى أسبغتها عليهم الامتيازات الأجنبية فى ابتزاز السلطات ٠ فكان المرء يرى بين السائحين الشرفاء من رجال الأعمال رجالا ماتت ضمائرهم ٠

وأدت الاضطرابات السياسية التى تفجرت عام ١٨٨٠ الى سقوط مصر فى ايدى الانجليز ٠

وكان حفر قناة السويس ضربة قاضية لتجارة الترنزيت فى القاهرة ٠ فلم يعد للقاهرة من وظيفتها السابقة كمركز للتبادل التجارى وتجارة الترنزيت الا الشطر الأول ٠

*

يتسم تطور القاهرة منذ عام ١٨٥٠ بسمتين رئيسيتين الأولى هى تحول منطقة قلب العاصمة عن مراكزها القديمة ، والثانية ظهور أحياء أوروبية خالصة على حدود المدينة كما لو كان المرء يضيف شرفات مزينة بالأزهار حول واجهة منزل قديم لتحسين مظهره ٠

لم تكن التغيرات التى طرأت على أحياء قلب المدينة على كثرتها الا تغيرات سطحية ٠ فعلى جوانب الطرق الكبرى اقيمت دور أنيقة تخفى خلفها المساكن القديمة بسكانها البسطاء كما هم دون أدنى تغيير ٠ وقد بنيت عدة شوارع جديدة مثل « السكة الجديدة » الذى يعد امتدادا لشارع الموسكى ، وشارع كلوت بك بين ميدان « باب الحديد » « والأزبكية » ٠ وأقيم ميدان ابن طولون وهدمت المنازل الملاصقة لجامعى

السلطان حسن والرفاعى حتى يظهرا للأعين ٠ وعلى أرض بركة الفيل السابقة أقيمت القصور والفيلات والأبنية العامة ٠ وربطت القلعة بالأزبكية بطريق متسع تحفه منازل ذات بوائك ٠ بيد ان تلك المشروعات النافعة التى تحمل سمة أوروبية لم تضع نهاية لأكوام الأتربة والقاذورات وما يصحبها من ذباب التى ظلت تلوث الشوارع الجانبية المتصلة بالطريق الرئيسى عن طريق درجات بسيطة ٠

ازدهرت حديقة الأزبكية وحديقة روستى Rossetti المجاورة ازدهارا كبيرا ٠ وأقيم فى وسطها متنزه يغص بأشجار التمر حنا والغار والميموزا ، ويقطعه ممشيان وجدول وتناثرت فى أرجائه مقاه ومسارح صغيرة وأكشاك ، ولكن الكثير منها كان أوكارا للقمار أو الرذيلة حيث كان المرء يسمع أحيانا طلقات أعيرة نارية ٠ وأحيطت الحديقة بسور حديدى فى عام ١٨٦٥ ، وفرض رسم لدخولها ، وأضيئت مماشيها بالغاز، فوضع هذا حدا للمباذل السابقة ٠ وحول الحديقة أخذت العمائر الحديثة فى الظهور مثل الأوبرا والبورصة وفندق دولاسى «de la Cie» وبننسيولير اتاورينتال Pénensulaire et Orientale والنيو هوتيل New Hotel وعديد من المتاجر الكبرى ٠

*

اذا فحصنا باقى أحياء القاهرة لاحظنا ظهور حى عابدين حول أحد القصور الخديوية وبعض المبانى الادارية فى مكان بركة بطن البقرة السابقة شرق باب اللوق والقصر العينى ؛ ولاحظنا أن الدور أصبحت تمتد على طول الخليج حتى منطقة السيدة زينب ، بينما لم يعد فى جزيرة الروضة سوى قرية بائسة (المنيل) بها قصران احداهما مملوك لابراهيم باشا (ابن محمد على) ٠ بينما تخلت القلعة عن دورها كقاعدة للحكم ٠

لاحظنا مما سبق اتجاه القاهرة فى التوسع العمرانى منذ تأسيسها نحو الشمال والشمال الشرقى ٠ واستمر هذا الاتجاه باطراد مستمر طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين ٠

أقام الخديوى عباس الاول قرية حربية صغيرة فى السهل الرملى الواسع الواقع شمال القاهرة ٠ وكانت تضم ثكنات للجند ومستشفى ومدارس ومساكن للضباط والموظفين ٠ ثم أخذ ذلك الحى ، الذى عرف بالعباسية ، فى الاتساع بسرعة حتى اتصل بالقاهرة ٠ وقد شكل قصر

القبة أحد القصور الخديوية الجديدة نقطة جذب سكانية أدت الى انتشار العمران حوله ٠

كانت البقعة الواقعة بين شبرا والنيل فى نصف الدائرة التى يشكلها الخط الحديدى الذاهب الى الاسكندرية ، أرضا زراعية تغطيها الحدائق والحقول ٠ ثم مالبث ان امتد اليها العمران تدريجيا زاحفا من حى بولاق ٠ ومن ناحية ربط جسر بين بولاق وأرض الجزيرة حيث شيد قصرا للباشا تحيطه الحدائق ٠ وربطت الجيزة بالجزيرة بطريق جميل ممهد تمتد على جانبيه أرصفة ٠ وفى طرف بولاق أخذت المنازل تمتد حتى منشآت محمد على الأميرية بالقرب من مصعب ترعة الاسماعيلية ٠ وكان قد أقيم هناك فيما بين عامى ١٨٤٩ و ١٨٧٨ عددا من القصور مثل « قصر النيل » الذى سكنه سعيد باشا ثم الخديوى اسماعيل ، و « قصر الدوبارة » و « قصر الوالدة » باشا و « الامير أحمد » ، والى الخلف قليلا القصر العالى ٠ وكانت كل تلك القصور محاطة بالحدائق الغناء ٠

بنى حى الاسماعيلية فى عصر الخديوى اسماعيل فى البقعة الواقعة بين الأزبكية وشارع بولاق وترعة الاسماعيلية وقصر النيل وباب اللوق ٠ وقد منح اسماعيل الارض بدون مقابل لكل من أراد أن يقيم عليها بناء لا تقل قيمته عن ألفى جنيه ٠

وسرعان ما بنيت فيلات بديعة تحفها حدائق جميلة انتظمت حول طرق واسعة تؤدى الى ميدان كبير ٠ ومازال هذا الحى يحتفظ بتخطيطه الأول حتى الآن رغم أن العمائر العالية حلت محل الفيلات والحدائق ٠

*

وهنا نتوقف برهة قبل ان نستكمل دراستنا لنتعرف على بعض الانطباعات التى تركتها القاهرة على الأوروبيين فى القرن التاسع عشر ٠ فبالرغم من موجة التحديث التى أخذت تغير من قاهرة هذا العهد ٠ كانت المدينة لا تزال قادرة على أن تخلب ألباب الاوربى بجوها الشرقى ٠ فيتحدث عنها ارتير رونيه Arthur Roné الذى زارها فى عام ١٨٦٤ بنبرة تمتلىء حماسا ٠ « **كيف يتاتى للمرء أن يصـف تلك البقعة السـاحرة حيث تتشابك الطرقات والازقة والميادين فى انتظام مفعم بسحر النزوة ، فكل منزل فيها عمل فنى تتجلى فيه الأصالة ابدعته يد رقيقة ٠ كيف يمكن أن أرسم الصمت فى الهواء ولا النور المشرق الذى يعم المنائر المزخرفة فى تقابله مع الضوء الخافت الحنون الذى يشيع فى الطرقات فيبعث فى النفس حبورا سرمديا ٠ وتمتزج الصورة واللون والحركة بلا انفصام ، كل مفعم بروعة وصخب الحياة** » ٠

ولنصحبه الآن فى جولة فى قاهـرة ذلك العهد • نراه يترك قصر الباشا ، بعد اجتماع معه ويمتطى مع جمع من أصدقاءه حميرا يقول عنها (برادعها جيدة التبطين لكأنها مقعد وثير سحرى يطوف بالمرء فى عالم سحرى يطوف بالمرء فى عالم ألف ليلة وليلة الساحر » •

« أولا ودائما شارع الموسكى الطويل الذى نرى فى أوله أسلحة نوبية وأثيوبية معروضة فى الطريق • ويعرض « عبده » تمساحا محنطا تنبعث من فكه رائحة كريهة ، ونرى من بين معروضاته خناجر وحراب وسهام وطبول تزينها أشكال غريبة وألوان باهتة •

والموسكى أكبر شوارع القاهرة • وفيه يصادف المرء كل شئ • يبدو مستقيما ، لكنه فى الحقيقة متعرج صاعد ، هابط • ونقوم على الثراء والضوضاء والمتاجر • انه شارع كبير وطريق طويل غير مرصوف ، جانبيه منازل بعضها جديد ولكن طرازها شرقى لم يتطرق اليه التحديث البغيض •

فاذا ما بعدنا قليلا نرى على ناصية أحد الشوارع حانوتا مفتوحا ملىء برجال نائمين على أقفاص ــ « انه القراقول » (قسم الشرطة) حيث نرى « الباش ــ بوزكس » الالبانيين بوجوههم التى تذكرنا بالطيور الجارحة وملابسهم أشبه بملابس قطاع الطريق ، حيث تتدلى من مناطقهم الخناجر اللامعة • وهم ليسوا الا عصبة من الأشرار لا يهابهم الا الفلاحون •

ويلفنا عبق ساحر فى احدى الطرقات الضيقة عميقة الأغوار حيث تخترق العمائم البيضاء أستار الظلام تصحبها لمعات وريقات نحاسية تتقابل فى طرقات رنانة بأدنى حركة من الهواء ، فتعلن عن حوانيت العطارين حيث تتجمع بضائع الهند والجزيرة العربية » •

ويمضى باقى الكتاب فى رسم صـــورة للمدينة مملوءة بأحاسيس عاشق • ولا نترك رونيه قبل أن تقتبس منه عبارة قالها له قنصل فرنسا فى القاهرة يمكن أن تلخص انطباعات الزائر للمدينة العتيقة • « ان ما ستسمعه وما ستراه أغرب وأعجب من الأحلام » •

*

يعتبر عام ١٨٨٢ (بدء الاحتلال البريطانى لمصر) سنة ١٤٤٠ حاسمة لمصر وللقاهرة على وجه الخصوص فمنذ هذا التاريخ وحتى عام ١٩٢٢ تضاءلت قامة خديوى مصر بجانب المندوب السامى البريطانى الذى سيطر على السلطتين التشريعية والتنفيذية •

وتحت راية هذا النظام حقق الأجانب الكثير من الفوائد وازداد الدخل العام نظرا لارتفاع ثمن القطن واتساع الرقعة الزراعية مما كان له أعمق الاثر على عاصمة البلاد ٠

ولقد اثرت على الحياة فى قاهرة الاحتلال ثلاثة عوامل ، أولها وجود جالية بريطانية كبيرة طبعت بذوقها وروحها الأحياء التى سكنتها : قصر الدوبارة وجاردن سيتى ٠

وهليوبولس ٠ وتحت حماية الامتيازات الأجنبية تمتع الخاصة منهم بحرية كبيرة أدت الى نوع من الفوضى المعمارية ٠ فافتقدت تلك المشروعات روح التخطيط الكلى والتنظيم وأهملت فيها قواعد الصحة العامة وسـواء كان البناءون من الأفراد أو الشركات فقد اتسموا بقصر النظر فلم يكن الواحد يعبأ بجاره أو المصلحة العامة ٠ فنجم من تراكم الأخطاء سرطان خطير ٠

وتحولت حمى البناء والمضاربات التى نجمت من تدفق رؤوس الأموال الأجنبية على مصر ، التى كانت تتمتع بالثقة نظرا لاستقرارها السـياسى والاقتصادى ، الى سعار ٠ فاذا ما استثنينا فترة الأزمة السياسية فى ١٩٠٧ التى أدت الى رحيل اللورد كرومر والتى لم تحس نتائجها قبل عام ١٩١٢ كانت القاهرة آخذة فى الاتساع فى كل اتجاه ٠ لكن هذا النشاط يتوقف لفترة وجيزة أثناء الحرب العالمية الاولى ٠ ثم ما لبث ان استرد عنفوانه ٠

أخذت الشوارع الجديدة تخترق الأحياء الشعبية ، لكنها لم تكن الا واجهات تخفى مظاهر الفقر خلفها ٠ وفى عام ١٨٩٩ طمرت القنوات الصغيرة التى كانت تحيط ببولاق وطمر الخليج أيضا وحل محله بشارع كبير ٠ ثم توسيع بعض الميادين مثل ميدان السيدة زينب ٠ بيد أن هذا لم يكن الا استثناء فكانت شوارع العاصمة ماتزال على بدائيتها وتفتقر الى حد كبير الى نظام صرف صحى فعال ٠ كانت الجهود مركزة على القسم الأوروبى من المدينة حيث عاش الأجانب مع الارستقراطية المصرية ٠

كان المثلث الكبير الواقع الى شمال طريق بولاق بين الأزبكية وحدائق فندق شبرد وقنطرة الدكة وشارع الملكة نازلى (رمسيس) أرضا مهملة يتجمع فيها الناموس حول برك ماء الرشح الراكد ٠ جففت المستنقعات وقسمت ، وبيعت ، وبدأ بنائها فى عام ١٨٩٠ فصارت حيا يعرف باسم التوفيقية ٠

وصار حيا الاسماعيلية والتوفيقية مركزا للاعمـال وللنشـاط الاقتصادى للمدينة ، وشيدت هناك دار القضاء العالى (قديما المحكمة

المختلطة) بواجهة تزينها صفة أعمدة توحى للناظر بمعبد أغريقى . والى جوارها شيدت البنوك والمحلات التجارية الهامة . وبذا انتقل مركز عالم المال والتجارة من قلب القاهرة القديمة المحصور بين شارع كلوت بيه والموسكى والأزبكية الى تلك المنطقة الواقعة الى الغرب .

*

ظهر حى جاردن سيتى فى نهاية القرن التاسع عشر حول قصر الدوبارة (مقر المندوب السامى البريطانى وحاليا سفارة بريطانيا) وقصر « الوالدة باشا » . وكان حيا ارستقراطيا يكاد يكون أجنبيا . وقد تألف من فيلات تفصلها طرقات تظللها الأشجار . ومنذ عام ١٩٠٥ أخذ الحى فى الامتداد نحو النيل . وتدريجيا زحف العمران على الضفة المقابلة .

ولنتحدث الآن ونحن بهذا الصدد عن أهمية طرق المواصلات فى اتساع رقعة القاهرة . بديهى أن بناء أحياء جديدة مشروط بتيسير سبل المواصلات اليها . وكان هذا ما حدث عند بناء شبرا والعباسية والقبة والمطرية . كان العمران يلاحق بناء أى طريق كبير . وأكبر طرق العاصمة شارع الهرم الذى بنى فى سرعة قياسية فى عام ١٨٦٩ لييسر ع الامبراطورة أوجينى زيارة المنطقة الأثرية . وقد مد به شريط الترام ف عام ١٨٩٩ واستبدل الآن بخطوط للاتوبيس .

لكن أهم الانجازات المعمارية لهذا العصر كانت بناء مصر الجديدة (هليوبولس) التى صارت أشبه بمدينة صغيرة متكاملة . أسسها البارون امبان Empain البلجيكى على هضبة صحراوية شمال القاهرة كانت تستغل فى التدريبات العسكرية . شيدت مصر الجديدة طبقا لخطة مدروسة وقد زودت بطرق حديثة ومياه للشرب وصرف صحى والكهرباء وربطت بالقاهرة بخط المترو وطرق . وتوجت جهود البارون بالنجاح فبلغ عدد سكان الضاحية حوالى ٣٥ ألف نسمة (فى الستينات) . وتضم الضاحية عددا من الكنائس والمساجد والكثير من المدارس وعدد من الفنادق الفاخرة .

وبالرغم من النجاح الذى لاقاه بناء ضاحية المعادى ومدينة المقطم الا أن القاهرة تمضى بعناد فى الزحف نحو الشمال والشرق . ولا يجب أن ننسى فى هذا السياق ضاحية مدينة المهندسين التى بنيت على الضفة الغربية للنهر « ومدينة نصر » بين العباسية ومصر الجديدة .

سارت عملية تحديث القاهرة بخطى واسعة فى خلال القرنين الآخيرين . فحتى عام ١٨٥٧ لم يكن بالمدينة الا القليل من الشوارع المبلطة . وفى عام ١٨٨٠ وقع عقد مع شركة خاصة لصيانة الطرقات ولكنه فسخ فى عام ١٨٨١ ، وتولت الحكومة المصرية بنفسها المهمة .

تولت الحكومة تبليط الشوارع الآتية على التوالى مستخدمة الحجر الجيرى ، شارع الاسماعيلية وقصر النيل وعابدين والسيدة زينب وشارع شبرا وميدان العتبة الخضراء والموسكى وباب اللوق . وبين عامى ١٨٩٧ : ١٩٠٠ أعيد تبليط بعض تلك الشوارع بحجر البازلت المقتلع من محاجر أبو زعبل بدلا من الحجر الجيرى الهش القادم من طرة . وفى عام ١٩٠٦ أجريت أولى المحاولات لسفلتت الطرقات . وفى عام ١٩١١ وقع عقد مع شركة سويسرية لتنفيذ تلك المهمة .

فى عام ١٨٨٢ بلغ طول الطرق المضاءة سبعين كيلو متر تنيرهم ٢ر٤٥٩ مصباحا غازيا .

وكانت الاضاءة تخفض فى الليالى المقمرة . وفى عام ١٩٠٥ وقعت الحكومة اتفاقا جديدا مع « شركة غاز لوبن » Jas Lebon فاستبدلت فوهات مواسير الغاز بنظام « اور » Auer وبلغ عدد المصابيح فى عام ١٩١٣ / ٨ر١٦٤ . وفى عام ١٩١٤ أدخلت مصابيح الغاز ذات الضغط العالى التى كانت مستخدمة فى لندن فى هذا العهد . واليوم تضىء معظم شوارع العاصمة الكهرباء .

❋

افتتحت محطة القاهرة المركزية للسكك الحديدية فى عام ١٨٥٦ . وقد أعيد بنائها تماما عندما اتصلت بخط حديد وجه قبلى .

وفى عام ١٩٢٦ حصلت « شركة طيران امبريال » «Imperial Airways» على تصريح باستخدام مطار مصر الجديدة الحربى لتشغيل خط جوى القاهرة ــ العراق . ثم مالبث ان ازداد عدد الخطوط وشيد مطار ضخم شمال ضاحية مصر الجديدة .

❋

وفى ختام دراستنا أود أن أكرس الفقرة الأخيرة للمظهر الجمالى لمدينة القاهرة . لقد خلبت الباب كل من زارها من الرحالة على مدار السنين بعمائرها الشرقيــة ومشربياتها الخشبية وكثرة حدائقها العامرة بأشجار الفاكهة الممتدة بين دورها وطرقاتها المفعمة بالحياة التى قدمت لزائريها

صورا جديدة على عيونهم وكانت الأشجار تحف بنوكها · أما الخليج الذى كان يخترقها فقد خلع عليها مظهرا جذابا · بيد أننا اذا استثنينا الفترة الاولى من عصر الأسرة الفاطمية والعصر الحالى لوجدنا ان أى من الحكومات التى تعاقبت عليها لم تبذل جهدا حقا فى تجميل المدينة ·

لقد غرس الفرنسيون أشجارا فى الأزبكية أثناء حملة بونابرت لكنها اجتثت بعد رحيلهم بشهرين وقبل هذه الحادثة بسنوات ضحى مراد بك بأشجار جزيرة الروضة لبناء سفن للاسطول ·

وأعاد محمد على وابنه ابراهيم الحدائق الى الروضة ، لكنها لم تعش طويلا · فمياه الفيضان التى تغمرها جرفت معها الأشجار ولذا استبدلت بزراعة الخضر ·

وقد أدى بناء عدد من الشوارع الكبيرة فى عصر محمد على وحفيده اسماعيل الى هدم الكثير من الآثار الاسلامية · وأدى انشاء شارع الخليج والسكة الجديدة والأزهر والأمير فاروق الى اختفاء عدد من الأحياء الرائعة · وقد أدت عدم المبالاة التى يبديها المصريون نحو اثارهم الى خسارة فنية لا يمكن تعويضها ، فعلى سبيل المثال اختفت المشربيات تماما من بعد أن بيعت للسائحين أو فككت الى أجزاء استخدمت فى صناعة الأثاث ·

وفى عهد سعيد باشا قطعت الكثير من الأشجار خصوصا فى منطقة العباسية والقبة ·

وبين عام ١٨٦٨ و ١٨٧٥ استغلت منطقة الجزيرة فى عدد من المشروعات لارضاء نزوات الخديوى اسماعيل ، فقد اقيم هناك قصرا تحيط به الحدائق من كل جانب (فندق عمر الخيام) ليستقبل فيه ضيوفه من الأمراء والملوك المدعوين لحضور حفل افتتاح قناة السويس · وهذا القصر يحاكى على نحو أعظم قصر الهمبرا بأحواض زهوره وكهوفه وبحيراته والاكوريم ·

كانت الأشجار والحدائق تغطى منطقة بولاق الدكرور والجيزة فى ١٨٧٢ ــ ١٨٧٣ · وغرس الخديوى اسماعيل بين عام ١٨٦٨ و ١٨٧٨ الكثير من الأشجار حول الطريق الدائرى للجزيرة وطريق الجيزة وشارع الهرم · وزرع عباس حلمى الثانى الكثير من الاشجار على أطراف العباسية · ولكن أى منهم لم يبال بانقاذ المنازل التاريخية ولا القصور والمساجد العتيقة من معول الهدم · فاندثرت الى الأبد الكثير من العمائر التى أبدعها المعمار الاسلامى ·

وتعد الأحياء الجديدة التي شيدت في هذا العصر الى الشمال والشرق من مناطق الامكان الفاخر . وهي تختلف في طبيعتها عن أحياء القاهرة القديمة . فشوارعها واسعة تظللها الأشجار ومعظم دورها محاطة بالحدائق وفي بعض منها تتجلى صورة القاهرة القديمة « سلة أزهار تنبثق منها دور بديعة وعمائر أنيقة » .

تم بحمـد الله ونعمتـه

فهرس المصطلحات

ارش : مقياس فارسى يساوى الساعد من طرف الأصبع الأوسط حتى المفصل ويقدر ب ٤٠ سم ٠

بيمارستان : أنظر مارستان ٠

تلارى : النطق العربى لعملة المانية ٠

تنور : ثريا ٠

جماكدار : حامل صولجان السلطان ٠

جوكندار : حامل مضارب لعبة البولو للسلطان ٠

حارة : حى ٠

خان : فنـدق ٠

خطة : حى

درهم : وحدة موازين عربية تساوى ٢ر٣ جم ٠

دينار : وحدة موازين قديمة تساوى مثقال (٤٢٤ر٤ جم) - أو درهم ونصف ، وتستعمل فى نفس الوقت كعملة ٠

ديوان : مجلس من كبار الموظفين الاداريين والعسكريين ٠

ربض : ضاحية ٠

دبك : آلة وترية بوترين وتعزف بالقوس ٠

ربع : بيت ينقسم الى وحدات مستقلة تسكن كل واحدة أسرة ٠

رطل : وحدة موازين تساوى ٤٤٤ر كجم ٠

رواق : المسافة الواقعة بين صفى أعمدة ٠

ساج : نوع من الخشب ٠

سارى : خادم بالقصر ٠

سبيل : مبنى به حوض للشرب لسقاية المارة ٠

سلاملك : غرفة استقبال ٠

شمسية : مظلة أو خيمة ٠

عزب : جندى مشاه تركى ٠

عقبة : مدق جبلى ٠

غاشية : غطاء جواد السلطان ٠

فالوذج : فطيرة من النشا والعسل ٠

فندق : تستخدم قديما لفندق يقطنه الأجانب ٠

قـز : وحدة أطوال فارسية تساوى ٢٤ شبرا ٠

قنطار : وحدة موازين تساوى ٤٤٫٩٢٨ كجم ٠

كخيا أو كتخدا : نائب الباشا (والى القاهرة فى العصر العثمانى) ٠

كمنجة : آلة موسيقية بوترين صندوقها الصوتى يتخذ من قشرة جوز الهند ٠

مارستان : مستشفى ٠

مثقال : وحدة موازين تساوى ٤٫٤٤١ جم ٠

مجلس : حجرة تعقد فيها المجالس ٠

مدرسة : طراز من الجوامع أدخل الى مصر فى عصر صلاح الدين الأيوبى . ويتألف فيه الجامع من أبوانين أو أكثر يفتحا فى فناء مفتوح أو مغطى ٠

مدين : عملة تركية صغيرة ٠

مرفق : هيئة تتولى الرقابة الصحية فى المدينة ٠

معونة : هيئة تتولى الاشراف على نظافة المدينة

مقعد : حجرة تفتح على الفناء الداخلى للمنزل ٠

مقصورة : مقصورة تنصب للحاكم فى المسجد قرب المحراب ليصلى فيها لحمايته من أعدائه ٠

ملقف : بئر عمودى يخترق سقف المنزل وتوجه فتحته نحو الشمال لاجتذاب ريح الشمال المنعشة الى الداخل ٠

مـن : وحدة موازين فارسية قديمة تساوى ١٫٢٦٤ كجم ٠

مندرة : حجرة استقبال ٠

ميدان : فضاء فسيح يستخدم للتدريبات أو الاستعراضات الحربية . ولسباق الخيل أو الألعاب الرياضية ٠

مـزر : مشروب يماثل البوظة ٠

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٣٣٨٢

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٠٩٩٤ - ٠

يتناول هذا الكتاب قصة القاهرة ، تلك المدينة التى تبعث فى النفس - عبر تاريخها - صوراً وخيالات بطولية رائعة . . مدينة الأهرامات بصروحها الهائلة التى تعبر عن فكرة الخلود . . مدينة القلعة التى تبدو كقائد حربى مختال يشرف على جنوده الذين تؤلفهم منائر العاصمة .

ويتتبع هذا الكتاب قصة تلك المدينة الخالدة ، التى لا تتشابه مع غيرها من المدن الأوربية ، ولكنها تشكل مزاجا من عدة مدن متباينة العصور والحضارات . . مدينة الفسطاط القديمة بأكواخها المتزاحمة حول عدد الكنائس والأديرة ، والقاهرة الفاطمية بقصورها الزاهرة وحدائقها البديعة ، وهذه المدينة بدورها لا ترتبط مع المدينة الحالية المزدحمة بأى رباط سوى الرقعة الجغرافية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠ قرشا